الطبعة الثانية

أحمد التوفيق

والدٌ وما وَلَد

طفولة في سفح الظلّ





أحمد التوفيق

عمل الكاتب والمؤرخ المغربي أحمد التوفيق في التعليم الابتدائي ثم الثانوي، ومارس التعليم الجامعي في شعبة التاريخ بكلية الآداب بالرباط بين عام 1971 وعام 1989. عين مديرا لمعهد الدراسات الإفريقية إلى سنة 1995، حيث عين محافظا للخزانة العامة (المكتبة الوطنية).

وفي نونبر 2002 عين وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية.

نشرت له أبحاث في التاريخ وأربع روايات وحقق نصوصاً تراثية.

والد وما ولد

طفولة في سفح الظل

أحمد التوفيق

والد وما ولد

طفولة في سفح الظل

المركز الثقافي العربي

الكتاب

والد وما ولد

تأليف

أحمد التوفيق

الطبعة

الثانية ، 2011

عدد الصفحات: 280

القياس : 14.5 X 21.5

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-358-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص. ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس : 305726 ـ 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص. ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 750507 01 ـ 352826 01

فاكس : 343701 1 ـ 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

حـول الـعنوان

وذهني حامل، لعدة أعوام، بمشروع وضع ما علق به من ذكريات الصبا على صفحات التقييد، كنت أطرب لما خطر لي من إدراج كتاب تلك الذكريات تحت عنوان: «طفولة في سفح الظل». والقصد بسفح الظل الجهة التي تنظر إلى الشمال الغربي من جبال الأطلس الكبير، حيث توجد قرية إِمَرِغْنْ، مسقط رأسي، وهي جهة تتميز عن جهة الجنوب، المسماة عند أهلها بسفح الشمس، بغزارة نسبية في خضرة عشبها ووفرة مائها وكثافة شجر غابها. ومع توالي الأيام فتر حماسي لذلك العنوان، إذ تبين لي بجلاء، وأنا أستعيد وأُرقِّع الوقائع الخالية، أن الذي تدخل، بوسم قوي وتأثير حاسم، في تشكيل شخصية الولد الذي كنته ثم الرجل الذي صرته، ليست هي البيئة الطبيعية، وإنما هي رعاية والدي ومعاملته لي. فقد كان مع الآخرين في صلابة شجر البلوط النابت قريبا من دارنا، ولكنه، معي، بخلاف ذلك، كان ينحني عليَّ بحنوه، مدفوعا برياح عواطفه الأبوية الجامحة، حتى إنه في انحنائه كان يوشك أن يتكسر. كان بالنسبة لي ذلك الحاضر الذي لا يطاق غيابه، والأب الذي عرفت من فضله أن الأمهات يُحْسِنَّ ما لا يحسنه الرجال، عندما يتعلق الأمر بالفطام. فقد لازمني ظله ملازمة النسغ للغصن الرطيب، فلم تثقف مني الأعواد، كما تقتضي مكابدة الزمان وخشونته، بل وجدتني

مجبولا على طبع مرتخ واحد، طبع يطلب المستحيل، يطلب في كل شيء رضا الآخر، بالثمن غير المقبول وبالغرامة الباهظة. ويكفي الوالد فخرا أن ولده لم يُعيَّر بشيء إلا وله سبب ظاهر أو خفي بأثر ذلك الخفض الكريم للجناح. وأجمل ما يواسي، بهذا الصدد، اقتباس عنوان لهذه الذكريات، من إقسام الحق بوالد وما ولد، عند ذكرخلق الإنسان في كبد.

تشريح النص

الكاتب شخص تجاوز، عند كتابة هذا النص، عامه الستين. يتذكر ما عاشه أو سمعه أو فهمه أو أحس به حين كان عمره بين السنة الخامسة والثانية عشرة. يتحدث بصيغة الغائب عن والده، ويسميه «الوالد» وعن نفسه، ويسميه «الولد».

فالكلام في النص وقائع علقت في ذهن الحاكي بحسب تتابعها في الزمن وتداعياتها، مع الحرص على ذكر سياق تلك الوقائع. وقد استغرقت أخبار السياق الأول، حيث ذكر أصول عائلته وحياة والده إلى وقت زواجه من أمه ثم ولادته هو ونموه إلى عمر تذكره في سنه الخامسة، استغرقت طرفا مهما من هذا النص، وهي مما يتذكر أنه حُكي له، وليست من ذكرياته. أما الذكريات بمعنى الكلمة فتتضمن، في بعض الأحيان، بالإضافة إلى المواد التي هي حوادث ووقائع متذكَّرة، تتضمن نوعا من حكم الحاكي على تلك الوقائع الموصوفة بنوع من تفسير العلائق والخلفيات، حسب فهم الحاكي في صغره، أو ربما حتى في كبره، لذلك الماضي البعيد، أو حسب تصورها في أذهان المشاركين فيها. وقد لجأ الحاكي في تحقيق بعض تفاصيل ذكرياته لجوءا محدودا إلى بعض الشهود من الجيل الذي سبقه.

أما الموجِّه الرئيسي لهذه الذكريات والحاسم في اختيارها فهو الوقع الذي تركته مستداما في إحساس الحاكي الذي عاشها، فهنالك

تشوف إلى تصوير الحياة حوله بمختلف مكوناتها، وهنالك حرص على الخيط الرابط الذي تشكله العلاقة بين الوالد وولده، وهنالك حرص على الحفر عما يمكن أن يكون تأثير تلك الوقائع في تشكيل شخصيته الأولى أو تقعيدها.

تنتهي هذه الذكريات عند الوقت الذي انتقل فيه الحاكي من القرية إلى المدينة لمتابعة الدراسة، أي في شهر دجنبر 1955.

عندما وُلد محمد[1] في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، كان والده بورْحيم[2] قد فارق الحياة منذ ستة أشهر. لم يكن للصبي سوى أختين من أبيه، هما طامو[3] وخْديِّج[4]، توفيت أمهما. وكان بورحيم قد تزوج خدوج، أم محمد، بعد أن كانت هذه في عصمة رجل آخر توفي عنها، وله معها ولد هو برايم[5]، أخو محمد لأمه. وعليك أن تتخيل الصفات التي رشحت خدُّوج لكي يخطبها بورحيم، وهو من هو في عائلة أَيْتْ وَاحْمَانْ[6]، أسرة شيوخ توارثوا الثروة بنسبة بارزة في بيئة تتميز بالقلة والشح في الموارد، كما توارثوا الشهرة والمشيخة في قرية إِمَرِغْنْ، إحدى قرى جبال الأطلس الكبير، قرية توجد في منتصف الطريق التي كان يسلكها خلفاء الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري، كلما توجهوا جنوبا من عاصمة المغرب الكبير والأندلس، مدينة مراكش، في ركب زيارتهم كل عام لمدينة تينمل، مهد دولتهم ومدفن إمامها المؤسس، المهدي بن تومرت.

---

(1) المذكور في النص بعده بنعت «الوالد».

(2) ترخيم عبد الرحيم أو عبد الرحمان عند البربر، سكان جبال الأطلس الكبير وجهات جنوبي المغرب.

(3) صيغة لفاطمة في نفس البيئة.

(4) صيغة لخديجة.

(5) إبراهيم

(6) أيت واحمان معناه «أهل واحمان»، واحمدن صيغة في أحمد عند الأمازيغ، فهم بالتعريف بنو أحمد.

يذكرون بخصوص أوائل تاريخ هذه الأسرة في إمرغن، أن جدها علي بوالعصافر هاجر من أيت حميد بجهة تلوات بسوس، واشتغل معاونا حادقا لشيخها المسمى أفكجون، وجاء إلى القرية أشخاص غرباء فوجد بباب المسجد جماعة فسألوهم عن الشيخ يريدون المبيت عنده، فوجهوهم على سبيل الإستهزاء إلى ذلك المعاون، علي، الذي ظنوه غير مؤهل لضيافتهم، فلما دقوا بابه وسألوه: أأنت الشيخ ؟ عرف أصل المهزلة، وقال لهم لست أنا الشيخ، ولكن ادخلوا في ضيافتي، فأطعمهم ما استطاع. وعند انصرافهم أعطوه ورقة يسلمها لحرس دار السلطان بمراكش إذا قدم المدينة، وكان يتردد على المدينة لبيع أحمال ملح أو حطب أو فحم. فلما قدم القصر أكرموه ورجع إلى القرية برسالة تعيّنه شيخا على القبيلة.

أتت خدُّوج، زوجة بورحيم الجديدة، إلى إِمَرِغْنْ من قرية تطل عليها تسمى تِنْزْرْتْ، ومعناها الأنف، أي أنف الجبل[1]. وأسرتها، إذ الحُسين، أخوال محمد، كان لها مقامها، وإن كانت لا ترقى إلى مقام أسرة أيت واحمان في الشهرة. والنساء بخصالهن الذاتية روابط بين المقامات. انضمت خدُّوج بزواجها هذا إلى أسرة فيها عشرات النساء، من أزواج الإخوة الذين تتكون منهم أعمدة أسرة أيت واحمان، وأزواج أولادهم وأزواج الأقارب المقيمين معهم، ومن الخادمات والمقربات المحتضَنات وأرامل المتوفين، ومن بنات كل من ولد له بنات لم يتزوجن بعد، من المذكورين.

(1) - معظم أسماء أماكن هذه الجهات وصف طبيعي للمكان.

كان بورحيم يحمل بين جوانبه عاطفة فياضة يغدقها على بنتيه من زوجته المتوفاة، طامو وخديّج، وكان يشفق عليهما من تبعات النظام الصارم الذي يمكن أن يمارسه أي من إخوته داخل الدار، حيث لا محل لاستثناءات، أي لا محل للتدليل والامتياز عندما يتعلق الأمر بأشغال اليوم الموزعة على النساء داخل البيت، في نظام محكم من التخصص والتناوب. فالزوجة لرجلها، ولكنها في الأسرة الكبرى عضو له دور وواجبات، وكذلك البنات. فعلى الأزواج والآباء أن يتظاهروا بقدر من إخفاء العواطف حتى تسير الأمور على ما يرام، وعلى كل واحد من الذكور أن يُظهر قدرا من الخشونة يتوقف عليه دوام السمعة الضرورية. فأشغال الفلاحة والرعي والقيام بالضيافات اليومية ومواجهة مطالب تناسب الحفاظ على المقام، بمثابة حرب من أجل البقاء.

وأهم ما يتوجب الحفاظ عليه المشيخة التي توارثتها الأسرة منذ أزيد من ثلاثة قرون، يتولاها من بين الإخوة أكثرهم حكمة ووجاهة، دون أن يكون بالضرورة أكبرهم سنا. لكن وجود المشيخة في الأسرة يلقي بوارف ظلاله على كل فرد فيها، ولو كان من الخدم والرعاة. وإخوة الشيخ يُقَدَّم اسم الواحد منهم «بالسيد»، كلمة يرخمها الناس في هذا الوسط إلى كلمة «السي»، لا يحملها غيرهم، سوى ذوي نفوذ من نوع آخر، هم «الطلبة»، حفظة القرآن وأئمة المساجد، ومن له حظ من العلم المبني على القراءة والكتابة بالعربية، في وسط يتكلم اللغة البربرية (الأمازيغية)، وتراثه في الأدب والتجارب مبني على الرواية الشفوية بهذه اللغة. كان السي بورحيم يوما مَّا متقلدا

مشيخة القبيلة انطلاقا من قريته، بعد أخيه السي محمد أُلحسن[1]، ثم تولاها بعد وفاته أبناء محمد، وهم الحسين ثم عمر، وكان يعاونهما إخوتهما الآخرون السي بوقدير[2] والسي حدُّوش[3] والسي ابّويه[4]. ويذكرون أن السي الحسن أوحمان، والد كل من بورحيم ومحمد، كان متقلدا المشيخة قبل ولديه، ومن جملة أخباره أنه تعرض للظلم من قبل قائد يحكم قبيلة أيت واوزكّيت الذين هاجروا من موطنهم جنوبي الأطلس واستقروا على وادي نفيس قرب مراكش. وقد سجنه القائد، وبعد أسابيع أخبر الحراس أن المسجون كانت تأتيه كل يوم حمامة تغرد على باب زنزانته بشكل فهم الحراس منه أنها تبكي على المسجون، فأخبروا رئيسهم وأمر أن يأتوا بالمسجون إلى القائد وسأله عما يمكن أن يفسر مجيء الحمامة وبكاءها عليه كل يوم، فقال: لا أدري، كل ما أعلم هو أن أمي شريفة من ذرية المرابط سيدي احساين أومسعود[5] الذي ضريحه قرب أمزميز، فأطلق القائد سراحه.

كان السي بورحيم معروفا بشذوذه في الحنان الزائد عن المعتاد في بيئته، ويُذكر عنه أنه عندما تطلب منه الأمر أن يشارك في حرب من حروب تكتلات قواد القبائل في جنوبي المغرب، في بداية القرن

(1) محمد أولحسن، أي محمد بن الحسن، فكلمة أُو تعني في اللغة الأمازيغية: ابن عندما تكون بين اسمي شخصين.

(2) عبد القادر.

(3) أحمد.

(4) إبراهيم.

(5) تحمل ذريته ظهائر بتوقيرهم ترجع إلى العهد السعدي، وفيها نسبة الجد إلى أبي بكر الصديق، دون بيان نسبتهم في التصوف.

العشرين، ركب فرسه إلى سوس[1] ومعه مجندون آخرون من قبيلته، ولكنه لم يطق مفارقة ابنتيه فأركب خلفه كبراهما طامو، واصطحبها في تلك الرحلة وهي دون بلوغ.

تمنى السي بورحيم أن يُرزق ولدا ذكرا، ليملأ به تجويفا من حشا حبه لم تعمره البنتان، فاستجاب القدر بأن وُلد له من زوجته الثانية خدوج ولد سموه محمدا[2]، ولكن محمدا ولد يتيما كما ذُكر بعد رحيل الأب المتمني، لم تكتحل به عين الوالد ولم تُنقع به حشاشة حبه، ولكنه، على ما سيبدو، قد أورثه ذلك الضعف المفرط في ما يسمى عادة بعاطفة الأبوّة.

فتح محمد عين إدراكه فوجد أمه أرملة في وسط أسرة أيت واحمان الكبرى، ووجد أن كفيله المختص به هو الشيخ الحسين بن محمد، وهو من السي بورحيم، كما قلنا، ابن أخيه، وكان محمد يسميه عمي الحسين، مع أنه في الحقيقة هو ابن عمه .

شاء القدر أن الشيخ الحسين لم يولد له هو أيضا سوى بنتين هما فاضمة ورقوش[3]، من زوجته زهرة التي أتى بها من قبيلة أخرى بأيت وَاوْزْكَيتْ، من عائلة إذْخُّمو، بقرية تاكَاديرت نتغنشوت.

أثرت هذه الزوجة عليه بحيث جعلته يخرج من دار الأسرة الكبرى وينتبذ مكانا في طرَف القرية ليبني لها فوق تل مشرف دارا واسعة تسمى تَاوْرِيْرتْ، أي الأكمة، جعلها على نمط الرياض التي

(1) منطقة جنوبي جبال الأطلس الكبير الغربي.

(2) هو المسمى في النص بـ«الوالد».

(3) تصغير رقية للتمليح.

ابتدع تشييدها قواد جهات حوز مراكش والأطلس الكبير ليباهوا بها أقرانهم وضيوفهم، أربعة أحواض مغروسة بأشجار مختلطة أكثرها البرتقال، تحيط بها أروقة من الجوانب الأربعة، تقوم على سواري تحمل أقواسا، والأروقة والسواري مبنية بالآجرّ الأحمر المطبوخ، وعلى كل رواق فتحت غرف واسعة مسقوفة بالجبس المقبب المزوق. وبجانب هذا البناء المسمى بالرياض دار للعيال بها المطبخ والحمام، وبجانبها أروية للماشية، والكل يتميز بعلو غير معهود في بناء غيرها من دور القرية، والباب الخارجية فخمة مفتوحة على ردهة داخلية يجلس فيها الشيخ لقضاء مقابلات من لا يحتاج الأمر إلى استضافتهم داخل الرياض. استكمل الباني شروط الرياض بجلب ماء في السواقي من غيابات استحدثت في جبهة الجبل المطل.

بنى الشيخ الحسين هذه الدار الخاصة به في الطرف الآخر من القرية، وأحدث قرار انعزاله تأثيرا سيئا شديدا في نفوس إخوته، وأسرُّوا في نفوسهم اللوم الماقت للزوجة الدخيلة التي رأوا أنها كانت وراء ذلك الشرخ المكاني في حياة الأسرة الكبيرة، وذكروا مثيلات لها من الزوجات الدخيلات اللائي تسببن في شروخ مماثلة في عدد من الأسر الكبرى في القبائل المجاورة، وحاروا في تحديد ما إن كان الأمر راجعا إلى استعلاء النساء أو إلى تواطؤ الرجال، ومهما يكن فذلك في اعتقادهم كان من علامات تبدل الزمان.

توفيت خدُّوج أم محمد، وكان قد صار شابا يافعا عندما سكن كفيله الشيخ الحسين داره في تاوريرت، واتخذ الشيخ الحسين محمدا بمثابة ولده، فجعله المشرف على أشغاله وقضاء حوائج داره،

وبالتالي ضم موروثه من الأملاك إلى أملاكه. وكان الناس يسمونه بدوره السي محمد[1] أوبورحيم.

يذكر محمد أن أمه خدُّوج كانت حريصة على أن يواظب، وهو طفل، على الذهاب إلى الكتَّاب، حتى يكمل حفظ القرآن حفظا كاملا. ولكن محمدا، بعد أن حصَّل ما تيسر من القرآن في طفولته الأولى، صار يتغيب، وربما فر من المسجد ولجأ إلى قرية أخواله إد الحسين المجاورة بتنزرت، لأن الأخوال كانوا يبالغون في تدليل ولد بنتهم ولا يشقّون عليه في شيء. وإذ أرسلت إليه أمه خادما يعود به محمولا على الكتفين، كان الولد النافر يعض ويقرص الخادم المسخر في إرجاعه وهو يصرخ، وكان يقول لهم: «أنتم تحرصون على أن أكون طالبا (حافظا للقرآن) لأستحق إضافة لقب السيد (السي) إلى اسمي، إن الناس سيذكرونني مقرونا بذلك التسييد دون أن أكون طالبا». كان يعتمد في ذلك على نبل أهله بالمشيخة المقرونة بتسييد أولادها.

توفيت أم محمد، كما أشرنا، قبل خروج الشيخ الحسين إلى داره الجديدة. وكان على محمد في هذه الدار الجديدة أن يلعب دور المكفول الذي هو بمثابة الابن، وسيدة الدار ذات النفوذ تتمنى أن يكون في الدار ولد منها هي، ليلعب هذا الدور، لكن ذلك الأمل لم يتحقق، فما بقي لها إلا أن تحرص على أن تبقى لابنتيها، فاطمة ورقوش، مكانتهما غير مغصوبة بوجود هذا الذَّكَر الربيب، وأنَّى لها

(1) في الوسط يغلب على اللغة تسكين حروف الكلمات، فاسم محمد ينطق بضم الميم في الأول وتسكين الباقي.

ذلك! إذ ليس الذكر كالأنثى في ذلك العهد، وذلك الوسط، المحتاج لكدح الرجال وشقائهم.

اقتسمت العائلة، عائلة أيت واحمان الكبرى المتكونة من الإخوة الثلاثة، الحسين وعمر وحدوش (احماد) وعمهم بوقدير، قسمت أملاكها عام ثمانية وثلاثين، إلا أشجار الزيتون ظلت على استغلال مشترك، وكان الشيخ الحسين قد تولى أملاك الشيخ بورحيم المتوفى عام أحد عشر وهو والد الوالد.

أدار الشيخ الحسين أمور المشيخة بحكمة من داره الجديدة بتاوريرت كما كان يديرها من دار العائلة المشتركة بالقرية العليا. وقد ضمن منذ توليه المشيخة احترام الناس له في مختلف قرى القبيلة لأنه أظهر غير ما مرة حمية في دفاعه عنهم ضد النصارى[1] من جهة، وضد تحرشات قائد القبيلة من جهة أخرى. فقد كان أسلاف القائد[2] شيوخا في قبيلة من قبائل الجبل، فتقوَّوْا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، وأخضعوا عددا من الشيوخ بالتغلب وتدخلوا لدى السلطان حتى أخذوا تزكيته لهم في القيادة، وظلوا يحفظون على أيت واحمان تمنعهم وأنفتهم وصمودهم بمختلف الوسائل، ولاسيما شعبية مشيختهم، حتى حُسم الأمر بعقد الحماية الفرنسية التي كفَّت أيدي القواد عن التوسع خارج إرادة النظام الجديد. وقد كان بين

(1) هذه هي التسمية التي ستستعمل في هذا النص لتعني الفرنسيين الذين كانوا يديرون المغرب على أساس عقد الحماية (الاستعمار)، غير التسمية المستعملة محليا هي إرموين، أي الروم، لأن المغاربة عرفوا الروم قديما وارتبط الاسم بكل المسيحيين من جهة، وبكل الأجانب من جهة أخرى.

(2) القائد هنا قائد قبائل وادي نفيس، وتحت نظره عدد من الشيوخ يتعاملون معه جميعهم بالخضوع ويتفاوتون في الخنوع.

الأسرتين، أسرة القواد المحليين وأسرة شيوخ أيت واحمان، تعامل اضطراري وتظاهر بالمودة ومداراة بالهدايا وبذل الأدب اللازم من جهة الشيوخ، وعداوة مكنونة وتربص من الجانب الآخر.

أدرك الشيخ الحسين نايت واحمان أن إنهاء بناء رياضه (داره الكبرى) الجديدة والانتقال للسكنى فيها يقتضي إقامة حفلة وكيرة[1] يحضرها الأعيان والأقران، فالأفضل له أن يستبق ويدعو للحفل قبل أن يلمزه بعض أعدائه بالتخلف، وعلى رأسهم القائد. تعبأ للحفل والضيافة إخوان الشيخ، أهل قبيلته، لأن ظهورهم في هذا المهرجان كما يليق بهم، يرهن شرف الجميع. والنفرة المعتادة في مثل هذه المناسبات تأتي طوعا، ولكنها جبرية بما تفرضه العادة، فالحاكم الحليم في تلك البيئة يكفيه أن يركب العادة ويتقمص شرف الجماعة ليضمن الوفاء له والطاعة.

شخص الشيخ الحسين ذلك الشرف فعلا، فهو وسيم مهيب، راقي الهندام، لاسيما إذا ارتدى القفطان الملفي الوافر العقد، ولبس فوقه السلهام الحريري المسمى بالدائرة، وبغلته النجيبة تتميز عن غيرها من البغال بإهابها ومشيتها الوئيدة ولونها الأدهم، والسرجة التي توضع فوقها مطرزة بأحسن ما يتقنه الصناع اليهود الذين يتخصصون في مثل هذا الفن، وكل شيء منسوب إليه متفرد، صاحب بغلته، وصانع شايه، والمتعهد لأوانيه، وصاحب خزينه، ورقّاصه الذي يمشي بكلامه أو رسائله، ومشاوره، وجليسه الفقيه. والشيخ فوق ذلك لم يتفحش على أحد ولم يصخب، بل كان يعرف كيف

(1) الوكيرة : وليمة الانتهاء من بناء الدار.

يدير الأمور حوله باستخدام حركة عينيه وإشارة يديه وإيماءة رأسه، يؤكد تعبيره بعبارات مقتصدة، تُنتظر منه في أحرج المواقف، فتتحول إلى إجراءات تنفيذ وأحكام، لاسيما في جلسته اليومية بدَكَّة بباب داره، بين وقت الغلس ووقت طلوع الشمس، إذا لم يخرج لسفر بعيد عَقِب صلاة الفجر.

شاع خبر الدعوة للوكيرة التي بدأ الإعداد لها قبل شهرين من الموعد المحدد. بدأ الحطابون بجلب الحطب من الغابة، ولما كان الحطب اليابس المسموح به لا يكفي، فقد فضل الشيخ أن يقطع بعض أشجار زيتونه على أن يستجدي حراس الغابة من النصارى حتى يغضّوا أبصارهم عن قطع العرعر أو البلوط الأخضر الممنوع قطعه على الناس. والناس لا يفوتهم كل ما يصدر عن الشيخ من تصرفات تنم عن شمم وإباء.

اجتمع إخوة الشيخ من عائلته القريبة فتحدثوا في موضوع الحفل وتوزعوا المهام، فمن مشرف على إعداد حنطة القمح وما في حكم ذلك، ومن ساهر على التفريش والتأثيث، ومن مترصد في عزبات العائلة، حيث الأغنام والأبقار، لاختيار أجود ما يمكن ذبحه منها للشواء وغيره، ومن مستكمل لعدة الإدام، زيتا وسمنا وعسلا، ومن باحث عن أفاويه في أسواق المدينة تتطلبها أنواع من طعام الأعيان، عدا ما هو مألوف في دار الشيخ ولا يذوقه عامة الناس خارجها، ومن محتسب لما ينبغي إعداده من رؤوس الطير دجاجا وحماما وإِوزّاً، ومن ساهر على تعبيد طريق السيارات التي سيصل منها القائد وأصحابه وقواد من القبائل المجاورة، وهم من قلة من الناس تملكوا السيارات قبل الحرب العالمية الثانية، ومع هؤلاء

الأعيان سيصل حكام النصارى وبعض الموظفين الإداريين، كالدركيين والجباة وحراس الغابة، ومن ساهر على إعداد أماكن لضيافة أعيان القبائل ممن هم دون المذكورين في المقام، وهم سيحضرون راكبين خيلهم أو بغالهم، ولا يغادرون إلا في اليوم الموالي، فيتعين القيام بواجب ضيافتهم وبعلف مراكبهم من الخيل والبغال.

وفي يوم الوكيرة وصل كبار المدعوين، وعلى رأسهم القائد، ومعه قواد قبائل مجاورة وحكام من النصارى، ومع كلٍّ حاشيته وحرسه. كان في استقبال الضيوف القادمين على السيارات مئات الرجال والنساء من مختلف الأعمار، مصطفين على جانبي الطريق على طول عدة أميال، يحيُّون ويهتفون ويزغردون، وعدد منهم لم يروا السيارة قبل ذلك عن هذا القرب. وعند الدخول إلى القرية كانت صفوف المرحبين يتخللها فرسان على صهوات خيل تتنافس أناقة سروجها وتزيينات ألجمتها مع أناقة جلاليب الممتطين وسلاهمهم وعماماتهم ومجاديل خناجرهم وترصيعات بنادقهم التي لم تعد تستعمل إلا لإطلاق البارود في مثل هذه الزينة، بعد أن منعت سلطات الحماية الفرنسية بيع الرصاص للأفراد. جرت للترحيب أسراب الفرسان على عوائدهم من التسابق، ولكنهم لا يفجرون إلا بارودا محسوبا عليهم شراؤه بأرطال محدودة في نهاية المطاف.

تعمد القائد ألا يظهر إعجابا غير عادي بما شيده الشيخ، فاكتفى مع مرافقيه بطواف سريع بداخل الرياض وبالإطلال على البروج ذات القباب، ثم خرج إلى حيث الرواقات المنصوبة المفروشة على امتداد البيدر الذي تحت الدار في منظر زاه مشرف

على حقول القرية، وأمام الرواقات كانت فرق الغناء والرقص تصنع الفرجة على طريقة أهل تلك الجبال. كان النصارى مصحوبين ببعض نسائهم، مهتمين باكتشاف تلك المناظر الطبيعية والبشرية والثقافية، يلتقطون الصور من كل جانب، بينما انغمس القائد وصحبه من المهرجين والمشاورين في لعب الورق، غير آبهين لأي شيء آخر.

وقع أن أحد المهرجين المشاركين في اللعب ضُبط أو تعمد أن يُضبَط وهو يغش بسرقة ورقة لترجيح حسابه، فثارت ثائرة القائد وقرر عقابه، فأمر بإحضار شِباك من تلك التي ينقل فيها التبن بعد دراس الحبوب إلى مخازنه، فأحضرت ووضع فيها المهرج وعلق داخل الشباك في خشبة، نصفها الذي فيه الشبكة على الهاوية، ونصفها على سطح منزل الشيخ، وعلوه أكثر من عشرة ألواح من الطابية، وضعت على الخشبة حجارة كبيرة توازن ثقل الرجل وهو مدلى في الفضاء. وهكذا أحدث القائد فرجة انصرفت بها الأنظار عن كل الراقصين والمغنين والمحتفلين من الفرسان. فكل العيون كانت مشدودة إلى الشبكة التي عُلِّقَ فيها المهرج، ومصير تحريره بيد القائد لا بيد غيره، وهو يصرخ ويستغيث، وكان في استغاثته ينادي شيوخ القبائل وأعيانها ويرجو من كل واحد أن يتدخل لفك أسره، ولا يخفى على أحد أن تلك الشفاعة لا تكون إلا بهبة من المال تقدم للقائد، يتحمل فيها كل واحد من المستغاث بهم نصيبا مفترضا.

انتهى الحفل وتنفست القرية الصعداء واسترد الشيخ الحسين وإخوته أنفاسهم. أما محمد فقد كان عليه أن ينغمس في معركة أشغال بداية الصيف، فقد كان عمره يقارب الثلاثين، وعليه مدار تدبير أملاك عمه مما تأتى له من الملك الخاص دون ما هو مشترك مع

الإخوة. وأكثر المواسم أشغالا موسم الحرث وموسم جمع المحصول بالحصاد والدرس والتذرية والتصفية مع الشركاء. وأسرة كبرى، كأسرة أيت واحمان، لا تكفيها حصيلة حرث بقع أرض ضيقة في الجبل، لذلك حرص الشيخ الحسين وإخوته على أن تكون لهم أراض شاسعة في هضبة خصبة مجاورة تدعى بلد كيك، وكان لأيت واحمان خلطاء هناك يعاملونهم في استثمار تلك الأراضي.

قررت الأسرة في ذلك العام ذي الزرع الجيد، عام تسعة وثلاثين، تزويج عدد من أبنائها، إذ بلغ بعضهم وجاوز آخرون سن التأهل، أي اتخاذ الأهل بالزواج، وذلك هو المصطلح المعتاد. وكان محمد من بين المرشحين للتعريس، فكلفة العرس الواحد عند هؤلاء هي كلفة عشرين عرسا إلا زيادة طفيفة، لأن الضيوف هم نفس الضيوف، والنفقة هي نفس النفقة.

تميز محمد عن بقية الأقارب المعرسين بأن طلب عروسه من خارج الأسرة، بل ومن خارج القرية، بل ومن خارج القبيلة. فقد رصد في وقت من مواسم إقامته على جمع المحصول في كيك، رصد بنت عائلة طيبة الأعراق تدعى عائلة أيت عبلاً (عبد الله) بقرية أمَّاس ن كيك، واسم البنت عبوش[1]، كانت مقيمة منذ صغرها عند خالتها بقرية أكَادير إزناكَن (حصن صنهاجة)، وهي من قرى بلد كيك، وكان بين رأس العائلة، الشيخ عمران، زوج خالة البنت، وبين الشيخ الحسين، كفيل محمد، تفاهم ومودة. أما والد البنت، واسمه السي حدوش، فقد كان على درجة من حفظ القرآن ومن

(1) صيغة تصغير وتمليح في عائشة مستعملة في هذا الوسط.

المعرفة الدينية. كانت تغلب عليه مسكنة مقرونة بذكاء ولين جانب ولطف معشر.

دخلت عبوش زوجا لمحمد إلى دار الشيخ الحسين، وبالدار زوجته التي جاءت من نفس القبيلة، وولد لها مع الشيخ بنتان إحداهما قاربت سن الزواج، لكن محمدا لم يطرق هذا الباب، أي التزوج ببنت كفيله. ولا شك أن صغر سن البنت من جهة، والعلاقة مع زوجة العم من جهة أخرى، رجَّحا هذا القرار. وكان على عبوش أن تتحمل عواقب علاقة زوجها اليتيم مع زوجة عمه الكفيل وابنتيها المتشبعتين بمزاجهما السلبي تجاه الولد المكفول. وباختصار، كان على تلك العروس أن تخدم وتصبر، وكذلك فعلت، أعانها على تحمل مصيرها أنها من الطينة الصابرة المتقبلة للأضرار، حتى ضرب بها المثل في ذلك.

من حظ عبوش أنها حملت بعد سنة واحدة من زواجها ووضعت ذكرا سموه عبد الهادي، تأثرا بأسماء مستحدثة في المدن، لأن هذا الاسم غير مسبوق في تلك البيئة. كان وجه الصبي، على ما يذكرون، كالقمر المنير، لم تتحمل روحه اللطيفة ثقل الجو النفسي المشحون بالغيرة النسوية الذي ولد فيه، فلم يعش سوى ستة أشهر ومات بورم أصابه في أعلى رأسه.

اقشعر رحم عبوش من شدة الفاجعة فلم تحمل ببطن ثان إلا بعد مضي عامين، فلما وضعت ولدها الثاني سموه أحمد[1]، كان ميلاده عند ظهر يوم خميس من أواخر يونيه من عام الثالثة والأربعين.

(1) هو المذكور في هذا النص بنعت : «الولد».

كانت عقيقته بإطعام الفقراء في الزاوية التجانية. ولد وقد مضى عامان على وفاة الشيخ الحسين، وكانت المشيخة قد عادت من تاوريرت إلى الدار الأصلية في القرية العليا، حيث ورثها السي عمر أخو المتوفى.

لم تكتمل فرحة الوالدين بأحمد لأن وفاة الشيخ الحسين جعل مكفوله، محمدا، في مواجهة مصير جديد، فإما أن يتزوج كبرى بنتي عمه، فاطمة، ويضمن بذلك الاستمرار على إرث أبيه وهو إرث داخل في جملة ملك عمه، وعلى إرث البنتين وأمهما الأرمل، وإما أن يأتي غريم من بني العمومة ليتزوج هذه البنت الوريثة، ويضايق محمدا، وقد يتسبب له في أن يخرج من تاوريرت خاوي الوفاض، وتضيع ثمرة كدحه واشتغاله ثلاثين عاما، لأنها غير مكرسة بأي رسم يثبت تملكا خاصا به في حياة عمه. اختار الأمر الأول ليفوت الفرصة على أحد أبناء عمه بوقدير، وكان هذا القريب المزهو بشبابه وبرياسته في عدة أمور يتشوف إلى الزواج بفاضمة.

كانت فاضمة بيضاء نحيفة مائلة إلى القصر، سريعة التأثر، حاملة لاستعلاء أبدي مرده إلى شعورها بتميز في شرف المكانة، وبكونها هي الأصل في دار أبيها، في نفسها شيء من هذا الزوج الذي لم ينتظرها ولم يخترها أول مرة، وليس لها وحدها الآن، بل هو أيضا زوج لعبوش التي أعطت الدليل مرتين على أنها تلد الذكور.

خرم الموت ركنا آخر من أركان عائلة أيت واحمان هو حدوش (احماد)، فترك أرملا هي صغرى الأختين لمحمد، تسمى خديج وخلف معها ولدا وبنتين. كان حدوش هو القيم على خزائن الأسرة، يخرج كل يوم ما ينفق من العولة حبوبا وإداما وغير ذلك.

تألمت الأسرة لمصاب أحد أبناء بوقدير اسمه همًّا، وكان أمهر فرسانها، حكي عنه أنه سابق فرسان القبائل في صعود مزبلة أمام حصن قائد قرية أومناس، وهي في انتصابها ووُعُورتها أقل قليلا من الجدار، فتسلقها وكان الأول، واستحق زغاريد النساء، وأثار ذلك حفيظة أهل القائد، فدبروا له مكيدة واتهموه بأمر مًّا، فثقفه (حبسه مغلولا بالقيود) القائد حتى افتداه أهله بمال .

أما المصاب الذي نزل به بعد ذلك فكان غدرا، إذ ذهب بزيت كثير من نتاج زيتون أهله، وباعه بمال في قاعة (سوق) مراكش، فبات عند فوال[1] صحراوي بباب سوق السمارين فشدخ الفوال رأسه بحجر كبير وهو نائم، لكن الطبيب استطاع إنقاذه من الموت، وكان الناس يظنون أنه قد رمم عظم جمجمته بقشر القرع المعروف بالسلاوي. وهكذا أبناء أعيان الجبليين، عندما يخرجون من بيئتهم ويدخلون المدينة يفقدون كل علامات النبل المظهري الذي يتبخترون به بين أهليهم.

أحب محمد وليده أحمد إلى حد الكلف، وأكثر من إخراج الصدقات وطلب الدعوات لحفظه من مثل الورم الذي قضى على ابنه البكر عبد الهادي، وأذعنت الأم لزواج والد ابنها من ابنة عمه كما يذعن المحبّ لمصلحة المحبوب، وربما شعرت بأنها، بوليدها إذا عاش، لن تحس يوما أنها خسرت شيئا من الزوج، لأن المهم هو أن يكون للمرأة رجل، والرجل الذي خرج من أحشائها هو اللصيق

(1) الذي يقلي الفول والحمص ويبيعهما.

بقلبها ما دامت على قيد الحياة، تتحمله وتتحمل غيره من أجله، سواء كان هذا الغير ضرة أو زوجا مشتركا أو أي نكد تأتي به الأيام.

وعلى كل حال فإن محمدا، هذا الزوج المشترك، لم يكن خلال العامين الأولين من عمر وليده أحمد، ومن عمر زواجه الثاني، يقيم في الدار إلا أياما معدودة في الشهر، فقد كان ينوب عن عمه المتشيِّخ الثاني، كما كان ينوب عن عمه الشيخ الفقيد. ينوب عنه في وظائف المشيخة التي تتطلب التغيب عن الدار، وأحرجها في تلك الأيام تعبئة رجال القبائل في قطع أشجار الغابة لصنع الفحم الذي كان ينقل من المغرب إلى أوروبا لتسير به عجلة الحرب العالمية الدائرة هناك. فقد ألقى الحكام من أجل هذا الشغل، صنع الفحم، بمآت من أبناء القبائل المسخرين بلا أجر، وعينوا لهم أماكن وجود الخشب الجيد الذي ينتج منه الفحم الجيد في غابات أعالي جبال تطل على القرية تسمى تاخرخورت. وتعقبت المشتغلين سطوة الأسياد في إعداد الكميات المطلوبة في الشهر، ما بين قطع الخشب وصنع حزمات من أطراف أشجار البلوط، وبين تغطيتها بالتراب على شكل مخروطات، وإحراقها مدفونة تحت ذلك الغطاء لتحويلها إلى فحم جيّد، وبين حمل هذا الفحم على الحمير من أعالي الجبل إلى نقطة بجانب الطريق المعبدة التي يحمل منها بالشاحنات إلى مرسى الدار البيضاء، على بعد ثلاثمائة كلم، ومنها إلى جبهات الحرب في أوروبا. وفي مدة عامين حف ذلك الجحفل من أبناء القبائل المسخرين كل ما نبت منذ قرون من الأشجار في رأس الجبل وظهره، فتركوه يتهاوى أو يتصبر في عناء لصقيع دائم لا يتجدد معه

نبات. إن هذا الجبل ما زال ينتظر ميدالية باعتباره من قدماء المحاربين.

تنفس الناس الصعداء عندما وضعت الحرب أوزارها وتخلصوا مما وقع في عقر دارهم من سخرات الحرب البعيدة، ولم يبق منها سوى نظام تقسيط المواد بالبطائق (البون)، وبدأ يرجع بالتدريج محاربون يملأون الدنيا غطرسة وتهريجا، ورأى الناس من هؤلاء العائدين من كان يجرؤ على الأعيان المحليين، بل وحتى على النصارى الحكام، فتعجبوا، وكان بعض العائدين رجع بأسنانٍ من الذهب في فمه أو بذقون حليقة على غير المألوف في الرجال، أو برطانة هي مزيج من كلام البربر والعرب وعجم النصارى.

أما محمد فقد التفت حواليه فوجد عبوش قد فطمت أحمد لأنه بلغ من عمره عامين. لم يتحمل الولد الفطام إلا بمشقة وعناء، فكان يستيقظ في الليل يطلب حليب الأم فيُمَوِّهُون عليه بحليب البقر البارد فيبكي ويقول: ليس بذاك، ليس بذاك، يقولها برطانة الأطفال (أوتيكّي، أوتيكّي).

كل من سمع بما عليه الطفل من صعوبة تقبل واقع الفطام الذي وجب الإذعان إليه عادة في مثل تلك السن، توجس، بناء على التجربة، من أن يكبر الولد مدللا ناقص الصلابة، قياسا بأقرانه. ولم يخطئوا في توقعهم الرديء لأن الولد سيكبر مدللا ناقص الصلابة في الطبع، إلا أن الذي يعسر تحديده هو من المسؤول عن ذلك المصير، وراثة الطفل لمرارة والده اليتيم؟ أم رضاع أمه المضامة؟ أم سلوك الوالد الذي يبدو عليه أنه قرر أن يضرب عرض الحائط بما جرى به العرف في التعامل مع الأبناء المنتظر إعدادهم للنوائب، وأن يجعل

ابنه شيئا آخر، حتى قال عنه نسوة في الدار إنه يريد أن يجعل منه شيئا أقرب إلى البنت منه إلى الولد!

وإذا كان محمد قد فرض إرادته على الجميع في خرق عوائد العلاقة المرعية في التنشئة بتغليب الدلال إزاء ولده وجعله على مدى الأيام لصيقا بجسده، فإن لبعض النساء سلطة لا يمكن تحديها بسهولة في هذا الباب، لاسيما إذا كان إملاؤهن لا يمس صلب هذا التوجه المبتدع في العلاقة بين الوالد والولد. كان هؤلاء النساء المسنات يتمثّلن، في حالة محمد وأحمد، في العمتين طامو وخديج. فعندما بلغ الولد عامه الأول توجهتا إلى أخيهما لمطالبته بالقيام بما تفرضه العادة من تحليق شعر الوليد على يد حفيد أحد المرابطين المعتقد فيهم الصلاح، يستند إليه أهل إمَرِغْنْ في ما يشبه تبريك أبنائهم الذكور. إنه الشخص المتبرك به آنذاك من أحفاد صالح في الجبل الذي بين وادي أوريكة ووادي غيغاية، ويسمى سيدي فارس، وهو شخص تاريخي عاش قبل أكثر من قرنين.

بلغ الولد عامين وحمد الوالد الله على أن الورم الذي أصاب ولده البكر في قمة رأسه وأودى به لم يظهر في أحمد، فأبناء هذه الزاوية هم الذين يطوفون على قبائل الجبل في هذه الجهة لحلق شعر الصبيان عند تمام سنتهم الأولى، والمعتقد أن هذا الحلق حرز للصبيان، ويتم في موسم الربيع حيث يجري خلق شعر الصغار بكيفيات تختلف بحسب الجهات وأقدار الأهل.

يسمى أهل البلد الواحد من هؤلاء الذين يحلقون شيئا من شعر رأس الأطفال على سبيل المباركة «أكَرام»، (بكاف تنطق كالجيم البدوية) وجمعهم «إكَرامن»، وتسمى عملية الحلق التي تجري على

الطفل في نهاية سنته الأولى «أَسْكُرْمْ»، فيحتمل على هذا الأساس أن يكون الفعل من اسم الفاعل (أكَرم) ويكون في معنى «المباركة» من رجل مبارك، كما يحتمل أن يكون اسم الفاعل قد أتى من الفعل (أَسْكُرْمْ) بمعنى الجز أو الحف أو الحلق، فتحمل العملية على أنها خالية من شحنة دينية، ولكن الاعتقاد بأن عدم إخضاع الطفل لهذا الحلق يحرمه من حماية غيبية يعيدنا إلى ترجيح أن يكون أكَرام يعني الشخص الحامل لبركة معينة يستفيد منها الأطفال المتعرضون على يده لهذا الحلق.

والواقع أن هذا الحلق، «أَسْكُرْمْ»، له بعد تأهيلي، فالأطفال الذين يحلق رأسهم الشخص «المبارك»، أكَرام، يدخلون بالتبعية لآبائهم في سند هذا الشخص، فإذا عاد في موعد يتحدد بوقت الانتهاء من جمع المحاصيل الزراعية ليجمع القسط المعين له عند حساب الحصيلة وتخصيص نصيب له من الزكاة والأعشار، يتفقد الأولاد الذين حلق رؤوسهم في السنة الماضية.

ولما كان هذا الشخص من سلالة رجل معروف تاريخه ونسبه في المجال الفكري الذي يشمله، بتوسع، الانتماء الصوفي الإسلامي، يتبين مدى تراتب مستويات المقدس في هذا الوسط القروي الزراعي. ولا يستبعد على هذا الأساس أن يكون الضمير الديني قد تبنى هنا طبقات من الممارسة ترجع حتى إلى ما قبل الإسلام. فالاستناد إلى زاوية سيدي فارس في إِمَرِغْنْ من خلال زيارة سنوية لبعض المعتمدين إلى مقر الزاوية، ومن خلال تخصيص حصة من الزرع تسمى «تاريالت نوكَرام» أي (قفة المرابط)، وهي الحصة المخصصة للشخص المدعو أكَرام، ومن خلال تطواف أحد أبناء

الزاوية على القرى في زمن الربيع لحلق رؤوس الصبيان، كل هذا لا يتنافى مع الاندماج التام للناس في السنة الإسلامية، ومع الانتساب إلى طرق صوفية ذات مظاهر حضرية كالتجانية.

يخضع الأولاد لعملية أسكَرم دون البنات، والحلق ليس حف الشعر كله، ولكنه يكون برسم علامة في رأس الطفل بترك شيء من الشعر، إما على شكل عرف وسط الرأس، من مقدمته إلى نهاية سطحه، وإما على شكل شريط يتوسط الرأس موازيا للجبهة، وإما على شكل دائرة من الشعر وسطها خصلة متدلية، وتكون الدائرة إما في وسط مؤخرة الرأس لتتدلى الخصلة على القفا، وإما في الزاوية اليمنى أو الزاوية اليسرى لسطح الرأس، لتتدلى الخصلة على إحدى الأذنين. يسمى هذا العرف في اللغة المحلية أزيكَ، وتسمى الخصلة أكيوض، والأسر تختار لصبيانها شكل تلك العلامة على حسب عوائد لم يجر الحديث يوما أمام الولد عن تفسيرها. ولعل أصل التميز بهذا الصدد تنوسي مع مرور الزمن، أما أحمد فقد كان يحمل في طفولته الأولى خصلة على الجهة اليمنى من مؤخرة رأسه. وتكاد تلك العلامات تشكل مجرد زينة للطفولة الأولى، في صبا أحمد، علما بأنها في عهود سابقة ربما كانت ترافق حاملها إلى وقت من شبابه أو كهولته.

لا شك أن السي محمد أُوبورحيم قد بلغه ما كان يُحكى عن أبيه من حبه المفرط لبنتيه، حتى إنه، كما سلف، أردف إحداهما على فرسه وهي دون البلوغ في سفره إلى حركة حربية إلى سوس، ولو أدرك أبو البنتين إنجاب الولد لفعل به شيئا أقوى، وكيف لا يغالي محمد في احتضان هذا الولد وهو لا يبالي! فقُرْبُه منه يعوض

لديه المسافات التي عانى من امتدادها حوله منذ أن فتح عينيه على قساوة غُربته ووحشة استغراقه في خدمة الأعمام، والحال أن واقع الأمر تطلب منه أن يكبر دون أن يسهم أحد في إكباره، ليتحمل بنفسه مسؤولية وجوده، وكأن الرعاية التي أحيط بها من الرجال حوله وهو يتيم، إنما كانت مما فاض عن حبهم لأبنائهم من أصلابهم.

اعتاد الناس أن يروا السي محمد مصحوبا بولده الصبي، على امتداد تقدم العمر به. ومنذ أن بدأ الولد يتسلق عامه الثالث، كان يُرى على الدوام خلف الوالد، محمولا فوق رقبة أحد الخدام، خادم شاب أعزب قوي وسيم، ملحق كآخرين بدار السي محمد، يحتطب ويستسقي ويقوم بأعمال حرث طفيفة في ما لم يُعطَ على سبيل الشراكة من الأملاك، ويُبعث إلى السوق وغيره في قضاء أمور كثيرة. كان اسمه أحمد نْ[1] بنطالب، وكان والده حْسِين ن بنطالب قيِّما على أقرب حديقة لرياض تاوريرت. وكان مؤذنا في مسجد قرية إِمَرِغَنْ الصغرى المسماة بأكَرسورا، أي نقطة توزيع مصارف مياه الساقية الكبرى على السواقي الصغرى التي تنساب عبر الحقول التي في الجانب الشرقي في القرية.

قرية إِمَرِغَنْ قريتان، القرية العليا (أَفْلاَّ)، والقرية السفلى (أكَرسورا)، كلاهما في سفح جبل في جهة جنوب منخفض واسع تحيط به الجبال، وقد تكوَّن هذا المنخفض على ما يبدو بسبب انكسار قوي في قشرة الأرض، والملح يتوافر في حواشي هذا المنخفض، كما يتوافر حجر الجبس، ومياه جوف المنخفض لذلك

(1) ن، ساكنة تعني باللغة الأمازيغية أداة نسبة ما قبلها لما بعدها.

آسنة إذا طُلبت في العمق، إلا من بعض العيون العالية في سفح الجبل الجنوبي.

يخترق المنخفض شعب لا يجري فيه الماء إلا إذا سقط مطر فصل الشتاء أو وقعت بعض أعاصير الصيف التي تجعله يحمل سيلا قويا دافعا للحجارة، لكن الماء في هذه الحال يظل في سرير الشعب المتعمق. أما في ما عدا ذلك من الأوقات فهو جافّ تجري فيه الزلاميم، لذلك يسمى إغزر ن بويكَجدرن. يبتدئ هذا الشعب من جهة قرية أنف الجبل (تِنْزْرْتْ) في الشرق، ومن خلف جبال هذه القرية تطلع الشمس ويطلع القمر، فينزل الشِّعب منحدرا إلى منخفض إِمَرِغْنْ، فيشطره إلى جهتين، جهة يسار، في المستوى الأعلى منها توجد بساتين القرية المغروسة بأشجار الزيتون وغيرها من مختلف الأشجار المثمرات، وعليها تطل القرية، وهي حقول وبساتين تسقى بماء اشتقت ساقيته من نهر ويركَان، فجرت منه لتصل إلى القرية بعد مسافة عدة أميال، أما جهة يمين الشِّعب، وهي أراض قلما يصل إليها الماء المجلوب من النهر المذكور، فتحرث على أنها أراض بور، وكان بها كثير من أشواك النبق في وقت طفولة أحمد .يخترق منخفض إِمَرِغْنْ، في وضع يكاد يكون عموديا على اتجاه الشعب، مجرى آخر هو طريق السيارات الرابط بين مراكش وتارودانت، عبر تيزي ن تاست. انتهى تعبيده في منتصف أعوام العشرين من قرن الاستعمار، وله قنطرة على الشِّعب المذكور، وبجانب القنطرة بعض الدور هي جزء من عزبان[1] في ملك كبريات عائلات إِمَرِغْنْ،

(1) جمع عزيب، وهو سكنى الرعاة وحظائر أغنامهم في فصل معين، =

مساحات صالحة للزراعة في الطرف الأدنى للمنخفض على الجهة الغربية، بفضل عيون ماء شجعت على الحرث المسقي، وعلى بناء زرائب للرعاة والقطعان ومنازل للخماسين.

تحيط هذه الجبال العالية بإِمَرِغْنْ فتجعل منها منخفضا كالقصعة، جبال تفصل القرية من جهة الشرق عن وادي أَزّادن، وعلى هذا النهر قبيلة في عدة قرى تعيش على الرعي خاصة، ولا تزرع من الحبوب في الغالب إلا الذرة، نظرا لتوافق موسم نموها مع فصل الصيف القصير عندهم، حيث يقل البرد في تلك الأعالي.

يُحكى أن أهل قرية من هذه القبيلة شارطوا إماما لمسجدهم جاء من بلد آخر في السهل فكانوا يطعمونه ما تعودوه من أطعمة الذرة: حريرة في الصباح وكسكسون ذرة في الغذاء، يسمى بادّاز، وعصيدة ذرة في طعام العشاء، فملّ الطالب الإمام ذلك ، فلما حدثهم من كتاب موعظة يوما قال إنه وجد عند أهل الدين أن طعام بادّاز حرام، فصعق أهل القرية لما سمعوا لأنهم كأسلافهم لم يعرفوا من الطعام إلا بادّاز. فخاصموه إلى القاضي يوم السوق، فسأله القاضي: في أي كتاب وجدت أن هذا الطعام حرام! فقال: أليس بادّاز على بادّاز (يعني كل يوم) حراما؟ فالتفت القاضي إلى المخاصمين وقال: اعتنوا بطعام الإمام بتنويعه ولا يهمه أتدخلون الجنة أم تدخلون النار!

وتفصل الجبال القرية أيضا من جهة الجنوب عن وادي ويركَان

= سمي بذلك لأن الراعي يعيش فيه حالة العزوبة وأهله في القرية، ولما صارت العزبان محل أطيان محروثة، ظلت تسمى كذلك ولكن حقيقتها اختلفت لأنها مقر دائم لرعاة هم في نفس الوقت مزارعون.

الذي هو امتداد لوادي أزادن في مجراه الأسفل، قبل أن يصب رافدا في وادي نفيس. وتحدها من جهة الغرب عن هضبة كيك، سالفة الذكر، وتفصلها من جهة الشمال عن وادي غيغاية الذي يتسع عند أسني. تكسو هذه الجبال غابات شجر بلوط وعرعر فوّاح، وتحتها نباتات عطرية صيدلية أهمها السعتر والسقمر ونبات لا أجد له اسما بالعربية يسمى إيركَل، وأعشاب كثيرة أخرى لا يتعرف عليها ولا يعرف خصائصها ومنافعها في الغالب إلا النساء في هذه البيئة.

لم تقم قرية إِمَرِغْنْ التي ولد فيها أحمد في هامش المنخفض، على هذا السفح المنحدر المشرف، إلا في القرون المتأخرة، عندما تفككت قرى المجموعة القبلية المصمودية، وصار من المحتمل أن تتعرض القرى الواقعة في بسائط أطرافها لغارات من قبل مجموعات أخرى، ولاسيما المجموعة العربية القبلية المطاعية[1] المستولية على السهل المجاور، على يسار وادي نفيس بعد خروجه من الجبل إلى السهل.

أما القرية التاريخية القديمة المندثرة في هذا المنخفض، فكانت قائمة في وسطه، حيث بساتين الزيتون المعَمِّرة أشجاره قرونا إلى اليوم، على خط غير منحرف يتبعه الطريق القديم بين مراكش والجنوب. كانت هذه القرية التاريخية الأولى تسمى تاكَموت. وما تزال ساقية الماء التي تروي بساتين إِمَرِغْنْ، وهي المشتقة من وادي أزَّاذن، تحمل هذا الاسم : «ساقية تاكَموت»، كذلك ورد اسمها في عقود تملك مائها للجماعة على أنصبة بين العائلات. وقد كانت بعض

(1) من القبيل العربي الكبير أولاد مطاع.

بقايا القرية القديمة قائمة الأطلال إلى وقت طفولة أحمد، ومنها أطلال المسجد الجامع، وبقايا أُسُس حصن شيخ القرية التاريخية، كان يوجد بالحقول المعروفة الآن بـ «دار أوكَادير» أي موقع الحصن.

من الأماكن المذكورة في كتب التاريخ، قريبا من هذا المكان، جبل أسدرم، ومعناه ثنية الجبل، وهو الجبل بين المنخفض الذي فيه إِمَرِغْنْ وبين هضبة هي هضبة عالية، وجاء ذكره في كتاب «أخبار المهدي» الذي ألفه الكاتب المعروف بالبيدق، حين تحدث عن حوادث تمخضت عن قيام دعوة الموحدين ومحاولاتهم الخروج من الجبل، بدعم قبائل مصمودة، وهي الحوادث التي انتهت بفتح الموحدين مدينة مراكش على ملوكها المرابطين. فقد ذكر البيدق المذكور أن معركة حاسمة وقعت بحضور «الإمام المهدي»، وهو لقب ابن تومرت، في هذا المكان المسمى أسدرم ن تاجموت، أي ثنية قرية تاكَموت، وقد ذكر نفس المصدر أن المهدي الموحدي قد تنبأ بانتصار عصبته على أهل هضبة كيك الموالين للمرابطين في يوم خميس، فتحققت نبوءته بالرغم من شدة المقاومة التي أبداها أهل كيك، وأن هذا النصر الذي سبقته نبوءة زعيمهم المهدي، زاد من اعتقاد عصبة التوحيد في كرامات زعيمهم الذي كانوا ينسبون إليه العصمة.

من الأخبار التاريخية التي ورد ذكر تاكَموت في معرضها، ما كان من إنفاذ حكم الإعدام بهذا الموضع في الكاتب الوزير أبي جعفر بن عطية، وكان هذا الكاتب ، بعد نكبته، قد حُمل مقيدا في ركب الخليفة عبد المومن الموحدي، عند قفوله عام 553 عائدا إلى مراكش من الحج السِنِوي لمقام الإمام ومدفنه بتينمل.

يرجح أن انقراض تاكَموت كان في العهد الوطاسي، وبانقراضها بدأ تاريخ إِمَرِغْنْ التي استمدت اسمها من الملح المستغل في أطرافها، وقد ورد ذكر ملاحات هذه الجهة في كتاب «المسالك والممالك» لأبي عبيد البكري في منتصف القرن الخامس الهجري.

منذ بداية إمرغن اختلفت اسما وموقعا عن تاكَموت بكونها مبنية على السفح لأسباب اتقاء الغارات على الأرجح، وكان بها بدورها حصن لحامية الدولة مهمته مراقبة جزء من الجبل. والحصن التاريخي كان بكامل هيئته في أيام طفولة أحمد، وهو بناء ضخم يشرف على القريتين من الطرف الأعلى الذي إلى جهة قرية تنزرت، وهو غريب في ضخامته ومنظره. وكان في لحام ألواح الطابية التي قامت بها جدرانه العالية وأبراجه الركنية الأربعة أشرطة من الجير غير معتادة في بقية الدور، والناس يحسبون أن تلك اللحامات الجيرية البيضاء بين الألواح عظام بشرية، وبصدد ذلك يتصورون أمورا فظيعة منها ما يحكونه من أن مؤسسه الشيخ احماد بن علي، الملقب ببو العصافر، أي صاحب الشنبات، كان يفتحص صلابة بناء الجدران، بحيث كان في طور البناء يطلق سواقي الماء ليلا على ما تم دقه نهارا من ألواح الطابية، فما تخرب بالماء يحاسب عليه المعلم (البنَّاء) الذي أشرف عليه، فيكون عقابه بأن يُسجى جسده على لوح جديد في الجدار، ويُغمر بالطين ويدق فوقه بالمركاز. هكذا كان الناس في القرية يرون أن الذي يبدو مصفرا بين لوح ولوح هو عظام البنَّائين المقصرين في الإتقان. والذي صح أن أكَادير ن بو العصافر، كما يسمى، كان قلعة تقيم فيها حامية من العساكر الذين يفرضون سلطة الدولة تحت إمرة قواد مخزنيين (يخدمون السلطان)، كان من أشهرهم

هذا القائد الذي ينسب إليه الحصن، وهو الشيخ المسمى أحمد أُوعلى الذي عاصر أوائل دولة العلويين. يحكى عنه أنه كان من الشدة في المعاملة على النمط المعهود في كبار المعبئين والبناة، وكان له مشروع ري عظيم، إذ فكَّر في أن يجر ساقية ماء إلى إِمَرِغْنْ من وادي غيغاية، أي من الجهة المعاكسة للجهة التي تأتي منها الساقية المشتقة من وادي أزَّادن، المسماة بساقية تاكَموت. لكن الأجل وافى هذا القائد، إذ قتله، كما يحكى، برصاصة، خفير له كان يسير وراءه والشيخ على متن فرسه. وكلما حكى الناس في إِمَرِغْنْ هذه الحكاية أصروا على أن يذكروا أن الخفير القاتل كان وغدا أقرع الرأس، يرمزون بذلك إلى أن نهاية شخص متجبر قد تقع على يد حقير في المراتب.

يبدو أن الحصن تعرض لغارات للاستيلاء عليه في أوقات ضعف السلطة المخزنية وممثليها، عندما تكون الحامية غير طامعة في الإمدادات. ومن آثار هذه الغارات ثقب في باب الحصن يقال إنه بفعل رصاصة أطلقها أحد المغيرين، واسمه خَشَّان، مغيرين جاؤوا من السهل، لكن الحامية في الحصن أفلحت في ردهم على الأعقاب. وكان الناس يحفظون شعرا قيل للتعريض بهذا المغير المنهزم، منه بيت جاء فيه:

خشَّان إيويد إزكر إرا تيكنطار

أوراك إغنيض أليغ إفكا إخف إيواكال

وتعريبه :

خشَّان جاء بالحبال يريد أن يغنم بقرات جيدات

فما يئس حتى أسلم الرأس للأرض

بقدر ما خلف الحصن ذكريات ترتبط بمجد القرية وبطولات قواد الحاميات المستبدين، ترك أيضا أخبارا سيئة تتعلق بمطالب تموين المجندين، بل وتتعلق أيضا بسلوك رؤسائهم الشائن ومساومتهم على أعراض بعض أهل القرية تحت التهديد، وكذلك العساكر من الآتين من خارج القبيلة، حتى رفع الله أذاهم وشتت شملهم، كما يقول الناس، بوباء أوائل القرن التاسع عشر. ويعتقد الناس أن ذلك الفرج وقع بدعوة رجل مبجل تنسب إليه مقبرة تسمى مقبرة سيدي بوصالح في القرية السفلى. وبعد ذلك عمرت الحصن عائلة من ورثة بانيه الأول، وهم من كبار بيوتات القرية.

إن تلك البيوتات الأصلية في قرية إِمَرِغْنْ لا تتعدى في عددها ستة، تفرع من كل واحدة منها عدد من الفروع، وهي بيت أيت أوكَادير، المنحدرين من شيوخ الحصن، وبيت أيت واحمان الذين توارثوا المشيخة بعد أهل البيت الأول، وهؤلاء هم بيت الوالد والولد هنا، وبيت إد بولفافن، وينسبون إلى ألفاف، مكان جاءوا منه في قبيلة أزادن، وبيت أيت علي، وبيت أيت بلاًّ(عبد الله)، وبيت أيت بلقاس. والذي يثبت أقدمية الأسر الست هو رسم توزيع أنصبة مياه ساقية تاكَموت التي بها تروى أراضيهم. وتوجد كل هذه البيوتات بقرية إِمَرِغْنْ العليا (إِمَرِغْنْ نوفلاً)، بينما يدل عدم وجود أسماء أهل القرية السفلى بين ذوي الحقوق في ماء الساقية القديمة على أنهم إنما تناسلوا من خدام العائلات المذكورة ومن الطرّاء والمزارعين بالشراكة. ولهؤلاء مدفنهم الخاص، ولهم سند إلى بعض أضرحة وادي غيغاية، يزورونها صيفا، بينما يستند أهل القرية العليا إلى زاوية

تجانية جاء تأسيسها باتصال بعض رؤساء البيوتات بمقدمي هذه الزاوية بمراكش.

كان أهل إِمَرِغْنْ يكسبون عيشهم في أيام طفولة أحمد من ثلاثة مصادر رئيسية هي: فلاحة الأرض، بزرع الشعير، في الغالب، وزرع بعض القمح الطري. ولعل الذي كان عاملا في تغليب زراعة الشعير هو مجرد عدم التوفر على بذور القمح لغلائها النسبي. وقلما تحصل عائلة من صنفي الحبوب معا ما يكفيها لعولة عام، وعلى الفلاح أن يزيد توفير ما يبذره للمحصول الآتي من المحصول السابق. وتترك بعض الأراضي للراحة من زراعة الشعير لتزرع فيها الذرة مبكرا، بينما يزرع آخرون الذرة في أرض حصدوا منها الشعير أو القمح. يتوقف هذا الاستغلال المتكرر في السنة على توفير السماد من روث الأبقار أو روث الغنم. وأوغاد الناس، أي الأفراد من بقايا أسر كبرى مفككة، أو من طارئين على القرية، قد لا يزيد ما يملكه الواحد منهم على البقرة أو البقرتين أو بعض رؤوس الأغنام، ولا أرض له، فيبيع سماد ماشيته لمالكي الأطيان. وهؤلاء الأوغاد أو الطارئين يعملون مسخرين لذوي الأراضي أو يزارعونهم عليها في شراكات، إذ يكون لهم في الغالب أولاد يعينون في أشغال الحرث ومواش يمكن أن تتشكل منها أزواج حرث. وأزواج الحرث إما أبقار أو حمير أو بغال أو مزيج من هذه الأصناف.

في نمط العيش هذا ترعرع الولد أحمد برعاية الوالد محمد، في طبيعة سفح الظل في جبل الأطلس الكبير الغربي، في منخفض يعطي الانطباع لمن يراه أنه أفسح من كل الدنيا، لأنه أفسح بالفعل من كل الانفراجات التي تكونت في شعاب هذا الجبل أو بين أوديته.

وراء القرية، كما قلنا، ثنية عالية تطل منها الشمس من وراء الجبال في شروقها، فلا تشمل أشعتها كل بيوت القرية إلا بعد أن تصعد في السماء بقدر قامة، كما يقولون. وأمام القرية في أفقها الغربي ثنية أخرى تغيب الشمس وراءها، فكأنها في مغيبها تلج في رحم الزمان ويعتسفها الليل، ليولد من ذلك الاعتساف يوم جديد.

طبيعة سفح الظل غنية ببساتينها ومرعاها، بقدر ما يتوفر ماؤها ويقل انحدارها، فهي معطاء إذا قورنت بطبيعة سفح الشمس الأكثر تعرضا للحرارة والجفاف، فهذه أقرب بعقمها إلى طبيعة الجنوب منها إلى يسر الشمال.

يحسب أهل هذا المنخفض الذي فيه إِمَرِغْنْ أنهم يتميزون عن جيرانهم في كلا السفحين، يتميزون بقليل من الزيادة في الأطيان والأشجار والماء، ولكنهم يحسون، على الخصوص، بأنهم يتميزون بكونهم قرية الشيخ، والحصن الذي في طرف قريتهم الأعلى يذكرهم بقِدَم هذا المجد.

لكن هذا التميز الشعوري الذي لا يكرسه أي تأسيس أو اصطلاح، يظهر في سلوك تمليه تقاليد نبيلة، ويقتضي في نفس الوقت دفع ثمن فرض التميز على الغير، من ذلك أن جماعة إِمَرِغْنْ لا يجوز أن يسمع عن أحد منها أنه تشاجر مع شخص من قبيلة أخرى، في السوق مثلا، ولا يليق بأحد منهم أن يرتكب جريمة تؤدي به إلى المحاكم أو السجن، وإلا فلأي شيء يصلح الشيخ وآله، إذا لم يتدخلوا بالإصلاح في عين المكان لحماية إخوانهم من معاناة تصرف الغير، أو تسلط قائد غريم، أو حكام نصارى لا يبالون بالاعتبارات الخاصة لأشخاص في جماعتهم. فكل شخص مهما قل ماله، له

كرامة مستحقة عند من يعرفون محتده ومصيره، وهو لا يتردد عن التعبير عن حقه واستحقاقه مهما كانت المواقف، والشيخ قبل غيره هو من يعرف للناس أقدارهم. فإذا لحق الضيم أو الأذى أحدا من جماعة «إخوانه» فكأنما نزل الألم برأس ظفر بنصر يحس به الجسم كله. والجماعة تعرف مشاغبيها ومرضى نفوسها فتتحملهم على طبائعهم، ما لم يخرقوا العوائد ويلجأوا إلى الأجانب عن القبيلة.

وآل الشيخ أولى بحمل ضيم الغير وتحمل شقاوتهم، فالحكمة مرجوة فيهم ومطلوبة عندهم، وإذا كان الشيخ الحسين نايت واحمان مضرب الأمثال في الجمع بين حسن التدبير والحكمة المبنية على قضاء حوائج الناس، وإرضاء الأطراف المتنازعة، فإن المشيخة التي انتقلت، بعد وفاته، إلى أخيه الشيخ عمر، إنما انتقل منها للشيخ صفاتها من حسن التسيير على العوائد المرعية، أما جانب السعي في الإصلاح المتطلب لهيبة الحكم وحكمته في آن واحد، فقد بقي في تاوريرت، يقوم به، دون صفة اصطلاحية، السي محمد، وارث الشيخ الراحل في داره وصبره، وإن لم يرثه في مهماته.

تتم جلسات التحكيم الاختياري الذي يطلبه أهل القرية لدى السي محمد أو بورحيم في تاوريرت بباب داره قبل طلوع الشمس، أي قبل انصراف الناس لأشغالهم في الحقول والمعادن وغيرها، وكانت غير مقرونة في أذهان المتحاكمين لا برشوة ولا بهدية، لأن قرارها هو الوصول إلى حل يرضي الجميع، ولو دام التداول من أجله شهورا وسنوات. كان الولد أحمد يحضر هذه الجلسات منذ نعومة أظفاره. وكان الوالد يحرص على ذلك الحضور ما لم يصبح الولد وقد بلل ثيابه بالليل. فقد تأخرت عنده في طفولته هذه العادة

المحرجة. والأم عبوش (السيدة عائشة) تتألم لما يقع لولدها، وقد التمست له عددا من الوصفات للعلاج، منها دس مسحوق قشرة البيض في بعض طعامه. وكانت تفضي لصاحباتها والخادمات، بأن أحمد صار يبلل فراشه أكثر من ذي قبل عندما بلغ ثلاث سنوات، بعد أن وُلدت أخته زهرة من الزوجة الثانية، فاضمة، بنت الشيخ الحسين، أما بقية من في الدار من حزب اللا[1] فاضمة، فيعزون عاهة أحمد إلى إفراط أبيه في تدليله.

لم يكن الوالد يأبه لأي شيء مما يقال، بل ظل يصطحب الولد أينما ذهب محمولا على قفا الخادم أو مردوفا وراءه هو على البغلة، بل كان يصطحبه حتى في الليل إلى جلسات أقران الوالد من أبناء الأعمام، حيث يجتمعون للعشاء وللعب الشطرنج وتبادل الأخبار، ولا أحد من هؤلاء الأقران يجلس معه ولده، ولكنهم لا يجرؤون على انتقاد هذا الوالد المتفوق في أكثر من أمر، فقد أدى ثمن استقلاله باليتم والتزوج بعروس جاء بها من بعيد، واستطاع إنقاذ الموقف الذي واجهه بتزوج بنت العم بعد بلوغها، وكان طمع بعض هؤلاء الأقران في التقرب منها لتهميش محمد. أرحام مبطنة بالعدوان، ومجاملة يفرضها الوفاء للدار الكبرى والخوف من شماتة الآخر. وقد يتجاسر أحد الجالسين بالتلفظ بعبارة فحش تحمر بها وجنتا الطفل، فيرد الوالد بالاحتجاج على الشخص المتفحش، ولكن كل أنواع التحرش لم ترغم الوالد على تغيير عادته من إدامة اصطحاب الولد تحت الجناح.

(1) اللاَّ صيغة محلية في لَلاَّ التي تعني سيدتي.

يقع في بعض الأحيان أن يخرج الوالد بولده في طقس جو مطير أو بارد أو تحت الثلج المتساقط، فيمشي به أمامه وهو تحت سلهامه الشتوي الصوفي الغليظ المعروف بأخيدوس، نوع تخصص في صنعه أهل الجبل من كبار رعاة المعز بقبائل وادي نفيس الأعلى. يمشي الوالد والولد تحت المطر بلا ارتباك في الخطى، وكأن الوالد يسير بسير الولد، والولد بين الخيدوس ودفء جسم الوالد يتقدم ولا يدري إلى أين، لأن الذي في النور هو الوالد، والولد مطبق عليه في الظلام، لكنه يشعر أنه في تلك اللحظة أكثر ما يكون أمنًا وحسن مآل، وقمة سعادة الاثنين عند الوصول إلى المكان المقصود، فيفتح الوالد السلهام ويخرج الولد وكأنما كان مشاركا والده في لعبة سحرية يتسلى بها كلا اللاعبين.

أمل كل والد في هذه البيئة أن يصير ولده الذكر رجلا، والرجولة لا تقاس بالسن، وإنما تقاس بـ«الفائدة»، أي بدرجة القدرة على النفع في الخدمة، وعلى السرعة فيها وعلى إتقانها، لذلك يوزن كل ولد بهذا المعيار منذ طفولته، فترى أهله يعيرون بأي نقص في هذه الخدمة التي هي مال الأهل، وترى الغير من الأهل يمدحون الولد لأهله من هذا المنظور. وبراهين هذه الفائدة تبدأ من الطفولة الأولى، بمجرد أن يقدر الولد على حمل شيء ولو خفيف يقدمه لأمه، ثم تأتي الخدمتان الخارجيتان المعروفتان للأولاد ذكورا وإناثا، وهما جلب الحطب من الغابة ورعي البقر أو الغنم، ويختص البنات بجلب الحشيش، أي الكلأ الأخضر بعد الرعي، وباستقاء الماء، إضافة إلى أشغال المنزل التي تبدأ الفتيات تعلمها منذ نعومة أظفارهن. والواقع أن هذه العبارة العربية «نعومة الأظفار» لا محل لها بالنسبة للأولاد في هذه البيئة، من الذكور والإناث على السواء، لأن

الأشغال اليدوية طيلة اليوم، ومنذ أعوام الحياة الأولى، لا تترك لأظفار.أي كان نعومة ولا بروزا.

يظهر من لواحق الأحداث أن الوالد الذي كان يوجد في داره أكثر من خادمة وخادم، في نظام ورثه عن عمه الكفيل، ليس ممن ينتظر من ولده فائدة (نفعا)عادية من قبيل ما وقعت الإشارة إليه، لأن حاجات الدار من كل شيء لا يؤديها ولد ناعم كولده، و إلا فهناك طريق آخر غير عادي للفائدة، مع الحفاظ على رطوبة اليدين ونعومة الأظفار، ألا وهو طريق دخول الكتَّاب وحفظ القرآن. فالطلبة، وهو الاسم الذي يُنعَت به أئمة المساجد القائمون على وظيفة الإمامة وتحفيظ القرآن للأولاد، هم الكائنات الوحيدة التي تنمو في الظل بهذه البيئة وتعيش فيه، وهي بالتالي محررة من كل التكاليف العائلية والجماعية، والمؤمل منها أن تتشفع في العامة ممن تلوِّح وجوههم حرارة الشمس ويسِّود بشرتهم الشقاء في الدنيا، عسى بتلك الشفاعة أن يجدوا بعد الموت في الآخرة مكانا تحت ظلال أشجار الجنان.

لعل الوالد أراد أن ينتقم من شقاوته هو، عندما كان يفر من الكُتَّاب القرآني وهو صغير، فهو في صغره ذاك اطمأن إلى أن مجرد نسب في عائلة الشيخ سيجعله مستحقا لقب السيد (السي). وأما الآن فهو يدرك كم سيكون شاقا عليه أن يدخل ولده الكتَّاب، إذ سيفارقه طيلة اليوم، كما أدرك أن حمل الولد على ذلك الفراق سيكون بالنسبة إليه بمثابة فطام ثان، لعله أعسر من الفطام الأول عن ثدي أمه. كان يوما مشهودا ذلك الذي حمل فيه محمد ولده إلى الكتاب، في القرية العليا حيث المسجد الجامع، فقد اشترى رطلين من الحلوى (الفانيد) وأعطى الولد شيئا منها، ثم أعطى لكل من في الكتَّاب من الأطفال.

بعد ذلك بأيام أقام الوالد وليمة في داره للطالب (إمام المسجد، ومعلم الصبيان) وطلبته من الصغار والكبار. والغاية من دعوتهم إلى الدار أن يُخرِّجوا (يرتلوا بقراءة عادية) سلكة (المجموعة الكاملة) من أحزاب القرآن. وبعد قراءة السلكة، أنشدوا، بلحنهم الجبلي، قصيدتي البردة والهمزية، بنغمة فيها حنين، تُبكي كثيرين ممن يسمعون. وبعد قراءة السلكة وإنشاد القصيدتين رفع كبار الطلبة الآتين من الآفاق، المجودين للقراءات القرآنية بصيغتهم المحلية، رفعوا عقيرتهم بأنظام يسمونها الأنصاص، وتتضمن قواعد تهم إتقان الترتيل والرسم، قواعد تقنية لكنها في أسماع هؤلاء القوم من أعز ما يُطرِب. كل ذلك تحت إشراف أستاذهم الذي تكفل في الأخير بأن يدعو دعاء الختام طالبا من الله أن يبارك في أرزاق الوالد، ويصلح الولد، ويجعله طالبا يحفظ كتاب الله، ويتشفع لله في أهله يوم القيامة. كانت زردة (وليمة) أكل فيها الحاضرون من الأطعمة ما لا يجدونه في حياتهم إلا نادرا، كما خرجوا بفتوح، أي بهدية من المال، منها قسط للمعلم وقسط للطلبة، وبقالب سكر وقدر من الشاي يجتمعون عليه يوما آخر في المسجد لدعاء آخر للواهب ولولده. وقد تحقق من في هذا المسجد، منذ تلك الليلة، أن لهم منذئذ قدما في هذه الدار وعند صاحبها، لأن ولده الحبيب إليه صار من زمرتهم.

واظب الولد على التردد على الكتَّاب، فكان، نظرا لبعد داره، يحضر متأخرا، ولكنه مع ذلك كان يحضر قبل طلوع الشمس، وذلك من خصوصياته، لأنه يقطع المسافة التي بين طرفي القرية، وهي ليست بالهينة على طفل في سنه. أما غيره من الأولاد فيحضرون

بمجرد انسحاب ظلام الليل وبروز ضوء النهار، ويعود الولد إلى داره للفطور، ثم يعود إلى الكتَّاب لفترة الضحى، ثم يعود إلى داره للغذاء، ثم يعود للقراءة لفترة ما بين الظهر والعصر.

من خصوصياته أيضا أنه ليس من الأولاد الذين هم مطالبون بجلب الحطب من الغاب لموقد المسجد، وهي وظيفة يومية يسرّح لها بقية الأولاد بعد الاستظهار الذي يتلو عودة المعلم من إمامة صلاة العصر، وإنما يبقى الولد وبعض المحظوظين من التلاميذ يحفظون الألواح إلى قرابة مغرب الشمس، فيسرَّح لداره مراعاة لبعدها، فلا يطالب بحضور حصة ما بين المغرب والعشاء. فهو منذ البداية كان بمثابة ضيف شرف في هذه المؤسسة.

سُرَّ الوالد سرورا عظيما باجتهاد ولده. وبعد شهور قليلة أعلمه الطالب المعلم عند الخروج من صلاة الجمعة أن أحمد قد تجاوز في أقل من المدة المعتادة تعلم حروف الهجاء، وأن الطالب (كرَّج له) أي رسم له على الصلصال في اللوح الكلمات الأربع الأولى، وأن الولد خططها بالصمغ، وهي الكلمات الأربع التي في بداية سورة الفاتحة، على ترتيب التعليم: «الحمد لله رب العالمين».

ابتهج الوالد، وأعطى بالمناسبة هدية للمعلم، فقام هذا الأخير تبعا لها «بتحرير» الأولاد، أي تسريحهم قبل الوقت المعتاد في آخر النهار. أخذ الوالد ولده من يده، ورجع به إلى الدار، ولم يتمالك أن أعلن لكل من في الدار أن السي أحمد سيصير لا محالة طالبا، أي حافظا للقرآن، بل لم يتردد في اقتراح هدية على الولد وإن لم يطالب بها، فقام إلى صندوق في حجرة أمه عبوش فأخرج شيئا وضعه أمام الولد وهو يلمع تحت ضوء شمعة متمايل، فإذا هي ساعة سويسرية

من النوع الذي يسمى بساعة الطوق، كانت داخل حُق من الفضة، لها سلسلة رقيقة الصنع. ساعة خبأها الوالد من يوم اشتراها من نصراني يدعى «سييرا»، كان يعمل حارسا للغابة في جهة القرية والأودية المجاورة.

كان أحمد يعرف ذلك النصراني الحارس كما يعرفه كل أهل القرية، لأنه لا يمر أسبوع إلا والناس يرونه يخترق وسط القرية على متن فرسه، متبوعا بمساعده المخزني، على بغلة فارهة، وهما ذاهبان إلى الغابات المجاورة للتفقد، أو راجعان منها قبل مغرب الشمس، علهما يفاجِئان بعض المخالفين للقانون في قطع شجر الغابة الأخضر أو بالصيد بغير رخصته. كان سييرا هذا كغيره من حراس الغابة في محل عدو لكل أهل القبيلة، لأن الجميع كانوا بحاجة إلى الحطب، واليابس المتساقط منه، مما هو مسموح بالتقاطه، لا يوجد إلا في أعلى الجبال بعيدا عن الحواشي القريبة من القرية. لكن سييرا اشتهر عند الناس دون غيره من الحراس بشيئين، ضخامة بطنه، وغض طرفه عن المخالفات الصغيرة، لاسيما بالنسبة لسكان إِمَرِغْنْ، فإذا مر عند الظهر بالقرية لا يفوته أن يسلم على السي محمد ويعده بأن ينزل عنده وقت قفوله من جولة الحراسة ليتناول في داره عشويا يكون عبارة عن رغيف بالسمن وكؤوس «مشحرة» من الشاي بالنعناع، أو ليأكل عنده أكلة يحبها سييرا وهي الكسكس باللبن.وكلما نزل في دار السي محمد يسلمه آلات صادرها ممن وجدهم من أهل القرية أو القرى المجاورة يخالفون القانون بقطع الأخضر من الشجر، وهذه الآلات هي شفراتهم وشواقيرهم، وهي البينات التي يحتجزها حتى تقدم إلى المحكمة ويؤدي أصحابها الغرامة. ولذلك، فكلما علم أهل القرية أن

سييرا أكل عند السي محمد، تيقنوا أنه تشفع لهم، فيذهبون إليه بعد المغرب لاسترداد آلاتهم.

يستغرب المرء إذا عرف أن السي محمد دفع لسييرا إحدى عشرة مائة ريال ثمنا لساعة الجيب الفضية المذكورة، فهذا الثمن يعادل في ذلك الوقت ما يمكن أن يحصله المشتري من بيع أكثر من ألف عبرة من الملح للرفاق العرب الذين يأتون لشراء هذه البضاعة قصد تصريفها في أسواق قبائل السهل، كما قد يعادل خُمس ما تباع به الغلة السنوية لزيتون مجموع عائلة أيت واحمان. فأي امتياز يتحصل من التفرد بامتلاك تلك الآلة التي تجمع بين نفاسة المظهر ونبل الغاية، وهي أن تُعرف بها أوقات الصلاة، والعادة أن هذه الأوقات تعرف كما هو معتمد عند الناس، ولا سيما أئمة المساجد، بحساب ظل قامة الشخص بالأقدام. إن نفاسة هذه الآلة هي التي جعلت صاحبها يعد بها الولد لمكانته منه وإيثاره، وحرصه على ألا يدّخر شيئا يبرهن به لنفسه عن ذلك التعلق وذلك الحنو الكاسح لأوصاله، وقد ظل الولد مشدوها أمام الآلة، فمكنه الوالد من لمسها بيده وفتح حُقها أمامه، فرأى ميناءها الأبيض والعلامات السوداء التي أخذ الوالد يقرؤها أمامه، وهي أرقام الساعات من واحد إلى اثني عشر. رأى الولد على وجه الساعة ثلاث خشيبات سوداء تتفاوت في الرقة والطول. وأدنى الوالد الآلة العجيبة من أذن أحمد فسمع دقاتها وتعجب مما سمع : تيك تيك تيك.

كانت اللا فاضمة الزوجة الثانية للوالد حاضرة فقالت:

- لا أظنك ستعطي هذه المجانة للولد الصغير، فسيفسدها!

فما كان من الوالد إلا أن قال:

- ستكون له عندما يكبر، ولكنه يستطيع أن يحملها يوم عيد الأضحى المقبل إذا هو أتم حفظ حزب «سبح»، في الأشهر الثلاثة الباقية.

نزل هذا الجواب مثل كومة الثلج على قلب الولد الذي انصدم، إذ كان يظن أنه سيأخذ الآلة حينا، وقدَّر أن تدخُّل المرأة، زوجة أبيه، هو الذي غير رأي الوالد، فانتفض وخرج يبكي والتحق بأمه.

علم الله كم من مرة في الشهر، على امتداد تلك السنين، كان فيها هذا الولد موضوع توتر في الدار، بين الوالدة وضرتها، بغير حضور الوالد، أو خفية بين الوالد وزوجته غير الأم. وكم كانت الأم تود لو أن الوالد ينقص من تدليله وانتباهه للولد حتى تقل مع ضرتها أسباب الشحناء التي تختفي وراء هذا التوتر.

لا يعقل أن تكون الأم قد بلغ بها الضيق إلى حد أن تتمنى لو أنها لم تكن ولدت هذا الولد الذكر. والحق أن الولد لم يكن مسعفا لها على السكينة التي يقتضيها المقام، بل صارت هي نفسها تخاف على الولد من دعواتها عليه كلما أغضب الآخرين وأغضبها بغضبهم، لأنه كان مستفزا بفضوله وشغبه، فقد كان يقترب من السيدة زهرة، أرملة الشيخ الحسين، أم ضرة أمه، وهي مقعدة فوق سريرها الحديدي الضخم المحاط بالخمائل، فيبادرها بأنواع المعاكسات، فيكون لذلك أثر على ابنتها ضرة أم أحمد. وكان يقوم أيضا بمعاكسات مماثلة لصويحبات زوجة والده من المتملقات لها والطامعات في عطائها، فيعيرهن تارة بشيخوختهن وتارة بأثدائهن المتدلية أو بغير ذلك، فتثار زوبعة في الدار، فإذا حضر الوالد في

المساء وجد آثار العواصف التي مرت من هناك، ونُشرت عليه الأخبار، سيما إذا لم تضرب الأم الولد بما يشفي غليل الضرة، وإذا ضربته فإن الولد هو الذي يشكو ويتهدد وتصير المحاسبة على ذلك بين الوالدة والوالد.

أما الوالد فلم يسبق له أن مد يده لضرب أحمد إلا مرتين، وفي كلتيهما كان ذلك بوشاية من أخته الصغيرة زهرة. في المرة الأولى، شكت البنت أخاها إلى الوالد لأنه أكل من تراب الجدار. وقد فعل ذلك كما يفعله، على العادة، كل الأولاد والبنات ممن يستلذون تلك المادة من الطين الأحمر المحجر الموجود في جدران الدار وما يشابهها، والأولاد في الحقيقة إنما كانوا يقلدون النساء في أكل الطين، ولاسيما النساء الحوامل. والاعتقاد شائع أن الذين يأكلون تراب الجدران من الأولاد يعلو بشرتهم الاصفرار. والوالد لا يريد أن تزداد صفرة الولد أحمد عما هي عليه، فحذره كثيرا وحذرته الأم وشرحت له أن التراب تُخلق منه الحنوش التي تسكن مصارين الأولاد وتشاركهم في أكلهم وتسبب لهم أكلة في مخارجهم. لكن أحمد قلما يصبر على شيء يريده، سيما إذا تذوقه، وذات يوم فاجأه الوالد في فعلته فوق سطح الدار بوشاية البنت، فشتمه وصفعه، وشعر الولد وكأن السماء قد انقضت على رأسه بتلك الصفعة وغرق في العويل والبكاء، واستبعد أن تعود الأمور بينه وبين الوالد إلى ما كانت عليه، بل وأحس وكأن والده الذي عرفه قد مات.

قال من سمع بالحادث: إن الرجل قد اهتدى أخيرا إلى الصواب وبدأ في تربية ولده، وقال آخرون: لا فائدة في ذلك بعد أن فات الأوان.

كان الغد يوم جمعة، وصباحه امتداد عطلة يوم الخميس، وبعد صلاة زواله يبدأ أسبوع القراءة في الكتَّاب. تخلف أحمد عن الذهاب إلى الكتَّاب بعد ظهر ذلك اليوم، وكأنما أراد أن يمضي في التصعيد مع الأب بعد حادث صفعة اليوم السابق، إذ تخبأ في جانب من الإصطبل حتى خرج والده إلى الصلاة، وهو يعرف تحقيقا أن الوالد سيكتشف غيابه، ولكنه دخل في تحد غير محسوب العواقب، وكأنه أراد أن يعرف ماذا سيقع وإلى أي حد ستبلغ الأزمة بينه وبين أبيه. كان يعلم أن كل حرص أبيه منصب على أمر بذاته، وهو أن يداوم على الذهاب إلى الكتَّاب حتى يحفظ القرآن ويصير طالبا أو أكبر من ذلك.

لم تعلم الأم أن الولد قد تخلف في تلك الظهيرة عن الكتَّاب، وقد قضى ما بين الظهر والعصر بين أجنحة مظلمة في الدار وبين ظلال بعض أشجار التين في أقرب بستان، ثم دخل بعد العصر وكأنه قضى واجبه المعتاد، وبعد تناول ما وجد من طعام العصر خرج إلى فضاء يحاذي الدار من جهة الجبل، ولكنه عال في مستوى سطحها، به صخور نابتة في الأرض، ناتئة محددة الجوانب، فيها مزيج من الأبيض الفسيفسائي والأسود المبين عن بريق في جوفه المتكسر، وكأنما نثرت عليه حبات لامعة. وجد أحمد أحد خدام والده جالسا هناك، وهو شاب قوي اسمه «بوخا»، اسم ليس له سمي في القرية، أمه تسمى بيرا (ترخيم كبيرة)، هي زوجة باحسين أحد الخماسين المزارعين للسي محمد. كان بوخا يسكن مع أمه وزوجها في أهرية خلفية مستقلة المدخل تحت الدار من خلفها.

كان بوخا خارجا من الدار كعادته يقصد الغابة المجاورة

للاحتطاب، وكأنه ينتظر أن يخف وهج الشمس الموالية لوقت العصر. جلس إلى جانبه أحمد، وكان ماسكا بالمقبض الخشبي لشفرة هلالية الشكل حادة، بها يقطع الأشجار. وكان يلعب بظهرها بإيقاع ضربات خفيفة على حجرة من تلك الحجرات المذنبة، فعنَّ لأحمد أن يتدخل ليلاعبه، ذاك بشفرته، وهذا بأصابع يده، بأن يمد أحمد أصابعه على الحجرة ويسحبها بسرعة قبل أن ينزل بوخا عليها بشفرته، ونجح الولد في ذلك التناوب مرات عديدة، إلا أن غريزة إصابة الهدف عند ولد مثل بوخا أنسته طبيعة الموقف فسرَّع الإيقاع، فأصاب أصابع من اليد اليمنى للطفل وهي على الجانب الحاد من الحجر، فبعج رأس سبابته وأسال الدم من باطن الأصابع الثلاثة الأخرى بين الرأس المشروخة وراحة اليد.

صرخ الطفل وانتفض يبكي، وذعر بوخا وأقبل على الولد يتوسل إليه في السكوت والصفح، بل وأخذ يسعفه بما هو مألوف في مثل تلك الحال، وذلك بأن كشف عما بين ساقيه وبال على موضع الجرح من أصابع الولد، بولا حارا زاد من ألم الطفل، ولكنه في نظر بوخا هو البلسم السريع المتعين. وبينما دخل أحمد يجري إلى أمه في الدار، والدم يسيل من أصابع يده، جرى بوخا بدوره من الجهة الأخرى فأعلم أمه بما وقع. وبينما كانت أم أحمد تعمر فراغ الجرح بقطع صغيرة من الصلصال وتعصر عليه ورقة من ورق شجر الجوز، وتعصبه بخرقة لتوقيف النزيف، إذا بأم بوخا تدخل عليها تبكي متضرعة وهي حاملة ما تستطيع حمله اليدان من الدجاج المربوط. كانت بيرا تتصور أن ما تسبب فيه ابنها من جرح الولد المدلل يمكن أن يؤدي بالسي محمد إلى طردها وزوجها وربيبه ولدها من السكنى والعمل معا.

طلب أحمد من أمه أن ينام لأنه أراد ألا يرى مشهد والده إذا رجع وعلم بالذي حدث، وهو ولا شك سيعود حانقا عليه لأنه تخلف عن الكتَّاب.

أرسلت عبوش دون علم زوجها رسولا إلى سوق غيغاية ليلقى أخاها ويطلب منه أن يأتي لزيارتها. وبعد يومين حضر الأخ، واسمه مبارك، وأقام عندها يوما، ولما أراد الانصراف طلبت عبوش من زوجها أن يسمح بذهاب أحمد بمعية خاله ليقضي أياما عند أهلها بقرية أماس ن كيك، فعمره الآن خمس سنين، ولم يسبق له أن عرف جده وجدته من أمه، لأنهما في سن لم تسمح لهما حتى يوم العرس بمصاحبة ابنتهما، وقالت الأم إن الولد يستطيع أثناء إقامته بكيك أن يدخل الكتَّاب عند طالب حاذق معروف هناك.

وافق محمد على طلب عبوش، لكنه بدل أن يرسل الولد مردوفا على حمار خاله، قرر أن يرسله، بعد أسبوع، مع أحد معاونيه راكبا بغلته الخاصة، حاملا ما يليق من الهدايا إلى أصهاره.

انغمس الولد عند الأخوال في جذور أمه واستحلى الجوار والعناية والإعجاب يحفانه من كل جانب، وتواردت على دار السي حدوش، والد عبوش، وكان على قدر من المعرفة بالقرآن والدين، تواردت عليه نساء القرية ورجالها لرؤية ابن عبوش من السي محمد أو بورحيم نايت واحمان، هذا الرجل الذي لم يعد منذ مصاهرته يضع قدمه عندهم لتصفية محاصيل الحرث، كما كان يفعل من قبل، منذ أن تزوج زواجه الأول، أي منذ ما يقرب من عشر سنوات.

اكتشف أحمد هذا العالم الآخر، دارا غير رياض أبيه في تاوريرت، وفراشا غالبه الحصير وبعض السلائخ والملاءات، أكلا

خاليا من الخضر والبهارات، يغلب عليه الخبز المرغف والسمن، مواقد بجذور شجر الحلفاء، فضاء مفتوحا لزراعة الحبوب، لا شجر فيه سوى واحة صغيرة حول عين ماء تنبع على السطح، هضبة معلقة عالية خصبة قريبة المنابع، يتسبب ماؤها في اصفرار أسنان جميع سكانها، كثرة الأبقار والغنم والخيل التي تملأ الأفق. إنه عالم مختلف في ملامح معيشته عن بيئته إِمَرِغْنْ الرافلة في سفح ظل الأطلس. والناس بدورهم في كيك، بخلاف أهل إِمَرِغْنْ، لا يتكلمون إلا في النادر عن أمور الشيوخ والقواد، بل يتناقشون وكأنهم سواسية في الآراء، وكأنهم مقتسمون للحقيقة، كل ما يفعلون عندما يتحدثون أن يتبادلوا الأخبار، وكلهم في تلك الأيام يتحدث عن الولد الزائر على أنه جوهرة بنتهم التي استحقت أن تلج آفاقا لم يتصور أحوالها إلا قليل منهم، من خلال ما يصل عن إِمَرِغْنْ وآيت واحمان من الروايات العجيبة.

كان الجد السي حدوش والجدة أللاَّمنَّة شبه مقعدين في ذلك الوقت. كان الجد يخاطب ولد بنته ب «إكرونو» (يا حملي الصغير)، وكان يريه كتبه الصفراء الموضوعة في صندوق، ويحدثه بما قرأ في بعضها من وصفات نافعة للصحة على الخصوص. وكان الجد مهتما لضعف بنية جسد حفيده، وبشرته البيضاء التي تقارب الاصفرار، وكان منشغلا على الخصوص بقلة شهيته. ومن الغريب أن السي حدوش كان متتبعا لصحة الولد قبل أن يراه، فعندما وصفوه له على ما هو عليه، أمر ولده امبارك، خال أحمد، أن يغتنم فرصة زيارته الأخيرة ويأتي إليه من جانب تاوريرت بحجارة تسمى «تينيكا»، وهي أحجار من بقايا أفران حدادين أحرقوا معدن الحديد لإزالة شوائبه،

فتخلف عن ذلك الإحراق هذا النوع من الحجارة. يأمر بها فتدق دقا بالغا، ويطلب من الولد المصفر أن يتناولها عند شرب الحريرة في الصباح، آملا أن يتجدد دمه وتتحسن سحنته. وكذلك كان.

ولما وصل رسول الوالد ليعود بأحمد إلى قريته حمَّله الجد هدية فيها حمل من العدس، لأن أهل إِمَرِغْنْ لا يصلح عندهم زرع العدس، وعلى جانب ذلك الحمل شاة ومعزى ليجعلهما الولد أساس قطيع غنم خاص به ينميه، وكيس من تينيكا يسترد بها الولد شهية الأكل.

حرص الوالد على أن يعود الولد من عند أخواله قبل يوم من مراقبة هلال شهر رمضان، لأن بهجة هذا الشهر لا يجوز أن تكدرها الوحشة. فأيام رمضان أعياد للكبار والصغار، للنساء والرجال. يبدأ جوه الزكي برؤية الهلال، وفي التطلع إلى الرؤية اختبار لتجربة المسنين الذين يعرفون بما عاشوا أين يوجد موضع الأفق الذي تُتطلب فيه الرؤية بحسب فصول السنة، وفيها اختبار لحدة بصر هؤلاء الذين لم يعولوا قط على نظارات الطبيب ولا عرفوا كيف هي. والشيخوخة عندهم تبدأ من البصر، عندما يعجز الواحد عن سلك الخيط في الإبرة لرفء ثيابه. رؤية الهلال لذة لا يتخلى عنها بعض لبعض، وإنما يصعد الجميع إلى سطوح المنازل للتعاون عليها وهم ينتظرون صفاء الأفق الذي يعقب غياب الشمس إذا بلعتها سمكة الليل في بحر شفقي غائر.

تحقق الرؤية يبدأ المؤذن في تهليله الخاص برمضان. وهو الشخص المحوري الذي ينظم وقت القرية طيلة هذا الشهر المتميز، الحافظ للتهاليل، الجهوري الصوت، هو المؤذن المختص في مسجد

القرية السفلى المسمى ابن الطالب، ويظل في الحقيقة مؤذن أيت واحمان، منضافا إلى عائلتهم، فهو القيم على تحضير الشاي لضيوفهم، والمتعهد للآنية النفيسة عندهم، وهو الذي يطرد الذباب فوق رؤوس شيوخهم عند الجلوس، باستعمال الفوط أو استعمال عروش من شجر الجوز، عريضة الأوراق.

لما انتقل الشيخ الحسين إلى تاوريرت انتقل معه ابن الطالب، وصاحبه إلى أن مات، فكان هو الذي تولى غسله وتكفينه، فبقي على نفس المهمات مع الشيخ عمر، ولكنه كان يسكن القرية السفلى القريبة من تاوريرت، وهو إلى جانب ذلك كانت له بالسي محمد علاقات متينة، فهو متعهد بستانه المحوط القريب من الدار الذي به النباتات العطرة المستعملة في الشاي كالنعناع واللويزة ومرددوش، وفيه أشجار الورود ونوعيات من أشجار السفرجل والتين والإجاص والتفاح والعنب، أنواع لا توجد في غيره، يحيط به جدار من الشوك يحفظه، وله باب خشبي وقفل ومفتاح بينما بقية الحقول ليس لها مثل هذا الباب.

بالإضافة إلى هذه الخصوصية فإن ابن الطالب، واسمه حسين (بسكون الحاء وكسر السين)، زوج لكبُّور، وكبور امرأة ذات إهاب فاره، صناع في كل شيء، مزهوة بقسماتها، تشتغل عند أيت واحمان في المناسبات، ومن قربها لهم أنها هي التي حضرت مخاض عبوش عندما وضعت أحمد، فهي قابلة الأم وقاطعة صرة الولد، فهي جدته بهذا الحق، حق ظل الأهل والولد يرعونه كما هي العادة، وظلت هي تُذكِّر به وتستثمره بما يناسب رمزيته، ثم إن لابن الطالب من هذه المرأة ولدا هو الذي ذكرنا أن اسمه أحمد ن بن الطالب. وهو وسيم

فاره عارف بالعوائد، في صوته بحة وخفوت، كان ملحقا بخدمة السي محمد ومكلفا بسخراته، كان في مقتبل شبابه عند مولد أحمد، وهو الذي ذكرنا أيضا أنه كان يحمل الولد في صغره فوق كتفيه.

كان ابن الطالب، الأب، مؤذنا نبيلا في أسرة نبيلة داخل قرية نبيلة، وكان صوته الجهوري يؤهله لذلك، وكان انتماؤه للطريقة النظيفية التجانية قد زاده مسحة من الورع وزوده بعدد من شهادات التوقير عند الناس. كان ممن يحافظون على قراءة أوراد هذه الطريقة ووظيفتها، وممن يحفظون الدعاء المعروف بجوهرة الكمال، وكان حافظا لأذكار وأدعية أخرى يترنم بها ويسمعها الناس في جوف الليل على امتداد رمضان، فلا ينام إلا قليلا، يصدح بها كل يوم، ساعة قبل طلوع الفجر. فعليه المعول في إيقاظ النساء لتهييئ طعام السحور، والرجال كذلك، يأكلون إلى أن يقول لهم هذا المؤذن من أعلى سطح المسجد، إذ لم تكن للمساجد في القرى صوامع، كفى! ليتوقفوا عن الأكل، بعبارة محفوظة لدى الجميع ينطقونها هكذا: «إزاكم السحور». كان في صوته حنين يستمد قدرته على التأثير من إنشاده بعربية فصحى، لا يعرف تفاصيلها السكان الأمازيغ، ولكنهم يرتفعون بها إلى سماء العبادة وفضاء البركة. كما يستمد تأثيره من إفراغ لحن تلك الأذكار في أصوات قريبة من الريح المحلى الذي يطرب الناس.

كان إحياء رمضان بمشاعر خاصة يجعل من أيامه ولياليه زمنا استثنائيا، يتلوّن رونقه باختلاف الفصول. فإذا كان في الشتاء زينته رائحة الأرض وأكمام الورود تحمل القطر، وإذا كان في الصيف أروعت جوه نجمة الفجر بلمعانها المذهل والصائمون خروج إلى

أشغالهم. كان هذا الإحياء يحمل عبئه النساء بقيامهن، يتطلب منهن إعداد فطور وعشاء تنتشي القرية من العصر إلى وقت الغروب بروائح أفاويههما، ثم يشتغلن في إعداد السحور بعد العشاء. وعليهن الحرص على الاستيقاظ قبل الرجال لإكمال التحضير والتقديم. وطعام السحور في دار أحمد كان حريرة من بقية حريرة إفطار اليوم السابق، ورغائف مدهونة بالسمن، وكؤوس شاي، وشيئا من فاكهة الموسم. فإذا سمع الناس الإعلان عن وقت الكف عن الأكل جددوا الوضوء حتى يصلّوا الفجر ويخرج الرجال إلى الأشغال. ولا ينسى أحمد أن والده كان يحرص على إيقاظه للسحور وهو دون بلوغ، ليستمتع بمواكلته مع الضيوف أو مع المعاونين والخدم، وقد طبعت ذاكرته الرمضانية تهليلات ابن الطالب وجمال نجمة الفجر الزهرة التي تطل من فوق الجبل وتسحر ببهائها السماء والأرض، وتبقى على وفائها لسكون الليل إلى أن يكنس ضوء النهار من حولها بمكنسته جميع النجوم.

يأخذ النساء حظا من الراحة إثْرَ خروج الرجال إلى الأشغال بعد الفجر إلى وقت الضحى. والغاية أن يستبقي ذوات الأعذار منهن أكلا من السحور من جملة ما يترك للأولاد والبنات دون سن الصوم، ويحرص النساء ذوات الأعذار على الأكل بعيدا عن أنظار الأولاد لأنهم لا يفهمون، ولأنهم مجبولون على الفضول والشيطنة والمشاكسة.

بقدر ما يتقدم النهار تدب الحياة من جديد إلى الكوانين ويصعد دخانها، ويكتسي وقت ما بعد العصر نكهة تملأ الخياشيم تخديرا، وإذا أرفقت الشمس عادت بركة اليوم على الناس وقد أدوا

أشغالهم وامتلأ شعورهم بسكينة الشهر، وهم مقبلون على فرحة الإفطار فوق الرضى بفعل الواجب.

يصدح أذان ابن الطالب من على سطح مسجد القرية السفلى، ولكن إحياء صلاة التراويح بعد صلاة العشاء، وقبل صلاة الصبح، يكون في مسجد القرية العليا، وكان السي محمد، لبعد داره عن المسجد، يحييها على الغالب في داره مع جماعة الحاضرين من مختلف الأصناف. فالذين يتهاونون في صلاة الجماعة في سائر الأيام يحرصون عليها في رمضان، وهي امتحان للطلبة الأئمة في المساجد، إذ يُنتظر فيها من الإمام أن يختم القرآن بلا عثرة نسيان أو كبوة لسان. ويكون إحياء ليلة القدر إعادة كاملة لتلاوة الشهر بقراءة سلكة كاملة (ستين حزبا) بين وقت العشاء ووقت ما قبل صلاة الصبح. وكان السي محمد معجبا بأولاد من الحفاظ، يقدمهم الإمام لقراءة جزء من القرآن، واحدا بعد الآخر، برهانا على استحقاقه للتعاقد الذي أجرته معه الجماعة، والمسمى بـ«الشرط». ولما عاد السي محمد من إحياء إحدى ليالي القدر في المسجد عبر عن إعجابه أمام ولده بما رأى وسمع، وهو يتمنى أن يراه يوما فارسا مبرزا في تلك الحلبة المباركة.

ليس لعبوش من قريب دفين في المقبرة الكبرى، مقبرة سيدي بوسعايد (أبي سعيد)، غير ولدها الذي قضى صبيا، ولكن أجداد زوجها ووالديه وأجداد ضرتها ووالدها يستحقون للترحم عليهم الخروج لزيارة القبور مع النساء والأطفال من أهل الدار ومع باقي نساء القرية وأطفالها في اليوم السابع والعشرين من رمضان. وفي هذه الزيارة توزع الصدقات على الأيتام والمحتاجين.

بعد العودة من المقبرة، ويسميها أهل جبال الأطلس «المدينت» (المدينة)، يبدأ السي محمد في توزيع «الفطرات»، أي زكاة الفطر، على من يطلبونها. وقد كان يعهد لولده، وهو طفل، بأن يقف على إخراجها، حسبما سطر مقاديرها لأعوانه. فهذا من نوع الخدمات التي كان يحرص على أن يرشح لها ولده ويؤهله لها على صغره.

اجتهد أحمد في حفظ حزب «سبح» في مدة شهرين، وحل عيد الأضحى. وفي يوم عرفة عاد السي محمد أوبورحيم من مراكش ومعه ما اشتراه لأهله من ملابس العيد. هذه كانت عادته في عيدي رمضان والأضحى. ومن أجل شراء ملابس العيد يحمل الرجل إلى المدينة مالا يحصله عادة من بيع غلات بالتسبيق، إما غلة الزيتون وإما غلة الملح، وقلما يبيع في هذا الغرض حبوبا، لأن محصوله كله يكاد لا يكفي العام، وأهل إِمَرِغْنْ ليسوا من كبار الرعاة. وفي كل مرة كان السي محمد يهتم اهتماما ويعاني معاناة من البحث عن المال الكافي لمستلزمات تلك المناسبة، لأن ملابس العيد علامة العناية بالأهل، والذي يكتفي بثياب مغسولة هو الذي يعذر نفسه ويعذره أهله. وشراء الملابس للأهل له هذان الموعدان في هذين العيدين. والمشتريات في العيد الأول تكملها المشتريات في الثاني. والسفر إلى مراكش للتبضع يتطلع إليه كل من في الدار من النساء والأولاد والخدم والمعاونين، وإرضاء الجميع أمر عسير، ولا أحد كان يتخيل مدى شقاء الرجل في تدبير تلك النفقة.

إذا سافر الوالد إلى مراكش ليشتري حوائج العيد فإن الولد، وكما هي العادة، يشقى بغيابه يوما أو ثلاثة، ويستبطئ رجوعه. وفي

اليوم السابق للعيد يقضي أحمد وقتا يبدأ قبل أوان العصر في نافذة برج من أبراج الدار، ينظر إلى الطريق الآتية من مدينة مراكش في اتجاه سوس،وهي على أكثر من ميل، وهو في انتظار حافلة الركاب التي لا يُسمع هزيزها قبل أن تظهر، ثم تتقدم أمام عينيه وقد تعرف عليها، هي إحدى حافلتين تمران في اليوم لا ثالثة لهما، حافلة وقتها قبيل الشروق، وحافلة قبيل الغروب، فإذا جاوزت الحافلة دارا بجانب الطريق توقفت، إن كان فيها السي محمد أو غيره وهم قلة من أهل القرية، لأن معظم أهل القرية يشترون حاجات العيد من سوق القبيلة الأسبوعي. وإذا تيقن الولد من وقوف الحافلة البعيدة عرف أن الوالد سينزل لأنه لا يتخلف قطعا، والغد يوم عيد.

يصل السي محمد إلى الدار ومعه كيسان (خنشتان) أو أكثر، فيهما الملابس من فساتين وجلابيب وأحذية... والولد هو المحظي بالحلة الكاملة : تشامير داخلي وجلباب وحذاء وجراب (شكارة) مزوق بخيط الصابرة، ومجدول لتقلد الجراب. وقد تستغرق جلسة التوزيع من وقت المغرب إلى ما بعد العشاء. وكل من تسلم ما اشتُري له سلَّم على صاحب الدار سلاما على قدر رضاه وانصرف.

يصبح أحمد جذلان يوم العيد وهو يقلب جرابه، وقد يقلده الوالد خنجره الفضي إلى الجهة المقابلة للجراب، فلباسه أحسن اللباس، وهو في حلته القشيبة فخر أبيه عند الخروج في طريقهما إلى مصلّى العيد، طريق تغمرها مشاعر المباركة وتبادل السلام والفرحة والتراحم، وكل من يريد أن يتقرب إلى هذا الشخص المحبوب يأتيه من جانب في الالتفات إلى ولده بدعاء صالح أو تعبير عن إعجاب. والمصلى في قمة جبلية تطل على القرية من أعلى، في فضاء غابة متجرد.

في طريق الرجوع من المصلى، في يوم ذلك العيد، بدأ أحمد وهو يمشي خلف والده يتلو جزءا من حزب «سبّح»، يريد بهذه الإشارة أن يذكر الوالد بوعده المتعلق بساعة الجيب التي اشتراها من حارس الغابة سييرا. ضحك السي محمد ولم يُجب، ولكن الولد صرَّح في الطلب وألح وأخذ يبدي علامات الغضب.

أذعن الوالد كعادته. فلما رجعا إلى الدار وتم الفراغ من ذبح كبشي الأضحية، لأن من في كنفه زوجتان يذبح كبشين، أخرج الوالد الساعة العجيبة من صندوق كانت مخبأة فيه، وأعطاها للولد، بعد أن أدار سلسلتها على عنق الجراب وأدخل الساعة إلى الجيب الأمامي الصغير المسمى «بالقسم».

لم يُعر الولد كبير اهتمام لوصايا الوالد بخصوص المحافظة على الساعة التي كان عليه أن يقضي منها وطره في الافتخار على أقرانه وغيرهم من الأولاد ثم يعيدها يوم سابع العيد. فالساعة صارت شغله الذي أخذ بلبه، يخرجها ويقلبها ويحملق في تفاصيلها ويسمع دقاتها ويقوم بإسماع دقاتها لغيره من الأطفال، ويحرك عقاربها دون أن يدري ماذا يعني أن تتحرك هذه العقارب على تلك العلامات السوداء التي تمثلها في عينيه أرقام الساعة على الميناء. فقد تعلم من والده كيف يعبؤها، ولكنه كان لا يستطيع أن يعيد تسوية العقارب على الوقت، وكان الوالد نبهه ألا يتلاعب بأزرار التشغيل والتدقيق، وألا يخرب الآليات أو يؤدي إلى تضييع الضبط في الوقت، والحال أنه لا توجد في القرية ساعة يمكن أن يعاد ضبط هذه عليها، وإن وُجد ما يشبهها عند شخصين أو ثلاثة، منهم معلم المسجد، فهي من نوع «الفياق» الضخم الذي لا يجوز أن تسوى عليه تلك الساعة النفيسة.

غير أن فضول الولد هو الذي تغلب، فقد تسامع أقرانه من الأطفال بهذه الآلة اللماعة الدقاقة التي يحملها في قسم من مقدمة جرابه المطرز الجديد، فحرصوا ووافق هو على أن يشاهدوها أو يلمسوها، أما الكبار فقد تعجبوا من أن يظهر السي محمد أوبرحيم تلك التحفة، وزاد عجبهم إذ رأوا أنها من الفضة الخالصة، وسيما بعدما سمعوا أن ثمنها، مستعملة كما اشتريت من عند النصراني صاحب البطن المتدلي، سييرا، هو اثنتا عشرة مائة ريال. عدد من الريالات لا يجمعه إلا الفم إذا نطق به، حسب تعبير أهل البلد، وهو قدر ما يمكن أن يشترى به قطيعان كبيران من المعز الشائعة تربيته في هذا الجبل.

لم ينم الولد نوما هادئا في ليلة ثاني العيد، لأنه استعجل الصباح المقترن بالفرجة التي أتاحتها الساعة العجيبة. لم يكن بعض من في الدار راضين عن سلوك الوالد والولد، لأنهم توقعوا أن تتعرض الآلة الباهظة الثمن للتدمير على يد الولد المدلل. ولم يكذب الولد توقعاتهم لأن قلة صبره تضخمت إلى حد أنه حاول منذ اليوم الثاني أن يطّلع هو بنفسه على سر الساعة من الداخل، أراد أن يعرف كيف تدور العقارب، ومن أين يأتي الصوت بذلك الإيقاع الذي لم تتعود عليه الآذان. فاختلى في جانب من الدار ليس فيه غيره، وبدأ بإخراج جسم الساعة من إطارها الواقي المتكون نصفه من الزجاج ونصفه من قاعدة مقعرة كالصحن من الفضة. فأمسك بالساعة عارية وهي تملأ راحة يده ولا تكاد تفيض عنها، أخذها كما تعود أن يأخذ صغار الطير في يده، ثم فصل بينها وبين السلسلة التي تربطها إلى الجراب، وقلبها مرات ثم أدخلها في جيبه وهو يحسب أنه قادر على

إعادة كل شيء إلى أصله على ما يرام، ولم يُظهر الساعة على حالها الجديد إلا لعدد قليل من الأولاد المقربين له. وفي اليوم الثالث من أسبوع العيد وجد أحمد في نفسه دفقة جديدة من الفضول لكي يذهب بعيدا في الاستكشاف، فاستعمل مسمارا صغيرا تمكن به من إدارة الغطاء السفلي للساعة وإخراجها، فبرزت بكل أحشائها الدقيقة المتكونة من الشعيرات الدائرة الراقصة الصفراء اللامعة وفوقها ميناؤها البورصوني الناصع البياض.

صارت الآلة المكتنزة أجزاء مقطعة في يد الطفل وفي حجره ثم في جرابه، تحير وخاف وعرف أنه لا يمكن بأي حال أن يأمن عدم انبعاث مفاجئ لمن لا يجوز أن يطلع على مخبآته، وما عليه إلا أن يجمع تلك القطع ويوزعها بين مختلف جيوب لباسه وجرابه. ولكن الشخص الذي باغته قبل أن يحتاط، شخص لم يحدث صوتا ولا ضجة، لأنه يمشي على قدمين لطيفتين حافيتين، إنه أخته زهرة، مخلوقة في ثلاثة أعوام من عمرها، تدب بشعر غزير أسود فاحم يتعب رأسها، تجمع بين بياض الأم وحسن قسماتها وحدة بصر الوالد، تعيش الطفولة الأولى في طيبوبة مكابرة. ومن ضعف حزم الولد أنه ارتبك ولم يظهر له كيف يواجه الموقف إلا بإرضاء أخته بقطعة من اللعبة المفككة لعلها تتستر عليه، ولم تكن القطعة سوى أفضح ما في الساعة: مينائها الأبيض.

مرقت البنت وكأنها تحمل جمرا بين يديها، وبدافع ما تراكم في عقلها أو نفسها من المشاعر الدائرة بالأخ الولد حملت ميناء الساعة إلى أمها، وكان ما كان مما شهده الجميع وتعجبوا له، غضبُ الوالد وإقدامه على ضرب الولد، صفعتين موجعتين وسيلا من التهم

والشتائم، فعل الوالد ما فعل بمرارة لأن أحمد أبان طيلة طفولته عن قلة عنايته بالأشياء وقلة الاستماع لنصائح الأب، وها هو يعطي بفعلته تصديقا لكل الذين يعتقدون في الدار أن الولد لا يستحق التدليل المفرط الذي أحدثه الوالد وخرق به كل العوائد.

قضى الولد الأيام الثلاثة الباقية من مدة فرجة الاحتفال بالعيد وهو منزو في غرفة أمه لا يخرج منها، وكان يحس استنادا إلى غريزة تأكدت عنده في علاقته مع والده، أن في ذلك الانزواء انتقاما من الأب، لأنه بذلك يحرمه من تدليله ومداعبته والتلذذ برؤيته بجانبه، لأن اختفاء الولد من لقاءات العيد يحرج الوالد قبل كل شيء، ما دام الناس متعودين على أن يروه لا يفارقه كظله. ولو اعتذر عنه بأنه متوعك في صحته لتقاطرت على الدار أفواج من العواد، الصادقين منهم والمتملقين.

غير أن نكدا لسبب آخر نزل بالوالد وبعائلته الكبرى في أول يوم استؤنفت فيه الأشغال بعد العيد. ذلك أن بنّاءين ومعاونين أمرهم الشيخ بأشغال توسيع في إصطبله، وبينما كانوا يهدمون جدارا يفصل بين ساحتين، إذ ظهر في وسطه عدد من البنادق بني عليها ذلك الجدار لإخفائها، والبنادق من النوع القديم المسمى «بوشفر» المستعمل للبارود، ومن النوع المستعمل للرصاص المسمى ساسبو (chassepot). فوجئ العمال وأصابهم الهلع وتوقفوا، وهرع من الأعوان إلى الشيخ من يخبره. حضر الشيخ وأرسل من يعلم إخوته، واستدعى على رأسهم السي محمد أو بورحيم، لأن فكرته كثيرا ما تنفع في مثل هذه المواقف.

ظهر أن التستر على هذا الاكتشاف فيه مخاطرة كبيرة، لأن

العمال الذين وقفوا عليه كان منهم أجانب عن القرية. وقد أدرك أيت واحمان الذين هب كل كبار عائلتهم إلى مكان الفضيحة أن اكتشاف هذا السلاح سيكون مبعث محنة جديدة لهم. وعابوا على المسنين من حاشيتهم ممن حضروا البناء على السلاح منذ ما يقرب من أربعين سنة كونهم نسوا ما وقع وغفلوا عن التدخل لمنع أشغال هدم الجدار، ذلك أن بناء الجدار على هذا السلاح يعود إلى وقت دخول الفرنسيين إلى المغرب، وقيامهم بتجريد كل الناس مما كان بأيديهم من السلاح. وقد جرى ذلك التجريد في جو من العنف اعتسف فيه على الناس الحكام النصارى وأعوانهم من القواد، وكان أيت واحمان قد دفعوا عددا مما كان بأيديهم من البنادق، ولكنهم احتاطوا لأنفسهم بإخفاء عدد آخر تحسبا للعواقب، وتخوفا من أن يستغل ذلك بعض بني جلدتهم، ولاسيما من حكام القبائل المجاورة، واتقاء لعمليات النهب التي يمكن أن يتعرض لها الناس العُزَّل في ذلك الوسط قبل أن يستتب الأمن الجديد.

أرسل الشيخ رسالة إلى القائد والحاكم الفرنسي يخبرهما فيها بالذي وقع. وفي الغد الباكر تقاطر على القرية أصناف من الناس، معظمهم من النصارى، قيل إنهم من لاصورتيا (شرطة التحقيق) ومن الجندرمة، أشخاص لا عهد للناس بأمثالهم، بعضهم أفضى بهويته وبعضهم سكت عنها، بعضهم في بدلات العساكر وبعضهم في العادي من الثياب الأوربية، ووصل معهم القائد والحاكم.

بعد طعام الفطور وقفوا جميعهم على الجدار الذي بقر العمال بطنه وأسفر عن مصارين النار التي تدفقت منه، وعبر منهم من عبر عن خطورة الحال بإطلاق تصفيرات من بين شفاههم، وعبر آخرون

عن الامتعاض والتهويل بتوسيع مدارات أعينهم أو تقويس حواجبهم، وشرع منهم من شرع في فحص السلاح بعد إخراجه كله، وأخذ آخرون في تصوير تلك الأمكنة من الإصطبل، ولم يدخل تلك الأمكنة غير الحمير والبغال، وكان القائد، كما هو متوقع، أكثر القوم مبالغة في التهويل، حتى إنه أوعز بأن تحطم بقية الجدران بحثا عن سلاح آخر. ولو اتبعه الحكام النصارى في فكرته للزم تقويض دار الشيخ التي يستقبل فيها ضيوفه، لأن أروية البهائم واقعة تحتها. وقبل الغذاء وبعده، إلى وقت اصفرار الشمس، تكرس مختصون من ذوي الشنابات والنظرات الشزرة باستجواب الشيخ وأهله من الرجال عن تلك الأسلحة، كيف ظهرت وإلى أي عهد يرجع إخفاؤها، وهل النية في ذلك القيام ضد الحكومة، ولماذا لم تسلمها العائلة عند التجريد من السلاح، وهل يوجد ما يشبهها في مكان معلوم من الدار. وطاف بعضهم بأركان الدار وزوايا غرفها كلها بعد ترحيل النساء إلى دور عائلات أخرى، وفتحوا كل الصناديق التي فيها مختلف الحاجات بما فيها ثياب النساء وحليهن.

كان يوم عذاب بالنسبة لعائلة الشيخ ولأهل قبيلته، فقد خاف الجميع أن تكون في ما جرى نهاية تلك المشيخة استجابة لمطامع حسادها الكثر، وكانت حركات القائد وتلفظاته النافثة للشماتة أشد وقعا على قلوبهم. ولما انصرف ذلك الرهط، قبيل غروب الشمس، تركوا للشيخ استدعاء للحضور في صبيحة غده إلى الكوميسارية (مركز الشرطة) الرئيسية في مدينة مراكش. كان على الشيخ في بضع سويعات من الليل أن يقوم بإعداد الهدايا والصلات الضرورية لعدد من المتدخلين المحتملين، وكان بعض أذناب القائد قد هيأوا لذلك

في هامش وقائع اليوم بأن أوعزوا بأن الذي يرضي القائد كبداية لاستئناف الحديث هو ثلاثة من أجود ما عند الشيخ من الخيل، وبعض البقرات الحلوب، وقدر من المال. وكان الجميع من أعيان الأسرة يعلمون أن هذا الابتزاز لن يزيد ولن ينقص في ما يمكن أن يصدر من حكم النصارى في هذه النازلة.

وفي مراكش تجند معارف الشيخ في وقت قصير لمساعدة صديقهم واتخذوا محاميا من النصارى، وكان في اتخاذ هذا المحامي فرج رباني لم يدر بخلد الشيخ، فقد عرف الذين لجأوا إلى اختيار هذا المحامي أنه صديق حميم للنصراني حاكم مراكش وناحيتها. وكما كان متوقعا فإن المحامي ذهب بالاستدعاء الموجه إلى الشيخ وعاد بقرار تبرئته والاكتفاء بمطالبته بتسليم عدد من البنادق في ظرف شهر.

بعد هذا الفرج المشروط اجتهد أصدقاء الشيخ، ومنهم المنتمون إلى الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها بمراكش، فوجدوا وسيلة للاتصال بشخص مسؤول عن مخزن فيه ما جمع قديما من الأسلحة القديمة من القبائل، حتى حصلوا منه على المطلوب مقابل هدية، فأمكن لأيت واحمان أن يسلموا ما طلب منهم، ولعل ذلك كان بتدبير مع بعض جهات الحكومة، لأنهم متيقنون أن الشيخ ليس في داره سلاح آخر يمكن أن يخرجه للطالبين.

كلفت الواقعة بكل تداعياتها أموالا رهنت فيها العائلة أملاكا وباعت بالتسبيق غللا وأظهر فيها المقرضون من أصدقاء الشيخ من اليهود على الخصوص أريحية لا مزيد عليها. ولم يبق للشيخ بعد عودته إلا استقبال أفواج المهنئين على الخروج بسلام من تلك المحنة. جاؤوا من القبائل ومن المدينة على مدى بضعة شهور.

تضامنت العائلة لمواجهة محنتها الكبرى، ومن جملة ما قام به السي محمد أوبورحيم أنه قرر بيع كل مخزونه الاحتياطي الخاص به من الملح. كان يصحب معه ولده أثناء البيع إلى المعدن، في شعب تحت الجبل، بعد تناسي محنة الساعة المدمرة. والمعدن عبارة عن آبار فيها مياه ملحة، وهي آبار عميقة متفرقة مبنية جوانبها بالحجر، يرجع حفرها إلى قرون خلت، لها أسماؤها، تشترك فيها عائلات عدة بطريق الإرث، وتقاس الحصص الممكن اسخراجها بعدد الدلاء التي يغرفها من بئر الماء الملح صاحب الحق في نوبة الليل أو نوبة النهار بحسب أعراف تراعي إيقاع تجدد الماء الملح في البئر.

في مثل تلك الأحوال التي يكون فيه الوالد في شدة من شدائد الدنيا يحرص على أن يكون بجانبه الولد أينما ذهب، ولو ترتب على ذلك تغييب الولد عن الكتّاب، وقد تفطن بعض الأعوان لذلك الموقف فكانوا يسمون الولد بالحمل الصغير (إكرو مزين) كما كان يسميه جده من أمه، لأنه لا ينفك لصيقا بأمه.

كانت مخازن الملح التي وضع فيها الوالد ملحه المدّخر للزمان بيوتا في السفح يدخل إليها من يريد إخراج الملح من أبواب صغيرة، كل باب مكون من قطعة غليظة ممتدة واحدة من خشب العرعر علوها بضعة أشبار، يقتضي الدخول منها انحدار الداخل انحدارا شديدا. وسطح المخزن من جهة السفح على مستوى الأرض من الأعلى حتى يتأتى حمل الملح إليه بالدواب عند خزنه بلا سلم وإفراغه من ثقب وسط السقف.

أوصل الوالد خبر عرض الملح عبر من حضر في سوق الخميس إلى القبائل الواقعة في السهل، حيث الطلب على الملح،

ومعظم تلك القبائل من عرب أولاد مطاع، فجاء الطالبون بجمالهم، لكنهم لم يحملوا للمقايضة، كما اعتادوا، فواكه بساتينهم، ولاسيما تين الصبار المعروف ب «كرموص النصارى»، لأن الموسم ليس موسم صيف، وإنما جاؤوا بالمال، ريالان لحمل الجمل. واستغرق البيع أسبوعا كاملا أفرغ فيها البائع مخازنه، ولم يكن أحد يتصور بيع هذا الملح دفعة واحدة، وقد تطلب جمعه سنوات عديدة.

كان الولد يرى ما يجري بعيدا عن مخازن الملح، حيث يرفع أصحاب «النوبة» (الدور) الماء الملح من الآبار. يقف على جانبي البئر شخصان ليس عليهما من ثياب سوى أسمال قصيرة تستر منهما ما فوق الركبتين والصدر دون الذراعين، وباب البئر ضيقة بحيث يستطيع الرجلان المستقيان أن تلتقيا أيديهما في مستوى وسط باب البئر للأخذ بحبل معلق إلى ناعورة منصوبة فوق خشبتين في الاتجاه المعاكس للرجلين، وعلى رأسي الحبل دلوان من جلد المعز، إذا صعد أحدهما ممتلئا كان الذي في الطرف الثاني للحبل غاطسا في ماء البئر. يصب الرجلان الدلو المليء إذا طلع في طرف ساقية عند باب البئر فيصل الماء إلى صهريج أرضيته مبلطة بالحجر وعلو امتلائه قدر شبر أو أقل، لأن هذا القدر من الماء إذا تبخر ترك من الملح الذي فيه ما يكنس من الحوض الذي ينتهي إليه، فيكون المتحصل غلة تجمع على مدى أسبوع أو أسبوعين بحسب غزارة الماء وحرارة الشمس التي تضمن التبخر، ولذلك فإن نشاط الإنتاج يكاد يتوقف في فصل الشتاء إذا كان باردا ومطيرا حيث ينعدم التبخر. يسمع للناعورة الخشبية في دورانها صوت، ويقوم الرجلان بتصعيد الدلاء المرفوعة، وهكذا حتى يكونا قد أتما غرف العدد الذي من نصيبهما، وكل مالك

صاحب حق له من الأحواض ما يناسب نصيبه من المياه.

كان العاملان على رفع الدلاء إذا انتهيا من السقي يراهما الرائي وقد تبللا بالماء الملح، يتبخر فتعلق بهما حبات الملح حيث ينبت لهما شعر، فيبيض منهما ما حول العينين والذراعان والركبتان، كما يبيض بقطرات الماء الملح ما يتدلى من خيوط الأسمال التي يستران بها عورتهما.

عاد الوالد بمال وافر، وكان على العائلة أن تواجه أزمة طالت، ولكنها ما لبثت أن تغلبت عليها.

في عام ثمانية وأربعين هذا ولدت أخت شقيقة لأحمد، سموها خديجة. ولم تقم الأم بسهولة من مرض نفاسها، لأنها تعبت كثيرا في حملها بسبب وقائع العام الفائت. وجاء أخوال الولد يطلبون من الوالد الإذن لبنتهم لكي تقضي عندهم ببلد هضبة كيك فترة نقاهة واستراحة، وأذن الزوج في ذلك. وركبت الزوجة وراء أخيها بغلة الزوج الخاصة، وركب أحمد بغلة أخرى وراء عون من الأعوان.

ابتهجت عائلة أيت السي حدوش بزيارة بنتهم، ووفروا لها التدفئة التي يستعملون فيها جذور الدوم (الحلفاء) المتوفر عندهم، وهو نبات له عروق تظهر كأنها الجمر في الشكل واللون، دون أن تشتعل، يسمونها أغاز. ووفروا لها دفء الحنان والرعاية، وصنعوا لها كل الوصفات المجددة للعافية. كان والدها الطالب حدوش كما قلنا يستخرج الوصفات من كتب مخطوطة عنده. وبوصية من الوالد تم إدخال الولد كتَّاب قرية أمَّاس ن كيك حتى لا ينسى ما حفظه من القرآن. وكان المعلم هناك يعامله كأنه ضيف استثنائي يجب له اعتبار خاص. ولم تمض أسابيع معدودة حتى عاد لون الورد ليعلو وجنتي

الضيفة النفساء، ولم تكن في القرية عائلة من المالكين إلا عزمت الضيفة وأهدت إليها. وكان الولد مدار أنواع الدلال فوق المعهود.

في طريق رجوع الوالدة إلى دار الزوج بعد شهرين كاملين، مرت على قرية أكَادير ن إزناكَن (قلعة صنهاجة) لزيارة خالتها المتزوجة هناك للشيخ عمران. ودار هذا الشيخ أعرق البيوت هناك، وهو صديق قديم لأيت واحمان، ولاسيما الشيخ الحسين المتوفى. وعند الشيخ عمران كانت تقيم عبوش لما خطبها الشيخ الحسين لمكفوله محمد، كانت عند خالتها زوجة الشيخ عمران. ومنذ أن استقر المقام بالضيفة عند وصولها في ذلك الصباح، وهي محط عناية تكاد تنسيها بعض أنواع الضيم اللاحقة بامرأة تغربت بالزواج، في حين أن لها نسبا وأهلا.

أخذ الولد يعبث بكل شيء في برج خالة أمه، ولا تفيد فيه تنبيهات الأم بالغمز ولا بالقول الصريح. وكان يطلب أن يأخذ ساعة في مشكاة هناك، وهي من أنواع الساعات ذات الأجراس. فما كان من الخالة إلا أن أرغمت الضيفة على السماح للولد بفعل ما يريد. فأخذ الساعة ولها سلسلة طويلة، فخرج من البرج وذهب إلى حديقة ملاصقة للدار، وفيها نطفية مملوءة بماء المطر وسط الحصن، وهو أمر غير مألوف في إِمَرِغْنْ حيث السواقي المشتقة من الأنهار، وحيث العيون النابعة على سطح الأرض. بدأ الولد يطل على النطفية والساعة في يده، ثم بدأ يلعب حركة فيها مخاطرة، وذلك بتدلية الساعة في خزان الماء وهو قابض بسلسلتها الطويلة، ووقع له شيء مَّا انفلتت به السلسلة من يده ووقعت الساعة في الماء وغرقت.

غضبت الأم على الولد، ولكن أهل الدار حالوا بينها وبين

معاقبته، بل هو الذي عاقبها، إذ تجهم وخبأ وجهه في وسادة وأضرب عن الطعام، ولم يفد فيه شيء. كان ذلك الحادث إنذارا بالعودة إلى مرارات تعودت الأم على تشربها في كنف هذا الرجل الذي أفسد الولد وأفسد معه كل شيء.

عادت أللاعبوش وولدها ووليدتها إلى إِمَرِغَنْ. وفي الطريق أطلوا على ذلك المنخفض الكبير الذي فيه القرية من أعلى ممر أسدرم، وكان العون الذي ركب خلفه الولد على البغل الثاني يحدثه عن هذا الممر الجبلي الموحش، و كيف أنه مسكون بأرواح عدد من الموتى في الحروب التي كانت مسرحا لها عقبة أسْدْرْمْ، ومن جملة ما ذكر أن البغال والحمير وغيرها من الحيوانات ترى هذه الأرواح فتنتصب آذانها وتتوقف في بعض الأحيان، وأطال في قص حكايات زعم أنها وقعت لعابرين من هذا المكان.

حلت الأم بدار زوجها من جديد، وفي الساعة الأولى من العودة أتحفتها ضرتها بخبر ظاهره بريء وباطنه من قبل الاستفزاز، قالت لها إن بنت باشا، وهي امرأة من نساء القرية في منتصف العمر، ذهبت تحش العشب للأبقار في الحقول فأجاءها المخاض، وانتحت حتى استندت إلى زيتونة، فعصرت بطنها فخرج منها الولد، وأخذت المنجل الذي كانت تحش به العشب، فقطعت به صرتها وقمَّطت المولود في خرقة فوق رأسها، فأردفت حزمة الحشيش الثقيلة فوق ظهرها، وأخذت الولد بيد إلى صدرها، وعادت إلى الدار كما ألفت أن تعود على العادة. أنصتت عبوش للقصة وفهمت أنها الرصاصة الأولى التي تتلقاها بعد العودة إلى حلبة المبارزة، إذ رأت أن المرأة ضرتها أرادت أن تغمزها في بطء نقاهتها من النفاس، فقالت عبوش في الجواب:

- أنا وأنت ليست أحشاؤنا في صلابة أحشاء هؤلاء النساء، لأننا كبرنا في الظل، وفينا رخاوة النعنع، وكلٌّ وُما أعطاه الله!

عاد الولد إلى الكتَّاب ووجد أن جماعة القرية قد تعاقدت مع معلم جديد في المسجد. كان ذلك التعاقد المسمى بالشرط أو المشارطة، حدثا تردد صداه بين القبائل، لأن المتعاقد معه شخص من مشاهير العارفين بقراءات القرآن. أصله من قبيلة حاحا، وسكنى أهله بمدينة الصويرة. وقد توسط في ترشيحه لإمامة مسجد إِمَرِغْنْ أعيان الزاوية النظيفية بمراكش، لأن النشيطين في ما يتعلق بشؤون المسجد في القرية فقراء تجانيون أخذوا الورد عن الشيخ النظيفي بمراكش، وشيخ القرية وعائلته كما رأينا من المنتسبين إلى هذه الطريقة.

المعلم الجديد اسمه السي عابد. من براهينه على تميزه أن ولده من صلبه حفظ القرآن في عامه السادس، وهو الآن معه في محل عمله الجديد، وهو في عمره يكبر أحمد بعامين، وقد ألم بقراءات أولها قراءة نافع برواية ورش عن الأزرق، وبعد إتمام حفظ القرآن أخذ في حفظ بعض المتون التي يبدأ بها طلبة العلم الشرعي. وحجة تميز السي عابد الثانية هي إقبال كبار الطلبة عليه، من الذين يريدون تحصيل القراءات بعد الحفظ التام للقرآن في صيغته المجردة.

كان السي عابد رجلا طويلا نحيفا، لا تزيد لحيته السوداء على شعرات مقوسة في مقدمة ذقنه، أدهم لون البشرة، ثاقب البصر، في خده خال بارز، قليل الضحك، بل قليل الكلام.

استضاف الوالد الطالب الجديد في داره أكثر من مرة في غياب الولد، تمهيدا للرعاية التي يرجوها منه لولده، وبالفعل، فإن الولد

لقي من التمييز ما تسمح به طبيعة هذا الطالب في غلبة الانقباض والتجهم على حاله، ومع ذلك فقد أجلسه على يمينه إلى جانب ولده، وفي يساره تلميذ آخر أبوه تاجر سوسي تجاني بمراكش، أودعه في يده ليُحفِّظه القرآن.

بدأ مع مشارطة السي عابد عهد ازدهار في مسجد القرية، ولم تمض أيام من رجوع أحمد حتى حل عيد مولد النبي، فاحتفل به الفقراء التجانيون في زاويتهم التي هي بجانب المسجد، وإن كانت قبابها مستقلة عن المسجد. يكون احتفال الفقراء المنتسبين في هذه المناسبة بالإسهام في شراء ثور وذبحه وإطعام لحمه في الزاوية، والتجمع فيها يكون بين المغرب والعشاء لقراءة أوراد الطريقة، ومن ضمنها عدد من الصلوات على النبي، ولاسيما الصلاة المعروفة بجوهرة الكمال والصلاة المعروفة بصلاة الفاتح. ويتميز الاحتفال أيضا بقراءة السيرة النبوية وبدروس الوعظ التي يقدمها الطالب الجديد. ميزة أخرى لإِمَرِغْنْ تربطها بالمدينة وبأهل الفهم الصحيح للدين، وتميز للفقراء المنتسبين على غيرهم ممن ينظر إليهم على أنهم أقل ورعا وتدينا.

بلغ الخبر إلى تاوريرت أن الأخ الشقيق للشيخ امحمد النظيفي، صاحب الزاوية التجانية بباب فتوح بمراكش، قد وصل إلى دار الشيخ العم عمر. فعلى يد الأسرة النظيفية انتسب أيت واحمان، وبعدهم أعيان عائلات إِمَرِغْنْ، إلى الطريقة التجانية، كان ذلك في عهد السلطان مولاي الحسن، وكان المريغيون قبل ذلك ناصريين في طريقتهم الصوفية، يخصص كل فرد منهم، متى زرع وحصد وجمع محصوله، قفة زرع لزاوية تامگروت، يدّخرها حتى يمر ولد من أولاد

الزاوية يجمعها. وحتى بعد انتماء المريغيين إلى التجانية فإن علاقاتهم بالناصريين قد استمرت في شكل زيارات شيوخها لدار أيت واحمان، كان آخرها زيارة الشيخ عبد السلام الناصري عام خمسة وأربعين ، حيث كانت ضيافته بدار الوالد، وكان في ركبه نساء وخدم وأصحاب.

يحكون في دار الوالد أن الشيخ امحمد النظيفي كان إماما مذررًا بقصبة أكَركَور في قبيلة أيت واوزكَيت المجاورة بحوز مراكش، عند القائد محمد الكَركَوري، ويحكون أيضا أن هذا القائد كان من النبهين الطيبين، لكنه غاب أياما عن محل حكمه، وعيَّن خلفا له أخاه الجيلالي، فسلك سلوك الانتقام في أعيان القبائل، وكان ممن استهدفهم بخسفه السيد بورحيم، وهو جد الولد أي والد أبيه، إذ أراد أن يضع في رجله القيد ويضع بعض أهله في أغلال السجن، لكن الشيخ النظيفي تدخل لحمايته، وكان لذلك أثر عميق في علاقات أيت واحمان بالنظيفيين فيما جاء بعد ذلك من الأيام.

كان ظلم الجيلالي الكَركَوري سببا في انتفاض قبيلة أيت واوزكَيت، فهجموا على قصبة المخزن بأكَركَور وأخلوها، حتى إن الطالب امحمد النظيفي لم يبق له إلا المسجد ليسكن فيه بأهله. بعد ذلك انتقل النظيفي إلى مراكش بدعوة من مقدم التجانية بالرحامنة، ويسمى سيدي أحمد المحمود. ويقال إن الشيخ النظيفي قد فتح الله قلبه للطريقة التجانية بعد قراءة الكتاب المعروف ب«جواهر المعاني» الذي ألفه للشيخ التجاني، فنزل أول الأمر بزاوية بحومة باب أيلان بمراكش، ثم نزل عند السادة الكنسوسيين بزاويتهم بحي المواسين لمدة تقرب من عشرين عاما، ثم اتخذ زاوية خاصة له بباب فتوح

واتخذ وراءها داره. وكانت في هذه الدار زوجته السيدة فاطمة علي، من بيت إلغمان، شيوخ نبلاء في وادي نفيس، وكانت لها مداخلة خاصة مع نساء أيت واحمان إلى أن توفيت في عام وفاة زوجها هذا، أي ثمانية وأربعين. ويذكرون عن هذا الشيخ أنه كان يتمنى يوم يجيء أجله أن يكون هو الأسبق من زوجته ومن صديقه السي الحسن الحجام، وكان كل من الزوجة والصديق يتمنى مثل ذلك لنفسه، أن يكون أسبق إلى الموت من الشيخ، فاستجيب للصديق بأن كان الأسبق بقليل، واستجيب للشيخ في المرأة، إذ تأخرت بضعة شهور.

أما أخوه، وكان أهل الولد يسمونه سيدي عبد الرحمان، فقد جاء في زيارة أيت وحمان آخر مرة في نفس عام وفاة أخيه، وقد اعتاد هو وعدد من أقاربه وكبار فقرائهم على المجيء إلى إِمَرِغْنْ عند أيت واحمان. وكانت كتب الشيخ التجاني وكتب تابعه الشيخ النظيفي، من الكتب التي فتح عليها الولد عينيه ولمسها بيده حتى قبل تعلمه القراءة، وهي مطبوعة بمصر على الورق الأصفر.

أخذ الوالد في إحدى تلك الزيارات بيد ولده وتقدم به ليسلم على سيدي عبد الرحمان، حتى يفوز منه بدعوة خير، فكان الأمر كذلك، إذ قال الرجل للوالد : «أنت رجل صالح تحبنا ونحبك، ولكن دعوتي لولدك هذا هي بأن يكون خيرا منك». كان هذا الرجل معروفا بطرافته، ومن جملة ما يحكى عنه أنه رأى الوالد يوما في إحدى زياراته، رآه يصلي صلاة سريعة، فلما سلم الوالد قال له : «يا السي محمد، إذا كنت أنا لا أقبل منك تلك الصلاة لأنها مسرعة، فكيف تنتظر أن يقبلها منك ربك؟»

في تلك التسليمة على هذا الرجل رأى الولد والده لأول مرة

ينحني على شخص ليقبل كتفه، كما لم يفعل قط أبدا إلا مع عميه الشيخ عمر وعمه بوقدير.

الزاوية التجانية في باب فتوح بمراكش هي نقطة الموعد والمرجع بالنسبة للمريغيين عامة، ولآيت واحمان (عائلة الولد) خاصة، إذا ذهبوا إلى مراكش، فهي تقع من المدينة في وسط الأسواق وقريبة من الرحبة حيث يباع الزرع ويباع ما يأتي به أهل إمَرِغْنْ من الملح، والرحبة قريبة من مساحة جامع الفناء حيث الفرجة على الروايس (مطربي الأطلس الكبير)، وحيث حلقات الوعاظ في الدين بلغة الشلوح (لغة بربر الأطلس الكبير)، وقبالة باب الزاوية خياطون بالآلات، يصنعون لهؤلاء المتبضعين القرويين ثيابا مفصلة. ومن الخياطين بعض من هم من قبيلة الولد، تُطلب عندهم الأخبار وتودع عندهم الودائع، ويقومون بلوازم الضيافة للواحمانيين بقدر النزر الذي تسمح به إمكاناتهم، وكان الطعام في موائد هؤلاء الحرفيين الحضريين بقدر ما هو ضروري، وهذا مما يتندر به أصحاب النخوة الأطلسية التي تعبر عن نفسها قبل كل شيء من خلال الأكل في موائد وقصاع حافلة، تعتمد على الخدم والحشم وموارد الأملاك المزروعة والمواشي الوافرة التي يؤخذ منها خروف أو شاة أو معزى للذبح في أي وقت حضر الضيف المستحق. ثم إن الزاوية التجانية هي مسجد للصلاة وقبة مزارة، وخوابيها المملوءة بالماء المعروضة على الشارع عند مدخل الزاوية، يشرب منها الداخلون والخارجون بغراريف مصنوعة من الخزف مطلية بالقطران الذي تمتزج رائحته برائحة الطين، والشرب يكون لنقع غلة العطش وبنية ري الروح للمعتقدين، فماؤها ليس كمطلق الماء لأن الماء في أوانيه تلك يَسمع حلقات الأذكار القائمة بالليل والنهار.

يذكر الولد أن والده أخذ بيده ذات يوم في زيارة مراكش، وأدخله بعد صلاة المغرب إلى غرفة في الزاوية التيجانية يجلس فيها الشيخ أحماد ولد الشيخ النظيفي وخليفته بعدوفاته، فسلم الوالد على الشيخ وتقدم الولد وسلم عليه وقدم له هدية أراد الوالد أن يكون الولد هو الذي يضعها في يد الشيخ، فإذا الشيخ يدعو للولد ويقدم له ثمرة من مخروط ثمر موضوع أمامه.

كان أحمد، لرهافة صحته وبعد داره، معفى من الاحتطاب للمسجد، والاحتطاب كلفة تلزم كل التلاميذ في ما بين نهاية حصة ما بعد العصر وبين وقت المغرب، يخرجون إلى الغابة المجاورة لجلب حطب يوضع في جانب من قاعة القراءة بحيث يملأ ثلثها إلى السقف، يستعمل لأغراض الإمام الخاصة ولتدفئة ماء وضوئه، ولغرض الإضاءة في وقت قراءة ما بين العشاء والمغرب، وللتدفئة في الشتاء.

والواقع أن الوالد، وهو الساعي لهذا الإعفاء من الاحتطاب، كان متحيرا بين إتاحة الفرصة العادية لولده في الاختلاط بالأولاد لتعلم كل شيطنتهم حتى يكون الشامت لا المشموت، وبين حرصه على ألا يكون الولد ضحية لهذه الشيطنة، وهي شيطنة مختلطة بأنفاس هؤلاء الأولاد كما يصعّدونها، لا تجود لهم الحياة، كما تعلموا، إلا بشيء منتزع بعنف أو بحيلة. والواقع أن من يتأمل عالم هؤلاء الأطفال لا يدري لأي حياة أو عالم يهيئ هذا الوالد ولده.

حل الربيع بأزهاره وقارب الزرع نضوجه، وكان يحلو للولد أن يسير وسطه ليقايس قامته بعلو السنابل، وليتبلل جسمه بالندى العالق بسيقانها، تتخللها شقائق النعمان، وإذا عاد إلى حواشي الحقول

أشفق من اعتساف مخلوقات رخوة صفراء لا تميز لأعضائها، تزحف دون أرجل على العشب بقدرة مًّا، وكأنها تصبغ الأرض باللبن. لكن الفرجة في الربيع تزيد بهجة بعودة الطيور، ولا يستأثر بشغف الولد من بينها طائر أكثر من الطائر البديع الألوان المسمى «جرقراق»، تسكن منه أسراب في الثقوب الموجودة في الجدار العالي الذي يشكل واجهة دار تاوريرت المطلة على الفضاء الواسع لحقول إِمَرِغْنْ ، وهو الجدار الذي فيه نوافذ البروج والقباب المجبسة. تأتي جماعة من هذا النوع من الطير في أوائل الربيع وتهاجر في أواخر الصيف بعد أن تكون قد أفرخت في تلك الثقوب وغذت فراخها حتى تريش وتستطيع أن تطير. ويبدو أن جمالها في الألوان المتدرجة بين الأزرق والأخضر، مع قليل من اللون الأصفر والأسود، موزعة بين الجناحين والظهر والعنق تجعل منها طيرا شبيهة بالطاووس في ما عدا حجمها الذي لا يتعدى قدر حجم طائر الحجل. ويبدو أنها من الطير الكسلانة التي لا تعلمها التجارب، فهي لا تستعمل منقارها في ثقب جذوع الأشجار لتسكن الفراغ الموجود في وسطها، ولا تكدح، نظرا لقصر موسم إقامتها، لبناء الأعشاش بالعمل الدؤوب، وإنما تغتنم فرصة وجود هذه الثقوب في جدران بعض الدور العالية، وهي ثقوب لا تفضي إلى الداخل لأنها مغلقة من جهة الغرف المجيرة الجدران. وهي في الأصل ثقوب كانت فيها الأخشاب التي أقيمت على أطرافها ألواح بناء الطابية، فهي صفوف في أسفل كل مستوى من تلك الألواح.

كان أحمد يلح على والده في أن يطلب من بعض الأعوان مساعدته في التسلق للحصول على طائر من طير جرقراق. وكان

الأعوان يتمازحون باختبار ذكاء الولد بأن يقولوا له إن أيسر طريقة للحصول على الطائر هي أن يُفاجَأ بالليل وأن يوضع على عينيه شيء من الزبد، فإذا طلع النهار ذاب الزبد بالشمس وعميت عين الطائر ولم يقدر أن يطير، فيسهل القبض عليه. لكن أحمد لا يهدأ حتى ينفذ هؤلاء الأعوان إرادته بنصب سلم طويل على الجدار يكون رأسه إلى جانب ثقب تأكدوا أن الطير يقيل به. ووصية الوالد ألا يترك الولد يتسلق، لا خوف سقوطه، بل مخافة أن يكون في الثقب حنش ينتظر، بعد أن يكون قد اقتحم مسكنه على الطائر وأجهز على فراخه.

كلما حل الصيف وأبان حصاد الزرع عن كل الأعشاش المختبئة بين السنابل وبعضها لم يفقس بيضه بعد، طغى على فكر الولد شيء يهم الطير بالذات، ويتعلق الأمر بالهدهد التي يكثر ظهور أعشاشه بعد الحصاد، ذلك أن هذا الطائر لم يسبق لأحد أن صاده أو تقبض عليه في القرية. وهو بالنسبة للتلاميذ أعز ما يطلب، لأن الاعتقاد راسخ بأن مخه خلاصة الذكاء، وأن من طَعِمَهُ حصَّل ملكة الحفظ التي عليها مدار حياة طلاب القرآن.

ولعل ولع الأولاد باصطياد الطيور والذهول عند التطلع إليها، هو ما جعل أهل البلد يُمَوِّهُون بها في موقف خاص ولحظة حرجة، لحظة الختان، عندما يهم الحجام بإعذار الطفل وذلك بقطع مقدمة الجلد المحيط بحشفة عضوه، ولكي لا ينتفض الطفل يمسك به رجلان قويان ويقدمانه على هيئة تعين الحجام على إتقان الختان، وقبل رفع ثياب الطفل يغريانه بالنظر إلى طائر في سقف الغرفة التي يجري بها ذلك العمل، ولا طائر هناك، وفي لحظة اشتغال الطفل بالبحث عن الطائر الوهمي يكون الحجام قد أحكم قبضته على

المحل، وعزل منطقته، وأمضى بالمقص ضربته. وأشد من ألمها على الطفل ذلك الماء الحارق الذي يوضع على الجرح، ويسمونه بالماء القاطع (الكحول).

يطغى على عويل الأولاد عند الختان أصوات الطلبة القارئين، والمنشدين المادحين، وزغاريد النساء، وحفل ختان أعظم من حفل العقيقة وأقرب إلى حفل العرس. وأم الطفل المختون في كامل حلتها البيضاء، وهي مدار التبريك، فلها المواساة في الصبر على ما سينزل أو نزل بوليدها من ألم، ولها التمجيد على أنها ولدت ذكراً يتأهل اليوم لرجولة كاملة. وصاحباتها يهيئن للأطفال بَيْضاً مسلوقاً يوضع في فم الطفل على شدة حرارته، والخيل تجري، والأطعمة تقدم للضيوف.

يذكر الولد أشباح ذكريات من يوم ختانه، على صغر سنه، ومنها ثلاثة أمور: الغرفة والإغراء بالنظر إلى الطائر الوهمي، وهرج الحفل، وعسر التبول في اليوم الثاني. لكن ذكرى غير هذه لم تفارق ذهنه أبداً، ذلك أن العادة هي إقامة حفل الختان بالقرية بعد أن يكون قد تجمع عدد من الأطفال يتوقفون على تلك العملية المقدسة المعروفة في هذا البلد باسم «الطهارة»، فأولاد الفقراء ومتوسطي الحال ينتظرون أن يقيم الحفل أهل الأطفال من بيوت من هم أكثر يسراً، ومعنى هذا أن هؤلاء يعذرون في سن أصغر من سن أبناء من لا يستطيعون إقامة الحفل وإجازة الحجام.

سمع الولد أشقياء المعاونين في داره يذكرون، حتى بعد الختان بأعوام، أن من جملة من تطهر معه ولد يتيم من عائلة «إد الأديب»، وكان في سن البلوغ أو تجاوزها. وقد ظل أولئك الأشقياء

يتندرون بموضوعه قائلين إنه كان الأحرى به استحياءً أن يتقدم للحجام لا مواجهة، بل عبر ثقب من خلال الجدار.

ومما يظهر بعد الحصاد جحور صغيرة كثيرة تسكنها العقارب في المنحدرات بين الحقول المدرَّجة. وتشكل هذه الجحور هدفا ممتعا للأطفال الذين يحبون أن يلعبوا باستخراج العقارب، ذلك بإدخال سيقان نبتة الورس في الجحر ولها رأس مكور، وهم يعرفون أن العقرب داخل الجحر ستمسك بتلك الساق، فيقوم الطفل بجر العقرب، فإذا خرجت وجدت الطفل قذ وضع على باب الجحر حلقة من خيط يعقده ما بين رأس العقرب وجسمها، ويفعل ذلك بعدد آخر من العقارب مسلوكة في عُقَد نفس الخيط، ويدعها تدور على نفسها، فإذا ملَّ من اللعبة قطع عقد الخيط وانفرطت العقارب لتذهب في كل اتجاه تبحث عن جحورها. يكون معظم الأطفال في هذه الحال ممن يرعون البقر على جذور الزرع الحصيد، والأطفال الرعاة في اطمئنان ما لم يظهر طائر يسمى دوكوك، يحدث صوتا يحكي اسمه : «دوكوك، دوكوك» يثير البقر فيهرب في كل اتجاه وكأنه أصيب بالجنون.

في ذلك العام أتى الجراد من جهة الجنوب فملأ السماء وظلل الأرض، وخاف الناس على زروعهم أن يقضي عليها إذا قضى الليل فوقها، فحاربوه بالصراخ وإشعال النارلإثارة الدخان والطرد بالعصي، وتوقعوا الكارثة. رأى الناس شيئاً لم يتعودوا عليه، رأوا الحكومة تأتي بسيارات حاملة مادة كالدقيق تنفث على الأشجار بنوافيخ محمولة على الأكتاف تقتل بها الجراد، جاءت عند فجر الغد قبل أن يطير الجراد. قال الذين جاؤوا بذلك الغبار للناس إن على من أراد أن يجمع الجراد لأكله بعد قليه أو طبخه في الماء أن يتأكد من

أن تلك المادة القاتلة قد تخلص منها، وقالوا إن الحشرات الأخرى التي تحب الجراد وتخرج لاصطياده، ولاسيما السامة كالثعابين والعقارب، تتأثر هي أيضاً بتلك المادة.

ما فتئ ذكاء الولد يتعرض من قبل محيطه لاختبار ويوضع في ميزان، وأمثاله من الولدان يتثقفون في هذه البيئة بتكليفات وتسخيرات في أعمال، فإذا أحسنوها حُسبت لهم. أما ولد السي محمد فبالرغم من أنه لا يُستدعى لأعمال الفلح والرعي وتوفير حاجات العيش، لأن في دار والده بعض المسخرين، فإن أنواعا من التكليفات الأخرى تصلح لأن يكون هو المنتدب لها بقدر ما يشتد عوده. وقد علق بذهنه أن والده سخره ذات يوم من هذا الفصل ليشتري بضاعة من قبيل السكر والشاي وما يشبهها من تاجر توجد داره مجاورة لتاوريرت، يسمى إيمني، لأن أصله من قبيلة إمنان بوادي غيغاية.

كان إمني أقرب جيران دار أحمد، وكانت له زوجة لا تلد في تلك الأعوام، وكانت له أم يتكرر بينها وبين ولدها الشنآن والخصام فيلجآن إلى احتكام جارهما والد أحمد، يحضران في غالب الأحيان قبل شروق الشمس. وكان أحمد يحضر مرافعة الأم والولد وكيف أن التاجر يرفع صوته على صوت أمه، بل كانت تشتكي بأنه يؤذيها كما لا يتخيل أحد في هذا البلد، وكان مجرد سماع هذا الفعل من أشد المنكرات في تقدير الناس، وكان بعضهم يقاطع معاملة التاجر المذكور لأجل ذلك. كان إمني يبيع في حانوته أو في داره ويحمل بضاعته من البقالة إلى أقرب سوقين أسبوعيين، خميس ويركَان وسبت مولاي إبراهيم.

دق أحمد باب دار إمني وفتح له وطلب البضاعة التي أُرسل

إليها. وكان إمني في الحجرة التي فيها البضاعة والميزان، وأخذ التاجر يعاكس ممازحا بأمور تضايق الولد وتهم الأب، وكان أمام التاجر مجلات فيها صور ملونة للرجال والنساء من قبل صور عرض الأزياء. ولما رأى التاجر أن الولد مستغرق الانتباه والاهتمام بتلك الصور قال له:

تريد أن أبيعك تلك الصور ؟

قال الولد : نعم، بكم ؟

قال التاجر : الأمر سهل، تعطيني جلبابك.

الولد : أبي سيؤدي لك ثمن الصور.

التاجر : إذا أردت أن تأخذها الآن فاخلع جلبابك ودعني أتفاهم مع أبيك.

اشتدت رغبة الولد في الحصول على الصور في الحين، وقدر أن الجلباب سيستعيده الأب حتما، والمهم هو الفوز بالصور .

خلع الولد الجلباب وأخذ الصور وأخذ البضاعة وأدى ثمنها وخرج.

ما أن دخل الولد الدار حتى كان التاجر يدق وراءه يطلب الوالد، وكان حمل جلباب الولد وهو يضحك، وقصده أن يمازح الوالد وأن يسجل تلك المزحة، يعير بها الولد كلما لقيه بقوله: أنت الذي بعت لي جلبابك في صور نصارى!

لم يستسغ الوالد تلك المزحة الشامتة لأنها تزري بولده، فعاتب التاجر، وعاب على ولده الاستعجال في الحصول على الأشياء.

لم يحضر أحمد كثيرا من أعراس القرية في صيف ذلك العام

لأنه مرض بالحصباء في أوله، ومرض في عينيه في أواخره. ولقد حرمت بمرضه أمه أيضا من حضور عدد من الأعراس، إذ كانت تقضي الليالي ساهرة لأنه كان يتألم إذا نام على جانب وتطايرت قشرة الدماميل الزرقاء التي تغطي جسمه فيسيل دمها فيستيقظ ويبكي، أو لأن الأم تضطره إلى إيقاظه لكي يجدد الخرق التي على عينيه المريضتين، وعليها معصوبا بخرقة ما تبقى في إبريق الشاي من نعنع وأوراق شاي مطبوخ. كانت الأم بين عذاب الولد وهشاشة البنت الوليدة التي تحرص أمها على أن توقد الشمعة المرة بعد المرة لتتأكد من أن طفلتها لم تهاجمها أفواج البق والبرغوث وهي تخرج من ثقوب تسكنها في الطلاء الجبسي على جدران البرج الركني من بروج الدار. وإذا اطمأنت ونام الصغيران اشتغلت الأم بينهما بيديها تحرك أطرافا من أغصان الجوز لاصطناع هواء بارد ولطرد البعوض الذي تجتذبه بشرتهما الغضة الطرية.

لم يكن هذا السهر يعفي الأم، عبوش بنت السي حدوش، من القيام بمهامها كاملة في النهار، فقد اتفق الجميع على أنها امرأة صابرة، وكل من عرف ذلك يعرف شيئا من الأمور التي تصبر عليها، ومواقف لها لا تنسى في التحمل، ولعل الذي كان يسليها في الصبر ويعينها عليه هو صمتها وتعودها على تصفية أمور كثيرة بمجرد النظر الخاطف.

كانت أم أحمد آلة للطبخ لا تتوقف، فهي في مركز الاشتغال بالرغم من الاستعانة بالخادمات، تحمل في الليل هم النهار وتنام معه إذا نامت، أما العناية بالولد والبنت فذلك محسوب على الأمور التي عليها أن تستزيد منها لأنها تسعدها حتى ولو كانت اهتماما بمريض أو أرقا مع محموم. فمتطلبات هذه العائلة لا تقبل التأخير أو

التأجيل، إذ على الزوجة الأم إذا أرادت الراحة أن تموت حتى تعفى، أو أن تصل بها الحمى إلى حد الهذيان مع تصبب العرق الساخن الذي لا يكفي فيه التضميد حتى تعذر، فهي قد تشكو من هذا الداء أوذاك، ولكن عليها ألا تتخذ الألم عذرا للتملص من الواجب، فمن عرف أن عذره لن يؤخذ على حق تخلى عنه وأعفى نفسه من المماحكة مع شركائه في هذا المحيط.

تستيقظ عبوش في الصباح الباكر وتشمر يدي بدلتها بالحمالة القطنية استعدادا للعمل، وتبدأ بإشعال نار المواقد المسماة بالكوانين، والمقت واللعنة في هذه المهمة الصعبة تنزل على الأعوان الذين يجلبون الحطب من الغابة المجاورة، فبعضهم من الأشقياء الكسالى يقطعون حطبا من أشجار خضراء قريبة، تقاعسا منهم عن الذهاب بعيدا في الجبل حيث سقط الشجر اليابس، ومع هذا الحطب الأخضر لابد للمرأة من محاولات عدة متعبة حتى تأخذ فيه النار، مع ما يتطلبه ذلك من تعب باستعمال الأنفاس أو النافوخ. توضع على الكانون الأول قِدر لإعداد الحريرة، وفطور الصباح هناك يدور على الحريرة (أسكيف) المصنوعة من الشعير أو من الذرة ، لكن جميع الناس على وجه التقريب يُعدُّون مع الحريرة القهوة أو القهوة والحليب. وفي كل صباح تسمع أصوات الهاون هنا وهناك لدق القهوة التي يُشترى منها كل صباح مقدار ما يستهلك في ذلك اليوم لا غير، ويعلو كل دار في القرية عمود دخان ينبئ بهذا الإعداد الجاري لتحضير الفطور.

قِدران كبيران من الحريرة وإبريقان من القهوة وآخران من الحليب لإفطار صاحب الدار وعائلته وخدمه القارين من النساء والرجال وبعض الأشخاص من المنقطعين الذين هم على العالة،

ولكل حكايته الخاصة، ثم لإفطار الطارئين من الضيوف أو المارين في الصباح، إما للشكاوى أو لخدمات مطلوبة منهم سينطلقون إليها، وهم إما من أهل الخماسة أو المزارعة أو من البنائين أو قاطعي بعض الأشجار أو صناع الفحم أو من الرقاصين الذين يأتون أو يذهبون بالأخبار أو من اليهود الذين يصنعون الحليّ أو يجددون برادع البغال والحمير أو يرفون الأحذية أو يعيدون خياطة طنافس الجلوس المسماة بالمضارب. وليس من عوائد هذا الوقت أن يتم الإعلام مسبقا بأنه سيفطر في الدار عدد معين من الناس، بل يحضر من يحضر وتُوَاجه الطواريء إذا زاد مطلوبها على ما هو داخل في الرسم اليومي الذي يأخذ تلك الطوارئ في الحسبان، لا يزاد على ما ذكر للفطور شيء إلا التين الطري في موسمه.

ولمثل هؤلاء يتم كذلك تحضير الغذاء، كسرات الخبز الرقيق المسمى تانورت، تكفي الواحدة لشخصين إذا كانا من الأكلة العاديين، وتعطى للخادم الواحد كسرة ونصف أو كسرتان. وعبوش تحضر عجينها في الوقت الذي تكون فيه قدور الحريرة وأباريق القهوة فوق النار، إذ لابد أن يكون العجين قد ارتفع بخميرته بمجرد إنزال قدور الحريرة من فوق الكوانين، حينئذ فإن عبوش لا تهتم بتوزيع الحريرة والقهوة، لأن عليها أن تسحب الجمار من وسط الكوانين وتتركها عند مدخلها لتَستعمل، من أجل تحضير الخبز، الجوانب الداخلية الحامية للكوانين، وهي من خزف قدور بنيت عليها الكوانين المفتوحة من جهة واحدة، والنساء هن البانيات لهذه الكوانين ذات الأثافي الثلاث، حول قدر تكسر بعد البناء حولها لصنع المدخل.

يتقوس ظهر عبوش وأمامها قصعة عجين، تأخذ بيدها اليمنى، على شكل كرة، قدر ما يكفي لصنع كسرة واحدة، وترش بقطرات

ماء جهة واحدة من الجانب الداخلي الخزفي للكانون، فتضرب بالعجين على ذلك الوجه الداخلي، وتتولى نشر العجين وتطريقه وإلصاقه بظهر راحتها، بحيث يمكن لمن توضع أمامه للأكل كسرة تانورت (الخبز المحلي) أن يرى أصابع المرأة التي صنعتها وقد ارتسمت خلفيتها على الخبز وكأن الرغيفة صنعة نحات موقعة، ثم تقوم بعمل مماثل لوضع كسرة ثابتة على الجانب المقابل، كسرتان في كانون، ثم تنتقل إلى الكانون الثاني، ولا تكمل إلصاق الرابعة إلا وقد نضجت الأولى. تأخذ السكين وتفصل التي نضجت ثم تلصق الكسرة الخامسة، ثم تفصل الثانية، وهكذا دواليك في معركة مع الوقت، والحرارة تلفح الوجه، والظهر مقوس لمدة ما يكفي لتحضير ما بين ثلاثين وأربعين كسرة. وفوق هذا الاشتغال الكثيف تراقب عبوش نساء معاونات يضعن للطبخ على المجامر ما يكون مرقا للغذاء، لحما ببصل، أو لحما بخضر، أو خضرا وبصلا بلا لحم في غالب الأحيان، أو بيصر فول أو عدس.

في معظم الأيام يتم تحضير فطور بين الحريرة والغذاء للمستعجلين، يكون رغائف مدهونة بالسَّمن أو شعرية أو أرزا وبيضا مطبوخا في السمن، لأن الخروج للعمل لا يسمح بانتظار غذاء وقت الزوال.

يتم تناول الغذاء وقت الظهر أو قبله بقليل، يقدم لمن في الدار أو للمكلفين ببعض الأشغال في الدار أو في الحقول المجاورة. ولا يفرغ منه حتى تبدأ عبوش في تحضير طحين طعام ما بعد العصر، حريرة أو كسكس من شعير أو من قمح أو من ذرة، ويسمى الذي من الذرة بادَّاز، أو دشيشة من شعير، وذلك بأن يدفع للمرأة قدر نصف عبرة أو أكثر من الشعير أو الذرة أو القمح لطحنها في المطحنة

الحجرية اليدوية المنصوبة في ركن من أركان الدار، وهذا الطحن مُجهد.شاق على المرأة سيما إذا صار يوميا، إذ أن إرسال حمولة بهيمة أو بهيمتين من الحبوب إلى المطحنة التي تدور بالماء لينفق منها لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع لا يتأتى في كل الأحوال، ولأن ما يصل من النهر من ماء ساقية القرية لا يكفي لإدارة المطحنة في كل فصول السنة.

في بعض الأيام، ولاسيما إذا غاب الرجال، يعد النساء لأنفسهن طعاما خاصا لهن يصلح للسمنة أو لطرد البرد من البدن، بما يوضع فيه من الأعشاب المقتلعة من الجبال أو من الحبوب المعينة على ذلك مثل الحلبة أو حب الرشاد.

مما ينبغي أخذه في الحسبان عند تحضير الفطور والغذاء والعشاء ما يخصص لطالب (تلميذ) من طلبة القرآن الوافدين على المسجد من خارج القرية، وهي وجبة تسمى «تارتبيت»، يحضر المستفيد لأخذها عند الفطور أو عند الغذاء أو عند العشاء.

بعد توزيع طعام العشاء، يكون على عبوش غسل كل الأواني قبل النوم، تعينها على ذلك بعض الخادمات، وتكون المواقد قد انطفأت، وقد سيطر على جنبات الدار ظلام يتيح لمخلوقات غير مرئية أن تتحرك، ولا بد في مراعاة التساكن معها الالتزام ببعض الطقوس مثل عدم إهراق الماء على الأرض دون ذكر اسم الله، ولكن ما ينبغي تجنبه على الخصوص هو صب الماء على النار لأنها لا تطيقه.

تحقق لدى الجميع، مع مرور الأيام، أن الولد قد تربع على عرش قلب أبيه وأن إرضاءه ليس مطلوبا فحسب، بل هو السلَّم الذي

يُرتقى لمرضاة الأب الذي كاد أن يتخذ هذا الابن مدار كل شيء ومقياس كل العلاقات. وبقدر ما كانت الأم تتأسى بهذه العلاقة، حب الوالد المفرط للولد، عن كل ما قد يطال حياتها من ضغط أو إجحاف، بقدر ما كانت تجد نفسها مسؤولة عن شيء هش تخاف في كل لحظة أن يعتطب في يدها وتؤاخذ بانكساره. ولا يتأخر المخوف أن يحدث، فقد حدث غير ما مرة أن أصابها النكد بشر نزل بالولد، من ذلك أنها كانت تتهيأ ذات يوم لتضع إبريق القهوة عن المجمر المستعر لنقله إلى الصينية ثم تقديمه إلى المتحلقين في القبة لتناول الفطور، إذ جرى أحمد كالسهم بين يدي أمه وتسبب في إهراق الإبريق الذي بيدها، فإذا قدر من السائل الساخن الذي فيه يقع على وجه قدم الولد، فانسلخ جلده وظهر ما تحته من اللحم، من الرسغ إلى أصابع القدم الخمسة.

صرخ الولد وسقط وتعالى عويله، وحضر الوالد، وتوجس كل من حضر أن ينزل العقاب بمن ستقع عليه تهمة التفريط، لكن الوالد اكتفى بأن ردد عبارة «لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله». أُسجي الولد في فراشه والوالد ساهم لا يرد بشيء على أقوال الأم وهي تتبرأ وتحكي ما وقع، أو تذكر تحذيراتها للولد غير ما مرة ألا يقترب منها عند اشتغالها قرب الكوانين.

عرف الجميع أن الفقاقيع التي قامت على وجه القدم المسلوقة تدل على شدة الاحتراق، وأن عويل الولد سيُقَطِّع الأكباد طيلة اليوم والليلة القادمة لأن بداية العلاج مرهونة بحلول فجر اليوم الموالي. وهكذا رتب الوالد عونا يقوم بحمل الولد المصاب على البغلة إلى الرجل المتخصص في مداواة الحروق، ويسمى بوعنكًا، وهو في

عزيب (قرية الرعاة) إِمَرِغْنْ. رجل طويل القامة منسوب إلى الشرف، يشتغل حدَّادا، لا يعالج من يأتيه من المصابين بالحروق إلا في الوقت السابق لطلوع شمس النهار.

وصل المصاب إلى الطبيب وفرح به لأنه ليس كسائر الزبناء، فهش له وبش ورحب، وجاء بفاكهة يابسة في انتظار الفطور، ثم شرع في حينه في المعالجة، وذلك بأن أحضر مجمرا مستعر الجمرات، ووضع فيه سكينا أحماها حتى احمر لونها، إلا قبضتها، وأتى بشيء من الملح ووضعه جانبا، وأتى بزلافة فيها ماء و وضعها بجانبه كذلك، وأسجى الولد على ظهره، وأمر العون أن يأخذ برفق رجل الولد التي أصابتها الحروق وأن يقربها من وجه الطبيب وهو جالس، فأخذ المداوي يضع فوق لسانه شيئا من الملح بيده اليسرى وهو قابض بيده اليمنى على السكين المحماة، فيسمي الله ثم يدني السكين من لسانه ليلحسها، ثم يضع في الفم جرعة ماء فينفثها بقوة في وجه القدم المحروق مبتدئا من الأصابع، ثم يكرر النفث إلى أن عم نفثه كل المنطقة المحروقة مرات متكررة، وبين الجرعة والجرعة، كان يهمهم بذكر بعض العبارات.

يذكر الولد أن الحروق وآثارها قد اختفت من قدمه في حدود ثلاثة أيام، وقد عظمت فرحة الطبيب بما قدمه لولد هو المعبر إلى قلب أب شريف في قومه، ولا تعادل هذه الفرحة تلك الهدية التي قدمها الوالد للطبيب، وكانت عبارة عن تليس من حبوب القمح.

كاد يستقر في ذهن الجميع أن الولد مخلوق عطوب. فلا يكاد يمر عام دون أن يقع له في جسمه من الحوادث ما يدخل الحزن والنكد على والده، وعلى أمه بوجه خاص، فمن ذلك تعرضه للسعة

عقرب كادت أن تودي بحياته، وقع ذلك ذات مساء صيفي بين المغرب والعشاء، وكل من في الدار من الأطفال متحلقون في رواق من أروقة الرياض وسط تاوريرت، في ظلام خففت منه تباشير قمر ما يزال وراء قمم الجبال بقسامته. كان الأطفال جالسين على حصير فوق أرضية الرواق المجصصة، كانوا يستمعون في استغراق، كما هي العادة في كل مساء، للأساطير القديمة، أساطير أبطالها من الأغوال والحيوانات والشطار والأميرات، تحكيها لهم رقية، وهي رقوش، صغرى بنتي المرحوم الشيخ الحسين، وهي أخت أللافاضمة، الزوجة الثانية التي اتخذها السي محمد أوبورحيم. ورقوش عزباء بالغة، من أقسى ما فيها عيناها السوداوان الواسعتان الموروثتان عن أمها، وخال بارز في الخد، وما عدا ذلك من الملامح فلا تضاهيها في جمالها أي بنت حسناء في القبيلة.

كانت رقوش تحكي لأحمد ومن في الدار من الأطفال القصص التي تصنع خيال من ينشأون في هذه الجبال، قصصا أبطالها القنفذ بحيله، والذئب بلؤمه، والضفدع باستماتته، والنعجة بما تعانيه من اضطهاد، والحمار ببلادته وفضوله، والفأر بوقاحته، والغزال بسذاجته، والجمل بتهوره، والحجل بتشككه، والنسر بعجبه... قصصا ترسم الناس في عاهاتهم الساخرة وتتعرض لسذاجة الأقدمين وتمجد الشطارة والخفة وتحذر من زلة اللسان، قصصا تملؤها وجوه الأغوال والكمائن المنصوبة لللصوص وقطاع الطرق، قصصا أشخاصها مسلمون ويهود من كل البلاد، ونصارى من العدوة الأخرى المسماة في هذا السياق «أكماضان»، (بر النصارى، أوربا)، قصصا تذكر المسخ وعواقب الشر ومكايد النساء ونصائح الوالدين،

وتندد بالقاضي الظالم والتاجر الذي يخسر الميزان، وتذكر فضائل الزهاد. في تلك الليلة كانت رقوش قد امتصت بحكيها كل انتباه الأطفال وهي تقول:

خرج الملك ووزيره يطوفان ليلا في المدينة فإذا السكون يطبق على أحيائها، ولما رأيا نورا من تحت باب أحد المنازل استرقا السمع فإذا عذراء تقول: لو أن الملك تزوجني لصنعت له طبقا من الكسكس يكفي لإشباع أهل مملكته، وقالت عذراء ثانية: أما أنا فكنت أصنع له من قطعة قطن ما يكفيه لإلباس كل رعاياه، وقالت الصغرى: لو تزوجني لولدت له ولدا وبنتا بين عينيهما جوهرة» .

في الصباح تقدم الملك وتزوج ثلاثتهن، امتحن الأولى فخلطت شيئا من الحنطة بكثير من الملح فلم يقدر كل الضيوف على الأكل ولم يستطع أحد أن يقول للملك إن الطعام لا يؤكل لشدة ملوحته.

فلما ذاق الملك ملوحته سألها فقالت: إن لم يأكلوا فقد ذاقوا.

امتحن الثانية فأخذت قطعة من القماش، وأمر الملك رعيته بالمرور تحت النافذة التي تعلو باب المدينة فكانت ترسل على كل واحد شرِّيطا يتخطفه. فلما احتج الوزير وساءلها الملك أجابت: لقد أخذ كل واحد نصيبا مما أعطيتني من القماش، وذهب راضيا ولم يقل شيئا.

حملت الثالثة وتوجست أختاها أن تصير محظية الملك فلجأتا إلى عجوز مجربة، وعندما أجاءها المخاض أتت العجوز لتكون قابلتها، فولد لها بنتان على الوصف الذي ذكرت، فوضعتهما العجوز في صندوق جاءت به ووضعت جروين في حضن الأم على أنهما ما ولدت. غضب الملك وألحق الأم بالإصطبل الذي به الكلاب.

ألقت العجوز الوليدتين في البحر، والتقط الصندوق رجل يعيش مع زوجته في جزيرة ووجدهما كالقمرين المضيئين وهما ترضعان أصبعهيما. ولما وقفتا على القدمين أرسلهما إلى المسجد، فحفظتا القرآن كاملا في أقل من عام...»

عندما بلغت الحسناء في القص هذا المقام ارتجت الحلقة بصراخ مفجع أطلقه أحمد، فقفزت الحاكية ومن حولها فإذا أحمد يذكر أن شيئا لسعه في وركه، هرع من سمع الصراخ وأحضروا القناديل ففحصوا الولد و وجدوا أثر لسعة يعرفها المجربون، إنها لسعة عقرب، إذ قل في هذا البلد من لم يتعرض للسعة العقارب. بحثوا عن أثر العقرب ووجدوا أن المكان الذي يقتعده أحمد من الحصير كان به ثقب في نهاية طي تسربت من تحته العقرب، بحثوا عن الحشرة الخبيثة فلم يجدوها ووجدوا خنفساء، فانتقموا منها على العادة، وفهموا من موضع اللسعة أن العقرب لم تكن مستحكمة لتمرير كل سمها، أو أنها من صنف العقارب الشديدة السواد التي لم تشكُ يوما من العطش المركّز للسموم. قاموا بحك موضع اللسعة بكبريت من رؤوس أعواد الثقاب، وأتوا بعسل مصفى وضع على النار وصبوه في حلق الملسوع، وظهر أنه فقد وعيه، وبات من في الدار حوله بعد استدعاء كل من يستطيع فعل شيء من المتعاملين مع السموم، وطمأنوا الوالد على حرارته وعلى علامات أخرى تهوِن الحال لا يخطئونها.

كذلك كان الأمر، فقد أفاق الولد عند الفجر، وسألوه عما رأى عند إحساسه بألم اللسع فقال: رأيت أسرابا من الجراد تمر أمام عيني والثلج يتساقط عليها.

خرج أحمد ذات يوم من تلك الأيام في وقت الضحى من الكتاب ليتغذى على أساس ما هو معتاد من العودة إلى حصة ما بين الظهر والعصر. عرف أن والده لن يكون في الدار، وهو لا يصبر على غيابه. كان الوالد في دار الأسرة الكبرى عند عمه الشيخ عمر، يساعده في أمر حكومي. ودارُ العم لا تبعد عن الكتَّاب، فعرج عليها الولد وهو يعرف أنه سيلقى بها كل ترحيب، لاسيما من زوجتي الشيخ، عمته طامو والزوجة التي جاءت طارئة على الدار من تركة حريم قائد مات في ظروف غامضة، ميتة وُجهت تهمة التسبب فيها إلى النصارى.

كان الناس بالمآت حول دار الشيخ وفي مداخلها وفي صحنها، مصطفين وطابورهم يمتد إلى باب البرج، وهي الغرفة الرئيسية لجلوس الشيخ وضيوفه. كان خارج الدار سيارتان من نوع دجيب. فالمناسبة مناسبة حضور الجابي الفرنسي المعروف «بصاحب الترتيب». والترتيب اسم الضريبة على الفلاحين، على أراضيهم وعلى مواشيهم وبغالهم وحميرهم وأشجارهم وعلى رؤوسهم الآدمية، استحدثت بعد أن ألغى النصارى جباية الزكوات والأعشار، لأن هذه على المحاصيل والترتيب على الآدمي وأدوات الإنتاج، ضريبة يعطونها سواء كان العام طيبا أو لم يكن.

كان الترتيب محنة للفلاحين، يحضر المكلف به، ويسمى المراقب، ومعه كاتبه، ويكون في ضيافة الشيخ المدة التي تكفي لإحصاء أملاك من هم في نظره من أهل القبيلة. والعادة في الشيوخ إكرام هؤلاء الموظفين ومن يحضر معهم بهذه المناسبة وما يشبهها.

خرج الوالد من البرج حيث الجلسة ليرى ولده الذي أُعلم

بمجيئه، فأدخله إلى القبة المجاورة، فهناك يتأهب المسخرون للإمداد بلوازم الأكل والشرب للضيوف، لأن العملية تمر بالنسبة لغير الفلاحين في جو الاحتفال. ينادى على الفلاح باسمه، حسب ما في القائمة، فيدخل فيصرح بممتلكاته وتكتب في السجل، والشاهد على التصريح هو مقدم الدوار (القرية) الذي يسكن به الفلاح، لأن هذا المقدم هو الذي يعرف كل شخص وما يملك، وويل له إن تستر على أحدا وحين يكون الفلاح داخل البرج يشهد جو الحفل الدائر، من إقامة الشاي واستعراض المأكولات، لأن تقاليد الضيافة، عندما يتعلق الأمر بالأجانب، مبنية على الاستعراض المبالغ فيه، اقتداء من الشيوخ بأحوال القواد، واقتداء من هؤلاء بأحوال الباشوات، وهكذا دواليك.

يدور عيش الفلاحين العادي في هذه الجبال على أطعمة بسيطة من الشعير والذرة، تبدأ بحريرة الصباح من الذرة وتنتهي بعصيدة الذرة أيضا في طعام العشاء، بينهما غذاء من الخبز ومرق فيه خضر مطبوخة في إدام، ودشيش على شكل كسكس في طعام ما قبل الغروب. وأدسم ما في هذه المأكولات الحليب والسمن لمن يملك بقرة حلوبا أو بقرتين.

لقلة انتظام الأمطار في ذلك العام كان الحال أقرب إلى المسغبة منه إلى حالة الإصابة (الصابة). كان أحمد يرى من القبة ما يجري في صحن وسط الدار حيث الفلاحون جلوس في الانتظار.

رأى أحمد طوابير الجبليين القادمين إلى القرية في أسمالهم، فأهل قرية الشيخ أحسن حالا على كل حال. كان الفلاحون في الصحن يتهامسون ويتندّرون في كلامهم الخافت للتخفيف عن ضيق

أنفسهم بكل ما أُوتوا من أساليب السخرية القاتلة المنبعثة من حالهم البائس. وكان تندرهم يدور بالخصوص على كلب يرونه أمامهم، وهم يتعجبون من كونه لا يخاف مثل كلابهم، إذ استوى على مؤخرته يتفرس فيهم، وقد يقترب ويتشمم رائحة عرقهم بلا خوف ولا تهيب. إنه كلب مراقب الترتيب، كلب بني اللون، في عنقه سلسلة لماعة من معدن كالفضة تطوقه مثل قلادة الزينة، كلب سمين ممتليء، لكنه مكتنز اللحم، وعلوه قدر علو اثنين من مطلق الكلاب التي اعتاد على رؤيتها هؤلاء الفلاحون، كان كلامهم عن الكلب قد تحوَّل إلى فرجة أذهبت عنهم همَّ الوقوف والانتظار أمام المراقب لأجل حساب ممتلكات تقدر مساحاتها في معظمها بالأشبار أو بالأمتار. فرجة أثارها وجود الكلب وسلوكه في نفوسهم حتى تداعت لها تعليقاتهم. فموقع الكلاب في عرفهم مزارب الغنم، إن لم تخرج مع الرعاة إلى الخلاء، ولا يقترب كلب من آدمي إلا لقمه حجرا، والإناء الذي يأكل فيه الكلب يغسل سبعا إحداهن بالتراب قبل استعماله لأمر طاهر كالوضوء، وها هو كلب المراقب يتطاول على هؤلاء الفلاحين في وسط دويرة الشيخ متقلدا بسوار لا يعرف الجبليون مثل لمعانه إلا في الفضة الخالصة التي توضع في عنق العروس عند خاصتهم. كان كلام الفلاحين بأصوات خافتة يدور على الخصوص حول إقدام الكلب على ملامسة الفلاحين الحاضرين بمقدمة فمه وهم قعود في الصف، واحدا واحدا، فحملوا تصرفه على ما يعرفونه من سلوك كلاب الدركيين النصارى القساة ومهارتهم في اكتشاف المجرمين بالشم، فكان الفلاحون الذين يعرفون أسرار بعضهم البعض يغتنمون فرصة هذا التمحيص الكلبي ليستعرضوا على وجه التنكيت والتسلية الممضَّة

ما يمكن لكلب المراقب أن يعلمه عن كل واحد من خلال هذا الشم الوقح المتفحِّص.

بلغت السخرية مداها عندما توقف المراقب عن عمله لتناول الغذاء، فبدأت الصحون تخرج من الغرفة التي جلس بها أحمد، لأن لها بابا أخرى تفضي إلى المطبخ، ليجتاز بها وسط الدار حملتها من المتسخرين، وليدخلوا بها إلى البرج حيث نصبت المائدة للمراقب والشيخ ومن معه من الأعيان، أطباق الشواء والدجاج المحمَّر بالحامض، وأطباق اللحم بأنواع الخضر وأخرى باللوز المقلي، وأطباق الفلفل الأخضر المحشو باللحم المطحون الذي لا يدري كيف أُدخل إليه، وأطباق الكسكس باللبن في الأخير.

لما قام المتسخرون بإخراج بقايا الأطباق جاء مخزني المراقب (حارسه) وسائقه، فأخذ الأول يختار من ألوان اللحم عظاما مكسوة يلقي بها إلى الكلب. فيقبل عليها الكلب بعد اشتمامها وكأنه يتخير منها بعضا ويعاف البعض الآخر، والفلاحون ينظرون وروائح التوابل في الطعام تفوح ومنظر ذلك الحفل الزاخم من المأكولات يكاد يذهب بلبهم ويستفز لعاب أشداقهم، وأطراف الأفواه المتحلِّبة تكاد تحاكي الكلب وإن بالعض على الهواء. بلغ التوتر مداه فاندفع أحد الفلاحين وصور هيئة الكلب برجله ويده وتقدم فأقعى، وصار يطلق صوتا يقلد به نباح الكلب، عسى أن يستحق مثله ذلك الإطعام بالمكسو لحما من العظام وهو يقول : «حبذا لو كان الواحد منا كلب المراقب!».

ظهرت حكمة الشيخ عمر في ما لا يحصى من المواقف التي كاد فيها أن يصيب الشر أحد إخوانه (محكوميه) أو جماعة من قبيلته،

فتصرف بما يجعل الأمور تنتهي إلى حل يبعد البأس ويطمئن القلوب، ومن تلك المواقف التي كادت أن تحدث شقاء في حال القبيلة واقعة إسلام طفل من ولد اليهود في قبيلة جبلية تابعة لحكم الشيخ، تقع في أعلى الجبل المجاور، من جهة الجنوب، تسمى أزَّاضن، وقراها ممتدة على جنبات الوادي الذي يحمل نفس اسم القبيلة.

كان في كل قرية من معظم القرى القديمة في جبال الأطلس الكبير طائفة من اليهود، وتستحق أن تُنعت بالطائفة لأنها متماسكة في عوائدها مطمئنة في شعائرها الدينية التي يتعلمها أبناؤها في بِيَع (معابد) صغيرة مطلية الجدران بالجبس، موقرة من لدن المسلمين. وإذا كانت مساكن اليهود قائمة متجاورة في ركن من القرية، وهي بإِمَرِغْنْ في القرية المسماة أكَرسورا، فإن المسلمين واليهود في سائر أيام القرية يعيشون حياة مشتركة عادية، فاليهود يشتغلون في العادة بالتجارة، ولاسيما تجارة المنسوجات في الأسواق، كما يتعاطون شراء الغلات في أشجارها، شركاء في الغالب مع مسلمين، أو يتعيشون من الصناعة، ولاسيما الخرازة والحدادة وصناعة الحلي وصناعة البنادق، في العهد السابق على الحماية، وصناعة أسرجة الخيل والبغال والحمير، أو خياطة الأفرشة، ولاسيما الطنافس والمخاد في دور من هم ميسورون من المسلمين، وهم قلَّة قليلة يطوفون عليهم في القبائل، ويدخلون بتلك التعلة بيوتهم ويطَّلعون على أسرارهم. ولم يكن اليهود يستثنون من الاشتغال بالفلاحة كمزارعين، ولكن اشتغالهم بها كان في حالات نادرة، وأهم من الاشتغال بالفلاحة لديهم امتلاك الماشية وتربيتها بالرعي.

لما خرج الشيخ إلى باب داره قبل الشروق، لفصل النزاعات في ذلك اليوم، وجد أمامه كبار جماعة قرية من قرى أزَّاضْنْ تسمى تيزي، جماعة من المسلمين وجماعة من جيرانهم اليهود، ومع كل فريق هدية، وكان مع اليهود امرأة تبكي وتصرخ وتتطارح على حجر الشيخ، ومع جماعة المسلمين طفل قارب البلوغ.

عرض المسلمون قضيتهم وقالوا إن الطفل اليهودي الذي جاء معهم، كان من عادته، كغيره من أطفال اليهود، أن يختلط بأولاد المسلمين في المروج التي بجانب واديهم (إكّدلان) لرعي المواشي، وأنه في اليوم السابق نطق بشهادة الإسلام واحتمى بالمسلمين ولم يقبل العودة إلى أهله، وأنهم لا يريدون أن يُسمَع عنهم في القبائل أنهم منعوا الحماية لهذا الولد الذي لم يحرضه أحد ولا أغراه على ما أقدم عليه.

وعرض اليهود قضيتهم وقالوا إن أبناء المسلمين راودوا الطفل اليهودي على فعلته، وسبب لجوئه إلى المسلمين أنه خاف من عقاب والده على سرقة شيء من الجيران، وطائفته تريد أن يعاد إليهم الولد ولو أدى ذلك إلى حكم الشيخ بخروجهم من البلد، وأنهم لا يريدون أن يلصق بهم عار تنكر ولد من بني جلدتهم لدينه.

كانت الأم اليهودية تبكي وتنتحب وتتوسل، بينما كان الرجال الذين حضروا معها يحاولون تهدئة روعتها وحملها على التزام الأدب المطلوب في حضرة الشيخ والاكتفاء باستعطافه وانتظار حكمه الفاصل.

أمر الشيخ بإدخال الولد إلى داره وأمر للجماعتين بالدخول إلى جانب من رياضه لشرب الحريرة وأكل التين المجفف في انتظار

وصول الطالب المشارط في المسجد، وهو جليس الشيخ، ومشاوره صاحب حظوة عنده، لعلمه وحسن تبصره.

حضر الطالب وأطلعه الشيخ على النازلة، ففكر وقدر وقال:

- الولد في حضن أمه إلى أن يبلغ.

طلب الشيخ الجماعتين وقال لجماعة المسلمين:

- هل أنتم من قلة بحيث تحتاجون لولد يهودي ليكثر جمعكم؟ أعيدوا لهم ولدهم كي تكف هذه اليهودية عن عويلها، أليست اليهودية في قبيلتكم ترضع ولد المسلمة؟ ما هذا الذي جعلكم تقعون في لعب الصبيان، انصرفوا إلى مشاغلكم!

قال رجل جريء من جماعة المسلمين:

بارك الله فيك ياشيخنا، ما دفعنا لحماية الولد اليهودي إلا خوفنا من أن يعيرنا غيرنا من القبائل بعدم حماية مستجير.

أما اليهود فقد أرادوا كلهم أن يتطارحوا على تقبيل رجل الشيخ، فمنعهم صاحبه الواقف عند رأسه.

انصرف اليهود مبتهجين راجعين من طريق غير الطريق التي رجع منها المسلمون. علم الشيخ بذلك التنافر ولم يعجبه، وشتم الفريقين من خلفهم لأنه توجس أن يتجدد الفساد ويتعمق الشقاق بينهما.

لم يكذب ظنه لأن اليهود قرروا الرحيل من تلك القرية، وبلغ إلى الشيخ أنهم كانوا قد نووا الرحيل من قبل لسبب لا يعلمه أحد. لكن الولد المتنازع عليه خذل أهله عند مبيتهم في قرية على طريق السهل، ففر واختبأ في حظيرة، وظل أهله يبحثون عنه إلى أن سمعوا أنه عاد إلى القرية الأولى.

وصل أهله الراحلون إلى قرية أمزميز حيث طائفة يهودية كبرى، وحماهم هنالك الحاكم الفرنسي ولم يستطع الشيخ حتى مساءلتهم عن موجب الهجرة، وظلوا يعملون بكل الوسائل عن بعد لاستعادة الولد، وحدثوا أن الأم لم تكف عن البكاء إلى أن رحل جميع اليهود إلى وجهة على شاطئ البحر، أما الولد فكبر كغيره في بيئته.

في خريف عام ثمانية وأربعين، تحلق خدم الشيخ عمر من رعاة ومتعهدين، ومعهم صاحب مفتاح مخزن العولة في دار الشيخ ومسخران اثنان وصاحب أواني الشاي. كانوا جميعا حول موقد نار في جانب من الردهات الملحقة بالدار، يطلبون الدفء من قر الطقس بين العشاءين في انتظار طعام العشاء، يتجاذبون أطراف الحديث المحشو بالغمز واللمز وتبادل الأخبار وإجراء قساوة القدماء على من هم أحدث منهم أوأصغر، في جو لا يخلو من العنف القولي بل وحتى الجسدي الذي يتم تصريفه بين أفراد هذا الرهط، مغلفا بعبارات المزاح والشماتة. كان حطب شجر البلوط في الموقد أمامهم يتكلم وهو يحترق جمرا أحمر تتطاير منه شرارات عندما تمتد أيدي المصطلين من هنا وهناك لتقليبه وتجديده من مخزن قريب، ولظاه يصل إلى وجوه تتراقص عليها الظلال في ضوء الموقد، ولا ضوء غيره، فتزيد الملامح عنفوانا وأسرارا.

كان مع الجماعة حول الموقد رجل يهودي في الخمسين من عمره اسمه باروخ. حضر من قرية بعيدة ليعيد خياطة فراش الشيخ وطنافسه وخمائله، كما هي عادته مرة في كل عامين. وقد اصطحب معه بنته التي جاوزت البلوغ، توفيت عنها أمها وليس لوالدها قريب

يأتمنه عليها في مثل هذا الغياب. وهو يعرف أن البنت ستلقى من أهل الشيخ وعياله عناية يتمناها ليتيمته. كان اليهودي في اليوم الثاني من إقامته، وهو يعرف كل حاشية الشيخ ويعرفونه ويجاملونه.

كان باروخ من جملة اليهود المتعرقين في هذه البيئة الأمازيغية بكل أبعادها الثقافية، فلا يعجزه أن يشارك في اللفظ الدائر ويعلق و «يضرب الكلام» كما يقولون، أي يشارك فيه ويغالب حتى إنه قد لا يجد من يفحمه. لا يختلف عن جلسائه في تشربه لأدب تلك البيئة ولغتها إلا بطريقته الخاصة المعروفة في التلفظ بالكلمات.

كان باروخ على غير عادته متوترا في تلك الليلة، وظهر ذلك لجلسائه في شروده بين الحين والآخر، يتكلم ويتوقف عن الكلام ثم يعود ليستدرك ويتابع الكلام، وأخيرا ظهر أنه استثقل الاحتفاظ بخبر مَّا في صدره، ضاق به ولا يطيق كتمانه، ولكنه خشي أن يبوح به، فقال يخاطب كبير خدم الشيخ:

- سيدي ابراهيم! أقولها أو لا أقولها ؟

فقال إبراهيم: ماذا تريد أن تقول أيها المخرِّف؟

فتراجع باروخ واستأنف الانخراط في الكلام العادي الدائر، مسوقا إلى جهة أخرى.

وبعد هنيهة عاد اليهودي ليقول مثل قولته السابقة:

- أسيدي ابراهيم، أقولها أولا أقولها؟

ولما كررها ثلاثا أخذ إبراهيم بطرفي سلهام اليهودي بشدة وضيق على عنقه من خلال فتحة جلبابه وقال له:

- قل ما تريد أن تقوله يا شدق البغل، إني لا أخفف عنك حتى تقول!

فإذا باليهودي يتشجع ويقول:

- نحن اليهود!

- ما ذا جرى لكم أنتم اليهود؟

- صار عندنا سلطان.

- كيف صار عندكم سلطان، وأين؟

- غلبنا المسلمين ودخلنا بيت القدس.

عندما سمع إبراهيم ما باح به اليهودي مد يده إلى الموقد واستل قطعة حطب رأسها كالجمر وهمَّ بأن يضرب بها اليهودي، فتداركه الآخرون وحالوا بينه وبينه.

صرخ اليهودي وارتفع عويله وانقضَّ عليه الحاضرون لحمايته خوفا عليه من كبيرهم الغاضب، وما كادوا يتبينون ما حدث حتى رأوا أمامهم ما لم يخطر ببالهم ولا تصوروا أن سيحدث يوما من الأيام، رأوا الشيخ عمر بشخصه يخرج من داره بثياب جلوسه في الليل وهو لم يجد حتى الوقت لانتعال حذائه، فقد وصل عويل اليهودي إلى أذنه، ولما وقف أمام ذلك المشهد سل بدوره قطعة عن الحطب من الموقد وضرب بها إبراهيم، ولم ينفع إبراهيم، وقد ضربه الشيخ، إلا فراره من الدار واختفاؤه في الخلاء المظلم.

راع الحاضرين أن يروا الشيخ يتصرف بذلك العنف دفاعا عن اليهودي وضد شخص وقور خدمه أزيد من خمسين عاما، لم ينهره فيها يوما من الأيام، بل راعهم أيضا أن يحرص الشيخ على إدخال اليهودي على التو إلى داره ليتيقن من حاله وسلامته ويدلله. وبالفعل فقد أدخله لا للتخفيف من روعه في تلك اللحظة فحسب بل ليخفيه

أياما إلى أن تيقن أن آثار ما حدث له من صدمة قد اندثرت حتى من ذهنه. وبعد أيام رجع اليهودي وابنته إلى بلده بهدايا، علاوة على ما استحقه من أجر على الخدمة التي استدعي لها.

لم يعرف أهل دار الشيخ ولا أحد من حاشيته سر تصرف الشيخ في هذه الحادثة، ولم يعرف الشيخ نفسه ماذا أراد اليهودي أن يقوله عندما أثار حفيظة إبراهيم بقوله إن اليهود غلبوا المسلمين، ولا يعرف أحد في إِمَرِغْنْ أين يقع بيت القدس، وإن كان فيهم حجاج ساروا على أقدامهم، لأداء الفريضة في الحجاز مرورا بالشام. لكن الشيخ عندما سمع عويل اليهودي وقفز إنما اقترن ذلك الصراخ عنده بما سمعه منذ بضعة أسابيع من فم الحاكم الفرنسي، فقد استدعى هذا الأخير سائر شيوخ القبائل الجبلية وقال لهم: «احذروا أن يصيب أحدا من اليهود الذين في ولايتكم أذى على أيدي المسلمين، فإذا وقع شيء من هذا في حكم أحدكم فسنسأله ونؤاخذه به». لكن بعض المتنبهين ممن سمعوا بقضية باروخ التي بذل الشيخ الجهد في التكتم عليها، قالوا: يعيش بيننا هؤلاء اليهود ولا نعرف ماذا يريدون ولا كيف تأتيهم الأخبار من بلاد بعيدة، أما أن يكونوا قد غلبوا المسلمين فهذا محض ادعاء!.

ودخل عام تسعة وأربعين. كان الولد يكبر في السن والوالد يزداد تحيره بين احتضان ابنه دون كثير احتكاك بأقرانه وبمجتمع الأولاد عامة، لأن الاختلاط يتم دون عزل للصغار عن الكبار، وبين أن يترك له مزيدا من المخالطة معهم، ولا سيما في فترة ما بين حصة القراءة في الكتَّاب في الضحى، وبين حصة ما بعد الظهر. وعادة الأولاد فيها التيهان في البساتين بين تصيد الطير ومفاجأتها في

الأعشاش على الأشجار، أو نصب المصايد لها، إما مصايد حديدية تدفن في الأرض أو مصايد محلية تقام باستعمال عود مثقف ينثني دون أن يتكسر وفي رأسه خيط، وبين اللعب بصنع أرحية من عود الدفلى بأوراقه الثلاثية، على جوانب السواقي، وبين صنع سيارات بعجلاتها من قطع الصبار، وبين تعلم الرماية بكرة من أسمال يستهدف بها عود منتصب يرميه فريقان على بعد مسافة متساوية من جهتين، أو بين الاغتسال عراة في مياه المجاري والمستنقعات والتعرض للهواء للانتشاف من قطرات الماء بترديد عبارات كهاته:

أَدُوم أَدُوْم أتمقيت ن باعلا   غدُّو وازار ن باعلا

تقطري تقطري يا قطرة أبي عبد الله   تحت شجرة تين أبي عبد الله

ثم بعد ذلك يأتون بكلام فيه شيء من التفحش.

أو يقفز بعضهم على ظهور البعض الآخر كحواجز وهم منحنون، أو يتسللون إلى البساتين ذات الجدران العالية إن كانت بها أشجار مثمرة عندما يغيب حراسها. يتسلون بهذه الألعاب وغيرها. ويخللون تسليتهم بما تمليه عليهم عقولهم المشيطنة. وفي أثناء اللعب والاختلاط يمارس بعضهم على بعض صنوف التغلب والضغط النفسي والإرهاب الخلقي، فيكونون أحلافا، ويتراشقون بالتهم ويتنابزون بأنواع النقائص.

كان أحمد يعاني من هذه المخالطة، ولكنها كانت مغرية له بملاهيها وحريتها، كان لا يطيق قساوة الأصدقاء، ولكنه ما لبث أن اعتاد على غيرتهم ومكرهم وعلى أن يقلِّبوا له ظهر المجن، كما اعتاد على بعضهم وهم يتزاحمون على منافع يجنونها من التقرب إليه، ومنهم من يتعمدون أن يشعروه بأنه، وإن تفوق عليهم في بعض الأمور، ليس بكامل العدة المطلوبة لولد عادي من الأشقياء، وكان

هو يحرص على أن يظهر بمظهر يجعله واحدا عاديا من جملة أقرانه، ولكنهم من جهتهم لا يترددون في استغلال نقط ضعفه، ومنها أنه سريع الوعود، أسيرها.

كان في الأولاد بنو عمومته، وهم متضامنون معه مفتخرون، لولا أنهم قد يتحالفون ضده حسدا على مكانته من والده، وكان منهم من تظهر تصرفاتهم معه انعكاسا لمشاعر المنافسة بين العائلات أو آثارا لضيم التفاوت في الفقر.

ومن وقائع هذه المخالطة ما يحدث في كل سنة عندما يحين موعد احتفال الأولاد بعاشوراء، على نمط مخصوص، يقضون فيه أياما خارج عائلاتهم. وكان الوالد يعتبر أحمد أصغر من أن ينخرط في تلك العشرة، ولكن الولد ألح هذه السنة على والده حتى وافقه على ما أراد.

خرج مع الأولاد ليلة عاشوراء للطواف على دور القرية دارا دارا، يتسولون ليجمعوا اللحم القديد المتبقي من لحم أضحية العيد الماضي، يفترقون فرقا ويبدأون الطواف بعد المغرب، يدقون الأبواب ويقولون :

أكردلاس أشويح　　　أكرد إماك أنشرك

قديدة لحم أو قديدة أحشاء　　　اسرقها لأمك وتعال نتشارك

لا يرفض لهم أحد طلبا، وإذا جمعوا القديد تساهموا على عدد من الريالات، يأتي بها كل واحد مما خبأ من أجر الاشتغال في التقاط حب الزيتون أو غيره من الأشغال المؤجرة، يشترون بها كل لوازم العشرة من إدام وسكر وشاي وغير ذلك، ثم يقيمون الولائم في دار يفرغها لهم بعض من يمكنهم ذلك، فيقضون نهارين وليلتين في عشرة عزوبة.

وفي اليوم الأخير الذي هو ليلة بدر التمام من شهر المحرم يقيمون لعبة تسمى «لعبة الجمل»، وهي لعبة لا يُفشى سرها، بل يظل مكتوما لأنها تصلح لتأهيل الصغار لمكايد الكبار.

يتم التحضير للعبة الجمل بالبحث في الخلاء عن رأس جمل ميت، ولما كان الجمل نادرا في هذه البيئة فالهياكل العظمية المستعملة عادة في اللعبة هي رؤوس من جثث الأحصنة أو البغال أو الحمير. يثبت الأولاد اللاعبون الرأس على عصا غليظة، ويمثل الجمل من الأولاد يافع يوضع على ظهره تليس أو غيره، بحيث يخفي رأسه الآدمي وهو يقبض بالعصا التي في طرفها رأس «الجمل» وكأنه رأسه. يمشي «الجمل» ويتبعه كل الأولاد المشاركين في الحفل يتهافتون، والممثل للجمل يطلق صوته المزعج إذا كان ثائرا هائجا، ويمشي مشيته التي تدوس كل شيء أمامه. وفي وقت مًا من اللعبة يشتد غضب الجمل من الجمع الذي يتسنفره ويلتفت نحو الأولاد مهتاجا، فيهاجمهم والأولاد يجرون أمامه في اتجاه المكان الذي انطلقوا منه، خائفين مرعوبين، وعلى مسافة مًا ينتظرهم ولد اتفق معه الكبار المدبرون للعبة على أن يكون طرفا فيها، إذ رشحوه لأن يعطوه عصا غليظة يتولى استعمالها في ردع الجمل الهائج، ومدبرو اللعبة يكونون قد أوهموا جماعة من الأولاد الأصغر سنا بأن المحظوظ من بينهم هو من يتلقى العصا ليقوم بتلك المهمة، مهمة ردع الجمل، وهكذا يتلقاها ولد متفق عليه من جهة أصحاب المكيدة من الكبار، يكون ذلك في ضوء القمر. لكن الولد المرشح ما أن يقبض العصا في تلك العجالة حتى يدرك أنها من الجانب الممدود له مطلية بالغائط، فيفهم توّاً أن المؤامرة قد دبرت ضده، فلا يدرك السر حتى يكون ضحك الآخرين قد انفجر وتعالى حوله من كل جانب. وهكذا يفهم

المغرر به أنه سيكون موضوع السخرية في الحين وعلى امتداد عدة أيام.

حضر أحمد تلك اللعبة، ولم يكن الضحية، لأن جماعة الأشرار يخافون من عواقب إهانته على ذلك النحو. إثر ذلك الجمع وبعد أيام قليلة أصيب بحمى، والأدهى من ذلك أن والده اضطر إلى السفر والولد تحت العلاج. سافر الوالد في تسخير من قبل عمه الشيخ إلى أمزميز حيث دائرة الحاكم، لأسباب تهم التعامل مع الحكومة.

حلَّ موعد الموسم المعروف بموسم مولاي إبراهيم، والموسم بهذا المعنى الاصطلاحي المحلي هو تجمع سنوي لزيارة يقوم بها عدد غير معتاد لضريح رجل ميت كان للناس اعتقاد في صلاحه في حياته. وتعقد في هذه المناسبة سوق لتبادل السلع ومختلف أنواع البيع والشراء والمعاملات، والمكان المنعقد فيه هذا الموسم حول ضريح هذا الشخص المبجل من أحفاد مرابطي أيت أُمغار المعروفين جنوبي أزمور، يبعد عن قرية أحمد بما يقرب من ثمانية أميال، وموضعه تقام به سوق يأتي إليها الناس من قبائل السهل العربية في منطقة الشاوية ودكالة على الخصوص، إذ لهم اعتقاد كبير في صاحب ذلك الضريح، ولا سيما من جهة حفظ زروعهم من عبث الطير. تدور حول الموسم حكايات أخرى تتعلق ببركات منسوبة لصاحب الضريح، ومن جملتها الدعوة المستجابة للنساء اللائي يطلبن عنده الزواج إذا تأخر أو النساء اللائي يشكون العقم إذا مضت أعوام على الزواج ولم يأت منه حمل، فيقال إن هذه الأماني تتحقق، وهذه الأمراض تختفي بالاغتسال، في الماء المار من تحت مطحنة توجد تحت جبل الضريح، هناك قرب النهر، تسمى «أزركَ ن مولاي

ابراهيم». وغالبا ما يرى القاصد أو القاصدة بمثل تلك النوايا نبوءة أو منامة قبل الرحيل.

كان ذهاب الأولاد لحضور الموسم حدثا مشهودا، حيث كان ينزل من جاؤوا من إمرغن عند شخص تعود على استضافتهم للإقامة والمبيت، هناك يستمتعون بالإختلاط مع عوالم من أهل الجبال والسهول غير مألوفة، وحيث يتمتعون بفرجة عديدة ويركبون في النواعير بريالين ويعودون إلى الأهل بالإسفنج و الحمص.

كانت في دار أحمد أَمَةٌ اسمها مباركة، كانت على وشك أن تتجاوز السن المعتادة للزواج. وفي غياب الوالد في تلك المرة، رأى أحمد النساء في الدار يُلبسن هذه الأمة ثيابا حسنة ويزينها ببعض الحلي ويشيعنها في باب الدار حيث سافرت إلى «موسم» مولاي إبراهيم، وليس من عادة نساء عامة القرية ولا خاصتهم الذهاب إلى هذا الموسم، فما بالك بامرأة من بيت أيت واحمان. سافرت مباركة ولم تعد، لأنها التقت هناك من تزوجها وذهب بها إلى الدار البيضاء، حسبما وصل خبرها بعد سنين. أخفى النساء الحقيقة عن صاحب الدار، وقلن إن الهاربة لم يتفطن إلى خروجها أحد، وهُنَّ في الواقع إنما أشفقن من حالها، وهي كالكمياء المعطلة. والواقع أن إشفاق النساء على هذه الأَمَة يرجع إلى خوفهن من اختلال عقلها بكثرة التشوق إلى الزواج، فقد رأينها كل يوم تصطاد الحشرة المسماة عندهم للّا عزيزة، وهي المسماة بالعربية الدعسوقة (Coccinelle)، وهي حشرة جميلة لون ظهرها أحمر قرعوي عليه نقط سوداء، تأخذها بيدها ثم تطلقها لتطير في الاتجاه الذي تتوقع أن يأتيها منه العريس. فهذا معتقد بنات تلك البيئة، الاسترشاد بتلك الحشرة على هذا النحو؛ أما الاسم الذي أعطي لها «للّا عزيزة»، فهو اسم صالحة عاشت في العهد المريني بجبال قريبة من القرية بقبيلة سكساوة. فهي

على هذا الأساس ملجأ كل بنت لتعرف من أين يأتي العريس، تنوب عنها هذه الحشرة المشتركة معها في الاسم. كان هؤلاء المتآمرات من النساء يعرفن أن التجمع الموسمي يأتي إليه ذكور من عرب السهل يحملون إكسير الفحولة بحثا في كنف صاحب الضريح عن إناث ليكن لهم الزوجات والخادمات في آن واحد.

وكان المسخر الأسمر المسمى بلالا في دار أيت واحمان يقول عن الهاربة، لو بقيت الناكرة للجميل لاتخذتها زوجة ثانية ولأعطيتها ما يثقل خفتها من الأولاد. كان بلال هذا قيما مكلفا بأواني الشاي خاصة، وهو شبه مقعد، يمشي خانعا برجل، ويرجع عطبه إلى الوقت الذي كان فيه مسخرا من جملة مسخري أسرة شيوخ في الجبال يسمون إلغمان. ضبطوه يسرق ميرة من أحد مخازنهم، وكان مؤتمنا على المخزن، فأخذوه إلى سطح أعلى برج في حصنهم وألقوا به من هناك. وفي أسفل البرج جرف عال، وتحت الجرف مزبلة، وبجانبها طريق.

مر من هذه الطريق أحد أبناء أيت واحمان فوجد بلالا يئن في المزبلة وقد تكسرت رجله وافتك وركه، فحمله على فرسه إلى إِمَرِغْنْ ، وشفي الأسود على ذلك البطلان العضوي، ولم يعد يستفاد من مهارته إلا بما يناسب تعويقه من تعهد آنية الشاي وغسلها وصقلها، فتزوج وولد له، ومن أولاده من انتهى في خدمته إلى الشيخ عمر، وهما فاتح وفاطمة، ومنهم مبارك الذي انتهى إلى خدمة السي محمد أو بورحيم في تاوريرت. وقد توفيت أم أولاد بلال وتزوج بعدها مسخرة في الدار اسمها جميعة، وكان كثير المناهرة لها، ولكنها على ما يبدو تحملته لخصال، منها شهرته بالاقتدار على أداء واجبه الزوجي.

لكن جميعة دخلت هذه السنة في خدمة محظية الشيخ، الزوجة

الثالثة، التي جاءت من حريم قائد القبيلة، واسمه الحاج الحسين. طلقها ليفرغ المكان شرعا حتى يرد إحدى قريباته. وقد نُمي إليه أن الشيخ عمر تمنى أن يحظى بإحدى أرامل القائد السابق المتوفى، واسمه محمد أوبراهيم، فما كان من القائد الجديد إلا أن تنازل له للضرورة المذكورة عن زوجته هذه، كانت من مجرد جميلات بنات القبائل، من قرية تسمى بوتُّور، وقد علم أنه سيحسن إليها. والواقع أنها وقد تنزّلت من حريم قائد تنضبط عنده الأمور بالإكراه، إلى دار شيخ مغلوب على أمره، قد وجدت نفسها في موقع يتيح لها تصريف أنواع مكر الحريم المعهود في دور القواد، وأدخلت عوائد غير مسبوقة في دار أيت واحمان، ومن تفاصيل ذلك أنها جاءت بمساحيق رومية للتزين تختلف عما يستعمله النساء من الألوان المستخرجة من قشور الأشجار وأوراقها. ولكن أصرخ ما جاءت به من السلوك الغريب هو مزاجها الهجومي الذي كان الشيخ يؤدي ثمن تهدئته وتعديله بوسيلة وحيدة هي تلبية طلبات امرأة ليست في خفر الأخريات من حيث خفض الصوت ولا الخوف من الفضيحة. احتاجت الزوجة الجديدة إلى امرأة حاذقة تسخرها وتتواطأ معها في أمور ضرورية لسيطرتها في هذا الوسط، وكانت الزوجة هذه، واسمها رقوش (غير رقوش بنت الشيخ الحسين) تظهر للآخرين والأخريات نموذجا مما تقدر عليه من سلاطتها عندما تعلو بالسوط ظهر الخادمة إذا ارتكبت ما يوجب ذلك في نظرها، ولكن الخادمة تظل مطيعة لأنها صارت تتمتع بحماية المرأة المحظية لدى الشيخ ضد زوج الخادمة الشرس، دون أن تفقد ما تحتاجه منه، بل اكتشفت أنه لا يستغني عنها، وأن قساوته جزء من تعلقه بها، بل صار يبكي عند قدميها وهو المتعفرت في معاملتها بالأمس القريب.

كان يقال عن رقوش، هذه الزوجة الثالثة للشيخ، إنها بالإضافة إلى جمالها وما تتقنه من الصنائع، كانت أمهر من ساحر، ويستدلون

بذلك بما وقع لها مع شخص كبر معاونا ومجالسا لأعيان أيت واحمان، وكان معهم منذ أن كان شيوخ ذلك العهد أطفالا. وكان الناس يعتقدون أن هذا الرجل أوتي قدرة على التعامل مع كائنات غير مرئية، لا يشك في ذلك أحد، والنساء، على الأقل، ليس لديهن شك في تمتعه بهذه القدرة، لأنهن إذا احتجن إلى أمور صغيرة أحضرها لهن بمجرد التقاطها، إذ كان يخطفها بيده من الهواء كأنه يتسلمها من يد من يأتي بها إليه وهو غير مرئي، ومن هذه الأشياء صناديق أعواد الثقاب، وكانت تستعمل فعلا حتى تنتهي، ومثل إبر الخياطة، وغير ذلك من صغار الأشياء. وكان يقول إن تلك الأشياء الصغيرة تُسرق، ولا يجوز له أن يطالب المتعاملين معه من «الجن» بسرقة أمور ثمينة، لأن في ذلك تضييعا أكبر لمالكين أبرياء.

كانت رقوش لا تحب هذا الرجل لأنها علمت أنه تكلم فيها بأمور غير محمودة ظن من سمعها أنها من اطلاعات الجن التي تأتي الرجل ولا نقاش في صحتها. وفي يوم من الأيام، وكان عند الشيخ ضيوف للإفطار الذي بين حريرة الصباح والغذاء، وكانوا من أصدقائه الموقرين، أرسلت رقوش إلى «صاحب الجن» هذا، تطلب منه أن يسلي ضيوف الشيخ ببعض صنائعه الخارقة للعادة، فظنها صادقة عارفة بنية الشيخ برغبته في ذلك، لأن صنائعه تسلي الجميع ويحبون أن يشاهدوها، ولكن لا يجوز لرجل في وقار الشيخ أن يقدم طلبا صريحا مباشرا لاستحداث مثل تلك الخوارق.

كذلك ظن «صاحب الجن»، فرضخ لطلب المرأة، وحمل طاجينا (صحنا من الخزف) إلى الضيوف، وفيه من المطبخ رغائف مخرقة مدهونة بالسمن والعسل، من نوع الرغيف الذي هو في رقته وانتظام ثقوبه وحلاوة ذوبانه في الفم ذو جودة لا تعرف لا عند أعيان البوادي و لا عند أعيان الحواضر، إنما هي من صناعة إماء السلطان

ومن في حكمهن. هكذا كان نساء دار الشيخ يدعين بالنسبة لعديد من رفيع المأكولات التي كن يفتخرن بإتقانها. فلما وضع الرجل الإناء وسط المائدة ورفع غطاءه لم ير الجالسون حول المائدة الرغائف كما كان يتوقع، وإنما رأو، ورأى الشيخ معهم، جيشا من الخنافس يتحرك بعضها فوق بعض وسط الإناء، فتواروا وتقززوا، وعبروا عن الفزع الضاحك، وأعاد الرجل الغطاء ورفعه فإذا الطاجين مليء بطبقات من الرغيف الرائق الذي وُضع فيه أصلا.

ضجَّ الشيخ ولعن الرجل وقام يسبه ويستنكر مزحته القذرة، وحلف عليه بطلاق زوجاته إن هو أقام بعد ذلك ولو يوما واحد في جماعته.

أرسل الشيخ إلى صانع الإسفنج في القرية، وأحضر منه ما يعوض الأكل الضائع، وكان هذا الإسفنجي قد مدد زمن اشتغاله ذلك العام لكثرة غلة الزيتون ورواج المال عند من يملكها ومن يشتغل في نفضها من الأشجار باستعمال العصي، ومن يربح من التقاطها، ومن يعتاش من التسول لجمع صدقات منها، ومن يشتغل بحميره في نقلها إلى المعصرات المحلية أو إلى التجار الذين يضعون الميزان ويشترونها لمعاصر المدينة، ومعظمهم في شراكة بين المسلمين واليهود.

في فصل جمع ثمرة الزيتون تزدهر القرية، ولا تجد ولدا من المراهقين ولا بنتا من المراهقات إلا وفي يده أو يدها قدر من المال، ومعظم ذلك المال الذي يقع في أيدي الأولاد يذهب في شراء الإسفنج، وفي اللعب، وفي شراء بعض اللُّعب. تزدحم حوانيت البقالين حيث يلعب الأطفال اللعبة التي تسمى «بلعبة الإبرة»، بحيث يتساهمون، اثنان أو أكثر، في شراء وزن عشرين أو ثلاثين حبة من التمر، ثم يقوم أحدهم بوضع شوكة في تمرة بحيث لا تظهر ولا يطلع

على موضعها غيره، يتحلق المشاركون حول التمر فيلتقط الواحد تمرة ويأكلها ويلتقط الآخر تمرة، فإذا أخذ أحدهم التمرة التي فيها الشوكة، مخبأة، يقول له الذي هو عليم بها : أكلتها! فيكون عليه أن يدفع مالا لشراء نفس القدر من التمر، وإذا أكل الملاعب، فردا كان أو جماعة، كل التمر دون التمرة التي فيها الشوكة كان على الذي اشترى أولا أن يدفع مرة أخرى.

موسم جمع غلة الزيتون في القرية موسم كسب وأهازيج ولقاءات وروائح عطرة ومواعيد وعطاء وفيض. وهو من عطاء القدر. لأن هذه الغلة لا تصلح إلا إذا نجت من كثير من الجوائح المحتملة على امتداد السنة، إذ يمكن أن تُفسد نوارتها أنواء برد الشتاء ورياح الربيع وضباب الصيف الخانق، فإذا سلمت من كل هذا وطابت في كل سنة من اثنتين أو ثلاث، أعطت وأرضت.

موسم يمتد على طول أيام جني التمرة في آخر الخريف ومدة من البيع والعصر في فصل الشتاء، ولكن القرية تعيش على إيقاع غلة الزيتون منذ أواسط فصل الصيف، إذ يبدأ بيع الغلة بنصف ثمنها، وحبوبها الخضراء لم تكتحل بعد. والمتقدمون للشراء معروفون من تجار المدينة، مسلمين ويهودا، يطوفون على أشجار مملوكة لعائلة معينة فيقترحون أثمانا. والعائلات التي تضطر إلى هذا البيع المسبق هي التي تحتاج إلى المال، أي التي تستهلك أمورا لا تنتج طبيعيا من موارد القرية، العائلات التي تبحث عن التميز في إرضاء الضيوف وعن الوجاهة في مظاهر مستجدة تختلف عن المعتاد في حياة الفلاحين. والواقع أن هذا الوصف كان ينطبق في المقام الأول على عائلة الشيخ، عائلة أيت واحمان.

لا بد من حراسة الزيتون منذ أوائل شهر شتنبر. تعين الجماعة لهذه الحراسة أفرادا يطوفون في الحقول نهارا وليلا. وتعد سرقة

حبوب الزيتون من عاديات الحياة عند المراهقين والشباب. والسارق إما أن يجمع في غيبة الأعين ما تساقط على الأرض من حبوب الزيتون بفعل الرياح، وإما أن يذهب ليلا فيتسلق الشجر ويملأ ما بين ثوبه وجلده بما يقتطفه بيده، ويكون قد تحزم على كيفية تمكنه من الرجوع بمقدار عبرة من الحبوب يلقيها بعد قطفها، وهو فوق الشجرة، من فتحة أمام صدره، فتحيط به عندما ينزل وكأنه حامل من بطنه وجنبيه وظهره.

يحكون قصصا عن هؤلاء السراق مؤلمة ومضحكة في آن واحد، ومنها حكاية تعد سبة لعائلة الشيخ، لأنها تهم أحد أقاربه الأباعد من المهابيل الذين لا تخلو منهم أسرة كبيرة. كان هذا الشخص فوق شجرة زيتون يقطف ما ليس له، عندما فاجأه متفقد ممن اشتروا أنصبة بعض الأشجار، وكان المتفقد يهوديا اسمه داويد. كان قوي البنية. استطاع اليهودي المتفقد أن يغري ذلك المتسلق السارق بأن ينزل إليه واعدا إياه بأنه سيتستر عليه ما دام من أقارب الشيخ. ولما نزل المتلبس قال له اليهودي متوسلا : إنه مستعد لأن يخلي سبيله إذا هو وافقه في وضع يديه في عقدة حبل غليظ مده نحوه، وذلك لمجرد أن يرضي كبرياءه كيهودي بأن يوهم نفسه بأنه يضع قيدا في يد مسلم ولو للحظة عابرة. ولما وثق به المسلم وأذعن له ونزل من الشجرة ووضع يده في حلقة الحبل شد عليه اليهودي الوثاق ثم أكمل غل رجليه بالطرف الآخر للحبل وحمله مثل قفة على ظهره إلى أن وضعه بباب دار الشيخ باكرا قبل أن يخرج هذا الأخير لمحل جلوسه في الصباح.

في يوم إعلان فتح نفض غلة الزيتون من الشجر يبدأ جميع المالكين من الطرف الأعلى حيث تبدأ حقول القرية، ويتقدمون بالسوية، إذ لو فُتح النفض في جميع الحقول لكانت الأيدي العاملة

غير كافية، أيد يتطلبها النفض بتسلق الأشجار، وهم البالغون من الذكور، والتي يتطلبها الالتقاط، ومعظمها من النساء، من مختلف الأعمار، والتي يتطلبها النقل إلى المخازن والمعاصر، ولو سُمح بالجني في جميع الحقول دفعة واحدة لوقع نفض أشجار من غير مالكيها، لأن الحراسة والتفقد إنما تشمل المناطق التي لا نفض فيها.

يباع بعض الغلة إلى أصحاب المعاصر العصرية في المدن، وينتهي بعضها إلى معصرة التعاونية التي أنشأتها الإدارة الفرنسية في أمزميز، مركز دائرة تلك الجهة، وكانت تفرض على الناس إيفاء حاجتها وقبول أثمانها، لذا كانوا يكرهونها كما كانوا يكرهون تدخل الإدارة باسم مصلحة الناس لزبر أشجار عمرها قرون من الزمن بدعوى تجديد عنفوانها. وفي بعض الأحيان كان يتقرر هذا الزبر الذي يعني حرمان الناس من الغلة عددا من السنين، كان يتقرر بإيعاز أعوان حكام يريدون الانتقام من أهل قرية معينة، هكذا كان اعتقاد مالكي الأشجار.

كان في إِمَرِغْنْ معصرتان تقليديتان للزيت تمتلكهما عائلات معينة، ويأتي من يريد عصر ثمرة زيتون مقابل نصيب معلوم لصاحب المعصرة. والمعصرة والمطحنة الدائرة بالماء هما الآلتان الكبريان في القرية، وكلاهما تحيط به معتقدات.

المعصرة ثلاثة فضاءات: مدخل مغطى لخزن حبوب الزيتون قبل عصرها، في مطامير محفورة عميقة. وفضاء مكشوف فيه تطحن حبوب غلة الزيتون في محاط دائري مبلط بالحجارة وسطه خشبة عليها رحى مركبة في خشبة عمودية وأخرى أفقية على الخشبة المنتصبة، يدير الرحى بالجر حمار أو بغل أو ثور يطوف خارج المحاط الذي توضع فيه حبوب الزيتون. وفضاء ثالث فيه قطعة خشبية هي أضخم ما في البلد يُنقب عنها بالكاد حتى إذا وجدت تقطع من

شجرة عمرت قرونا، ثم تحمل على أكتاف عشرات الرجال الأشداء بطقوس وأهازيج معينة، يوضع في أطول حجرة بالمعصرة ويوضع وسطها لولب يمكّن من رفعها ويسمح بانخفاضها المتدرج حيث تنزل بثقلها على قفاف مملوءة بحب الزيتون الذي دارت عليه الرحى في الفضاء الثاني، وهذا النزول للخشبة بثقلها هو عملية العصر الفعلية، بحيث ترى الزيت يسيل كاللجين المذهب إلى جفنة من الجبس، ومنها ينزل في صهريج مغطى، ومنه يستقى.

في ذلك العام ضاق الوالد ذرعا بانتظار دوره في المعصرة العائلية لعصر غلة زيتونه، فقرر أن يحمل كمية من حبوب الزيتون التي غلها على بغال وحمير لعصرها في معصرة أخواله في قرية تينزرت المطلّة من أعلى الجبل، وكان الأمر سيستغرق عدة أسابيع، فاصطحب معه ولده أحمد. وفي أثناء وجودهما هناك توالت الأمطار بلا انقطاع، وسقط مع الأمطار ثلج كثيف، وجاء معه برد شديد. لكن العمل في المعصرة لم ينقطع، وقد كان السي محمد سعيدا بأن يعيش معه ولده تلك المغامرة، فقد انقطعت الطرق بين القرى، وتحدث الناس عن فهد الأطلس ينزل إلى القرية في الليل فيختطف الأغنام من زرائبها، لأن كثرة الثلج جعلته لا يقدر على نيل حاجته من الفرائس بالتحرك في الغابة لاصطياد الحيوانات الوحشية المغلوبة له.

يستيقظ أهل القرية في الصباح فيرون الثلج قد زادت أكوامه وارتفع علوه على الأرض. ولتجمد ماء العيون والسواقي يأخذ المعاونون في المعصرة ثلجا ويضعونه في القدر فوق النار يذوب لصنع الحريرة، ويضعون منه في إبريق القهوة، وإذا انتهى وقت تناول الفطور يبدأ طابور نساء القرية من أهل الأحوال المتواضعة، تأتي المرأة في قصعتها أو مثردها (إناء الثريد) بالرغائف أو بالدشيشة أو الكسكس من الشعير أو الذرة أو القمح، تطلب الدهن بالزيت من

المعصرة، فيجاب لها تلقائيا بصب مغرفة من الزيت على طعامها، وتسمى تلك العملية بـ«التسخين». يدوم ذلك ما دامت عملية العصر لأنه من الطقوس المتعارف عليها.

دام المقام في قرية تينزرت قرابة شهر والرُّسُل، نَقَلَةُ الأخبار والأغراض، آتية ذاهبة بين تينزرت وإِمَرِغْنْ. ثم انتهى عصر الزيت، ولكن الطريق المنحدر الصعب بين القريتين صار طينه الأحمر المزلاق لا يسمح بحمل قِرَب الزيت على البهائم عبر سفح شديد الانحدار، إذ يخاف على تلك البهائم من الكسر. وبعد خروج الشمس من خيمة الضباب، عاد الوالد من تينزرت ورجع معه الولد بصور وأخبار كثيرة لم يكن يعرفها عن علاقة الوالد بأخواله، كما عاد بهدية من هؤلاء الأخوال هي عبارة عن خمسة رؤوس من المعز. وكان من جملة ما عاد به الولد من الهدايا أيضا قنديل زيت قديم منحوت من الحجر الأبيض، نقشت فيه رسوم تزينه.

كان هذا النوع من القناديل يضيء بفتيل يعلو لسانها وهو مغموس في الزيت الذي يصب في خندق صغير على طول القنديل والزيت يتسرب إلى الفتيل الذي يحترق على مهل وهو يضيء. أما في دار أحمد فإن المصابيح في ذلك الوقت على ثلاثة أنواع : الشمع دون غطاء، حيث لا تتهدده الريح، أو الشمع داخل فنارات زجاجية محمولة للإضاءة في خارج السقوف، وكان نوع آخر من المصابيح يوضع فيها بنزين، ولها فتيل مصنع يضيء داخل مخروط زجاجي، ونوع ثالث عبارة عن قناديل معدنية يوضع فيها الحجر الغازي الفوار (الكاربون) تحت الماء القابل للاشتعال، يوضع الحجر في نصفها الأسفل والماء في نصفها الأعلى بحيث لا يتسرب إلى الحجر إلا بمقدار، والغاز المنبعث من الحجر المتبخر هو الذي يشتعل من

خلال رؤوس دقيقة المنافذ. وفي كل ليلة يكون تشغيل عدد المصابيح التي يُحتاج إليها في الدار، من هذه الأنواع الثلاثة، موضع عمليات مثيرة، لكثرة تعرض هذه الآلات للأعطاب.

عاد الولد إلى كُتَّاب القرية بعد رجوعه من تينزرت، ووجد أن الطالب المذرّر، السي عابد، قد أعطى لوحه لطفل طرأ على الكُتَّاب، وقد انحنى الولد أحمد على الطالب ليقبل كتفه على العادة فنظر إليه الطالب شزرا وغمغم بكلمات تفيد أنه كان عليه أن يواصل غيابه في الأسفار، وكأنه غير مهيأ للحد الأدنى الذي يتطلبه أمر جليل مثل حفظ القرآن الكريم. وفي ظن المعلم أن اللائمة إنما تقع على والده الذي يشجعه على التراخي. ثم أشار لأحد التلاميذ المراهقين أن يذهب إلى غرفته ويأتي بلوح جديد لهذا الكسول المنقطع. وكان الولد واقفا يرتعش من هذا الانتهار المهين قبل أن يأذن له المعلم بأخذ اللوح والذهاب به إلى حيث يغسله ويطليه بالصلصال. ولما يبس اللوح وجاء به صاحبه أمر المعلم أحد كبار التلاميذ أن يكتب له فيه ثلاث آيات من الحزب الثاني : «عَمَّ يتساءلون»، ولا أحد كان يجرؤ على أن يقول للطالب إن الولد قد تجاوز هذا الحزب، بل فهم الجميع أن ذلك التأخير مقصود لمعاقبة المتخلف، وللاحتجاج على أبيه الذي تبين أنه لا يعرف ماذا يصنع بالولد، أيهبه للجد في الكتَّاب، مع ما يتطلب ذلك من التحكم في عواطفه وكبح جماح رغبات الولد الملحة، أو يسلك به هذا المنحى الذي لن يجعل منه إلا «عاميا»[1] مُلِمًّا ببعض المبادئ في القراءة والكتابة على نهج أبيه، مؤهلا لشيء آخر غير العلم الشريف.

---

(1) العامي، في هذا السياق هو الشيخ غير الحافظ للقرآن، وهو يقابل مصطلح «الطالب» أي الحافظ.

تسامع الجميع في الكتَّاب برجوع الولد وبمعاملة الطالب المريرة له، وكان من سوء حظ الولد أنه، تحت تأثير البرد القارس في الطريق، وبفعل قساوة معاملة الطالب، قد صدر منه في ذلك اليوم الأول أثناء الجلوس في الكتَّاب ما لا يصدر منه إلا في النوم في بعض الأحيان، وهو عدم التحكم في بوله، مما أدى إلى تبليل ثيابه، ومع ما صدر من الخشونة من الطالب فإنه لما لاحظ ذلك، دون غيره، تستر عليه وصرف الآخرين قبل أن يأمره بالوقوف وهو يغمغم كأنه يشتم المتسبب في رخاوته.

قطع الولد الطريق إلى الدار بين الرغبة في الاختفاء حتى لا يستوقفه أحد للسلام، وبين إرادة التعرض للشمس حتى لا يدخل على الأهل بحاله المخجلة، حال يظهر أنه لم يتخلص منها بعد، بالرغم من كثرة ما غذته أمه من قشرة البيض. لا يدري أيشكو لوالده ما صدر من الطالب المذرّر أم يسكت عن ذلك حتى لا يثير عليه مزيدا من الإحراج.

لقيه الطالب (التلميذ المتقدم من السن والحفظ) الآفاقي الذي يأتي إلى داره ليأخذ مؤونته (رتبيته) ثلاث مرات في اليوم، فقال مواسيا له : لو طلبت من والدك أن يبعث أحشاء ذبيحة اليوم إلى الطالب لأرضيته.

كان اليوم يوم اثنين، وقد اعتاد بعض الجزارين أن يذبح معزى أو كبشا أوعجلا أو بقرة لبيع لحمها بالتقسيط لأفراد الجماعة، لأن يوم الاثنين يتوسط الأسبوع بين خميسين، والخميس موعد السوق المقام في ويركّان. عندما خرج الولد وقت العصر من حصة بعد الزوال، وجد والده مع أقارب له في الدكة التي بباب الدار العليا، دار الشيخ وبقية إخوانه، فسلم كما يقتضي الأدب إزاء الكبار

بالانحناء على كل واحد وكأنه يرسل إليه قبلة في الهواء، فانحاش إلى أبيه حتى وجد منه فرصة، فذكر له في أذنه أن الطالب (المعلم في الكُتَّاب) يرغب في أن يشتري له أحشاء الوزيعة المذبوحة، الكبد والقلب والشحم وما يصاحب ذلك، وقد اعتاد الولد من الأب ألا يمحص مثل هذا الطلب، ولكن الولد فوجئ، ولم يدر كيف وقع أن الوالد هذه المرة قد أرسل من يسأل «الطالب» عما إذا كان عبر بالفعل للولد عن طلبه ذاك. لم يرض المعلم بالسؤال، فأجاب من سأله: «قل له إنني لست قطا أعشق أحشاء الذبائح!».

علم الولد بفعل الوالد وجواب الطالب فزاد حرجه واشتد خجله. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن الطالب بحث حتى عرف من أين أتت الفكرة، فقرر طرد صاحبها التلميذ الآفاقي (الآتين من خارج القرية)، على العادة المعروفة بالتخناش، ومعناه أن يخرج التلميذ المطرود من القرية تحت ستار الظلام قبل الفجر، لا يحمل سوى خنشة بها اللوح الذي يقرأ فيه.

عاش أحمد بسبب هذه الفضيحة أوقاتا من الحرج إزاء المعلم (الطالب)، لكن والده أصلح ما فسد بإقامة وليمة استدعى إليها مرة أخرى الطالب المذرر وجميع طلبته من التلاميذ الصغار، أبناء القرية، وهم قلة، ومن الطلبة الذين يسمون بإمسفرين، وهم القادمون من مختلف القبائل، قبائل الأطلس، ممن حفظوا القرآن حفظا مجردا، ورغبوا في حفظه بقراءة واحدة أو عدة قراءات، ولما علموا بوجود هذا المعلم الماهر في إِمَرِغْنْ توافدوا إليه، وربما حفظ بعضهم على يد طالب آخر قراءة أو قراءتين فجاء يطلب أخرى عند السي عابد الحاحي.

كان عدد هؤلاء التلاميذ (الطلبة) القادمين على إِمَرِغْنْ يبلغ

أزيد من أربعين، بعضهم يجاوز سنه الثلاثين، وبعضهم الآخر بين العشرين والثلاثين، بعضهم ترك الزوجة والولد في بلده. ومعيشهم في إِمَرِغْنْ من رفد أهل القرية، إذ أن الجماعة لما تشارطوا (تعاقدوا) مع هذا المعلم كانوا يعرفون ما يقتضيه حضوره من تبعات هذا التكفل بطلبة القراءات الذين يقدمون عليه، ولا يجوز له أن يرفض تعليمهم.

يسكن الطلبة الآفاقيون حوانيت داخل المسجد أو بجواره، ويتقدم الواحد منهم بطلب المؤونة (تارتبيت) من عائلة في القرية، ينصح بها لأنها تقدر أن تتحمله. وهؤلاء الطلبة هم في غالب الأحيان ممن يتقنون صنائع يربحون بها قدرا من المال، وهي عادة الخياطة في كل وقت أو أشغال الحصاد في وقتها، ويكون ذلك بإذن الطالب المعلم، وهم ملزمون بنظام يراعي حرمات أهل القرية في كل شيء، ويراعي نظام المسجد بما لا تساهل فيه. يستيقظ كلهم قبيل الفجر ويتوضأون ويقرأون ألواحهم، ويصلُّون الفجر وراء المعلم، ويقرأون الحزب (جزءا من ستين جزءا من القرآن) الراتب في الصبح ثم يعودون لقراءة الألواح، ثم إذا جاء الشروق محوا ألواحهم وكتبوا فيها قدر ربع الحزب أو نصفه أوحزبا كاملا، ثم يضعونها أمام المعلم ليصحح نصها ورسمها ووقفها بوضع علامات وقواعد على هامشها يعينهم حفظها على إتقان الاختلاف في القراءة والرسم والوقف وغير ذلك، على حسب القراءة التي يكون الطالب بصدد استيعابها. في كل صباح بعد طلوع الشمس يأتي الطالب المتعلم إلى الأستاذ المعلم فيسلم عليه بتقبيل كتفه، ويضع أمامه اللوح على الجدار بجانبه، ويغادر لينطلق لطلب حريرة الفطور عند الأسرة التي تعوله في القرية، ويكون المعلم أثناء ذلك مهتما بتحفيظ الصغار والسهر على كتابة ألواحهم أو بالإملاء على الذين يقدرون منهم على

الكتابة. لأن التلاميذ، صغارا وكبارا، لا أحد منهم في المستوى الذي فيه الآخر، والصغار يجلسون جميعا، وكل يكتب لوحه أو يحفظه. أما الكبار الذين يكررون السلكات فلا يجالسون الصغار، بل تجد كل واحد منكبا على قراءة لوحه في ركن من أركان المسجد أو في غرفته أو حيث لا يشوّش على غيره بقراءته الجهرية من أجل الحفظ.

بعد الفراغ من استعراض الصغار وهم يستظهرون، وبعد الإذن للحافظين منهم بمحو اللوح وإعادة طلائه بالصلصال ليكتب فيها جزءا جديدا، كتابة من يد المعلم أو إملاء منه، يتفرغ المعلم لألواح الكبار «فيسلكها» كما يقال، أي يصححها، حيث يرى ما فيها من مطابقة لقواعد قراءة برواية ورش أو قالون أو حمزة أو المكي وغيرهم، يضع عليها مراجع للحالات المشابهة وغيرها من قواعد الصوت والرسم مقتبسة من منظومات في مجال هذا الفن، فيأتي اللوح غاية في الجمال بعد سلكه، بما فيه من تهميشات وتحشيات، بعضها بالقلم الدقيق، وبعضها بخط غليظ يستخدم فيه المعلم أصبعه بعد غمسه في دواة المداد المستعمل في الألواح، المسمى بالسمخ أو السمق، مداد يصنعه التلاميذ بإحراق صوف الأغنام على مقلاة ووضعه بعد ذلك في الماء.

يعود الطلبة الكبار بالحريرة لفطورهم فيشربونها ثم ينكبون على كتابة ألواحهم ليصححها المعلم إن لم يكونوا فعلوا ذلك قبل الفطور، ثم يعودون للبيوت التي تتعهدهم بالطعام في القرية للإتيان بطعام الغذاء وقت الضحى، يكون الطعام في الغالب في زلافة فيها مرق وعليها كسرة خبز رقيق مقوس من نوع تانورت، أو يكون مرقا في طاجين وعليه خبز، وقد يكون من قبيل الكسكس، كل من أتى

بشيء يضع ما أتى به أمام المعلم فيأخذ لوحه إن كان قد صحح، ويكون الأمر بالترتيب، بحيث يكون الذي وضع اللوح للتصحيح أولا هو الذي يأتي لسحبه أولا. وعندما تجتمع أمام المعلم كل «الرتبيات»، في الزلائف والطواجين التي أتى بها أزيد من أربعين طالبا، معروضة في نظام ومنظر عجيبين، يقوم هو باختيار إناءين أو ثلاثة لنفسه، يكون الطعام الذي اختاره من أجود تلك الحصيلة، وعلى الطالبين أو الطلبة الثلاثة ممن أخذ المعلم رتبيتهم مشاركة الآخرين في الأكل. كان ذلك الترتيب رائعا عجيبا مريعا علق منه ما علق بذاكرة الولد.

كان هذا المعلم رمز الهيبة والوقار والسلطة، وأبرز صفاته المعتبرة لدى الناس أنه كان لا يلتفت في مشيته، وإذا تكلم كان كلامه دون صخب، ولكنه كالرعد الحاد له صوت مهيب دون هرج، وقد يرعب إذا يسمع من بعيد. كان السي عابد متجهما في معظم الوقت، حتى إذا فتر فمه عن بسمة برزت فيها أسنانه الناصعة البياض وانشرح بها وجهه الأدهم اللون المزين بخال في ثغره أسود، مثارا للرهبة التي تؤلف ويحمدها الناس. أُعجب الناس في القَرية بهذا المعلم المنضبط الممتلئ الوقت كل يوم، ما بين إمامة الصلاة، وتعليم القرآن للصغار، وتتبع للمتشوفين لضبط القراءات، وقراءة الحزب، وبين وعظ في الزاوية التجانية، وتدبير لحياة المسجد بمن فيه من القائمين والمترددين. كان له بعض الأصدقاء المعجبين به أكثر من غيرهم، المبجلين له، الذين يتناوبون على استدعائه لتناول وجبة بعد صلاة العصر، وبعدها كان يخرج إلى الخلاء لقضاء حاجته المرة الوحيدة في اليوم، في ظاهر القرية، في جهة لا يطل عليها بيت من البيوت.

أهم ما كان يحرص عليه السي عابد ألا يصدر من طالب آفاقي عنده ما يخل بالأخلاق المتعارف عليها في القرية. وإذا بلغه شيء من ذلك أرسل في طلب المشبوه، فينحني له ذلك المتهم ويعلو المعلم ظهره بعصا غليظة يوجع بها أضلاعه، وقد يقرر طرده على سبيل ما ذكرناه من أسلوب التخناش. ومع ذلك فإن وجود أربعين من فحول العزاب من أولاد القبائل الوافدين على القرية، لا يمكن أن يجري على الدوام وفق ما يريده المعلم الزاهد، فهؤلاء يخرجون كل يوم للترويح عن النفس بعد العصر إلى البساتين، ويلعبون بأقدامهم، في وقت ما قبيل غروب كل يوم خميس، الكرة المصنوعة من الخرق المخيطة المكومة، يتصادمون في تلك اللعبة ويتسابقون ويتنافسون ويصرخون بشكل يدل أن الطاقة الذكورية تتدفق من أوصالهم. وكل واحد منهم معروف عن قرب من أهل الدار التي تمونه، فإذا خرجوا كقطيع من الأحصنة أثاروا الغبار وتعقبتهم الأعين من نوافذ مفتوحة أو ذات شبابيك، وربما سمع أحد صوت ربة خدر في دارها تغني :

إِجّديكَن أطلبا ادُّو غراس أغلاَّن

وانَّا إِران اتنديكس أنفن أغاراس

أيها الطلبة (كل المنتمين إلى العلم الديني) إن الورود تنبت أسفل الطريق

فما على من أراد أن يقتطفها إلا أن ينحرف عن الطريق.

حضر المعلم وتلاميذه وطلبته مرة أخرى، للوليمة في دار أحمد، قبيل مغرب الشمس، وامتلأت بهم القبة الكبرى، إذ لا يدعو جميعهم من أهل القرية إلا من له مثل ذلك الفضاء الفسيح المفروش. فبدأوا بقراءة التفريق، ومعناها توزيع أجزاء المصحف بمجموعه،

يقوم بذلك من يأمره المعلم، ويكون في حكم مقدم الطلبة، في كل جزء مطبوع حزب أو حزبان. فإذا حضر ثلاثون قارئا ووزع عليهم ثلاثون جزءا، في كل جزء حزبان، كملت تلاوة «سلكة» من القرآن، أي تلاوته كاملا، وتكون القراءة جهرية، ولا أحد منهم تشوش عليه قراءة الآخر، بل تجدهم منغمسين في قراءاتهم، يقرأ بعضهم القراءة المجردة، وبعضهم يتعامل مع النص حسب إدراكه في القراءات، والقراءة مطلوبة في مثل هذا المقام للتبرك ولاستدرار الأجر على أهل دار العزيمة. وقد لا تكفي أجزاء المصحف فيكون تفريق الموجود على غير الحفاظ، وعلى أشباه الحفَّاظ، ويقرأ الآخرون مما في صدورهم، والنتيجة هي أن القرآن سيقرأ كله في ذلك المنزل مرة أو مرتين، ولا يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة.

بعد إكمال التلاوة على سبيل «التفريق»، يكون قد حان موعد صلاة المغرب، فيصلُّونها ثم توضع أمامهم القهوة بالحليب، ثم الحريرة المصنوعة على النمط الحضري بالقزبور والمعدنوس والطماطم واللحم وبهارات أخرى تعطيها لذة من حموضة غير زعوق، ولا تتوفر لمعظم الطلبة فرصة طعم هذا النوع إلا في مثل هذا البيت.

بعد تناول القهوة والحريرة يقرأ الطلبة الحزب الراتب، حزب ذلك المساء، بحسب اليوم من الشهر، لأن الحزب الراتب يقرأ في ثلاثين يوما من الشهر القمري، حزب بعد صلاة الفجر وحزب بعد صلاة المغرب.

بعد قراءة الحزب توضع صينية لتحضير الشاي، وفي حالة حضور مثل هذا العدد توضع صينيتان، لكن القيم واحد. ثم يبدأ الطلبة في قراءة ما يسمونه بالأنصاص، وهي أنظام فيها قواعد

للقراءة، كما يعرجون على أنظام أخرى تتغنى بحياة طلبة القرآن وأيامهم في الطلب، وبغير ذلك من الأمور الصناعية التي لا محل لها في ذلك المقام إلا على أساس أن كل ما يتغنى به هؤلاء الحملة للقرآن طيب مبارك. وتكون قراءتهم لتلك الأنظام برفع العقيرة جماعة على لحن مؤثر مألوف تقشعر له الجلود في تلك البيئة التي لا يعرف فيها عموم الناس اللغة العربية، ولكنهم يستروحون بكل ما يمت للقرآن بصلة.

مع دوران كؤوس الشاي على الطلبة يطاف عليهم بحلاوى لا تجود أيامهم بمثلها ولا ترى إلا في المدن، لأنها تذوب في الفم كالسكر، وهي بطعمها العسلي وتشققها تحفة يحب الواحد منهم أن يخبئها إلى أن يمضي بها فيهديها أو يختلي بها لطرافتها وغرابتها شكلا ولونا ومذاقا.

بين دورة ودورة من إنشاد الأنظام ينقض مجموع تلك الأصوات على حين غفلة، وبمبادرة من مقدمهم، بإجهاز واحد على الشروع المفاجئ القوي في تلاوة آيات من القرآن على النمط الصوتي الشديد المسمى عند قراء جبال الأطلس وجهة سوس «بتاحزابت»، وهي قراءة جماعية كثيفة سريعة بأصوات عالية مع انقطاعات آنية شديدة عند كل وقف، ومع إطالة المد في أماكنه، وكأن المقصود إحداث رعود وبروق ومبارزة ومباهاة وتحد يدور على الحفظ وإحسان ذلك النمط المحلي من القراءة، وكأن تأكيده بالعقيرة وإعلاء الصوت به يعوض عن كل ما بذل في باب تحصيله من الوقت والكد والعناء، وهنا أيضا يُتعمد إظهار ضرب من فحولة ذلك السرب المنقطع المتزهد قسرا، نكاية في الزمان وفي العامة من الحاضرين.

يقال في تلك البيئة عمن أقام وليمة للقيم في المسجد وطلبته

إنه «فعل الطلبة» (إسكر الطلبا). والمقصود استدرار خير كثير باستدعائهم وإطعامهم وإتاحة الفرصة لهم لقطع شظف عيشهم بلحظات فيها لذيذ الطعام وفرصة استعراض محفوظهم وعلامات تميزهم واعتدادهم بالانتساب إلى القرآن المقدس عند البربر الذين يسمعونه ويحفظونه، وإن كان جمهورهم لا يفهمونه، ولكن جهلهم بمعانيه اللغوية يجعل قدسيته لا تحدها حدود المعنى، فحتى الرماد الناجم عن نار تدفئة ماء الوضوء بالمسجد أو تدفئة قاعة الحفظ التي يوجد الموقد عادة وسطها، وتسمى «أخربيش»، حتى ما يعلق من هذا الرماد بملابس التلاميذ المترددين على الكتاب لحفظ القرآن، يكون شفيعا لهم ولأهلهم في دخول الجنة والعتق من النار.

كرَّس البربر أعمارهم لحفظ القرآن وإتقان قراءته كجزء أصيل من ثقافتهم، وشطر من زمنهم، ومقوم من انتسابهم للإسلام وللكون من خلاله، لكلمات القرآن عندهم جرس خاص قد تلتقي بمعاني ألفاظ في لغتهم وهي لا تمت إليها في واقع الدلالة بصلة، فعبارة «أولى لك فأولى» في القرآن مثلا، تذكر الواحد منهم بالمزود الذي يحمل فيه الطعام المسمى أولك، إلى غير ذلك. ومع جهلهم باللغة العربية فالقرآن جسر بينهم وبينها، بحيث إن عددا من مبادئه الكبرى مهضومة في عقولهم عن طريق الوعاظ والمذكرين، ولا سيما بما يسمعون من الحافظين لأنظام تستعرض مختلف قصص الأنبياء منذ آدم، يتغنى بها متجولون يطوفون بأبواب الدور، يُخرج إليهم الطعام والصدقات لأن أشعارهم الدينية رائقة يتأثر الناس لسماعها، ومعظم هؤلاء المذكرين يأتون من جهة سوس.

لك أن تتصور في مسجد واحد عددا من أولاد القرية من الصبيان والشبان والكهول وقد طرأ عليهم طلبة من الشبان ومن

متوسطي الأعمار، قادمين من مختلف القبائل، وبعضهم خلَّف وراءه زوجة وأولادا، والكل تحت سطوة معلم مقصود مشهور بمعرفة القراءات، ومشيخته في كل ما يرتبط بالقرآن من الإمداد المعتبر في هذا الانتساب، وغاية المتخرجين أن يلتحقوا بمساجد في قرى القبائل لإمامة الصلاة وإقراء القرآن، والحاضر في المقام الأول هو إقراء القرآن، وباقي المهمات تابع له من مثل تصدر الإمام للصلاة في الأوقات المعتادة، ومثل تصدر ولائم الأعراس والختان، وتصدر طقوس الجنائز، وتحكيم الإمام في بعض النزاعات، وقضاء أغراض للنساء، خاصة ما يتعلق بالاستشفاء عن طريق الرقى أو بمختلف التسببات المتراوحة بين التبرك بأثر الأسماء المكتوبة في الحروز (التمائم) وبين تحضيرات عقاقير حسية توصف للتناول، أو بأمور بين هذه وتلك مثل كتابة تمائم على ورق يمحى في الماء ويشرب أو يتبخر به، لمقاصد متنوعة. إذا تصورت هذا الاختلاط بين عشرات من الذكور من مختلف الأعمار، وتصورت سلطة الشيخ ورقابته بحيث لا يسمح بأي انحراف لا تقبله ضيافة القراءة، تخيلت مقام المكتوب والمحفوظ ومتعلقاته في اللفظ والتصرف، وفهمت أصوات هذا الرهط وهم يرفعون الصوت بالقرآن تجسيدا لقوتهم وتصريفا لبعض طاقتهم الحبيسة، إذ لا يسمح لهم أن يصرخوا بغير هذا المقروء وفي غير هذا المقام.

فالانتساب إلى القرآن له من حيث المبدأ هذا الثمن المقترن بحبس الشهوات، ولذلك فالاعتداد به تواطؤ بين حملته المطالبين بالصرامة وبين العامة الذين لا تعد عليهم الزلات.

أما العامة في القرية، مع تفاوت المظاهر، فإنهم يراعون وقار الأسر والمحارم والاختلاط الذي يفرضه وجود الذكور والإناث جنبا

إلى جنب في فضاء المعيش، في موارد المياه ومنابت الكلأ ومسارح الرعي وحقول جمع المحاصيل ومسارب تسخيرات الزوجات والجدات والبنات على الأقارب في الحقول وغيرها، ومجالب الحطب والملتقطات في الغابات، ولكن وجود هوامش على هذا الانضباط واقع لا ريب فيه، لأن الموت يرمل النساء، ولأن علاقات مالكي الأرض بمعاونيهم لا تخلو من فرص التعسف في الولاء الفعلي، ولأن شهوة الكبار لا تكفي في كبحها الأعراف، ولأن الشباب في القرية من غير المتزوجين ممتلئون حيوية تسيل منهم كما يسيل العرق من جلودهم عند مكابدة الأشغال، حتى إنه يخاف منهم على كل ذي مدخل أو فرج من الحيوان، يفرغون فيها كبتهم بالضرب القاسي المؤدي إلى حد الكسر والجرح أحيانا.

كان أحمد يسمع من كبار السن أقاصيص ويرى ما يؤكد بعضها، فالشعاب تحمل آثار أقدام، وأشجار البراري المتخلجة في الحقول وجنبات الأودية تنبئ أحيانا بأنها مخابئ مطروقة بما لا يحيط بتفاصيله إلا خيال المرجفين.

أهل هذه البيئة، لاحتكاكهم الدائب بالطبيعة، يشاهدونها تمارس حريتها التي بها تتناسل وتستمر بلا قيود، بل إنهم يتدخلون أحيانا لتنشيطها في هذا الاتجاه بما لا يثير أي استنكار، مثلما في حالة السعي لضرب بقرة بثور أو أنثى حصان أو أتان بحمار. مناظر لا يستنكف من حضورها حتى الأقارب من الأمهات والبنات والآباء والاولاد، فهي مصدر خير يتم السعي إليه. والأولاد يبتكرون بخيالهم شرح منطق الطير عندما يتعلق الأمر بمثل هذه العلاقات، ومن ذلك شرحهم لهمهمة تصدر عن حمام بري يسمى أزضوض، إذ يتخيلون أن تزاوجه يكون مع طير شبيه به أصغر منه حجما يسمى تامِلاَ،

فكلما رآها من أعلى شجرة خاطبها بهذا القول:

ماتَّاتامكَانت أنّ إكَّان تاغراست أنّ
من تلك البغي السالكة تلك المسارب؟

والقطة في خيالهم إذا أكثرت المواء فهي تقول :

إنغا وازي تاماشوت ارزماتاسد إموش
أضر المغص بالهرة أطلقوا سراح القط

لكن الكلاب في محنة إنهاء تناسلها هي التي تتعرض لمضايقة شديدة من الأطفال.

وفي الجملة، فإن الحياة الجنسية في القرية محاطة بهالة من الاحتياطات التي تتجنب الفضيحة، ولم يسمع شيء محرج فيها مما يتعلق بالنساء، إلا خبر عذراء من بنات الأسر المجيدة، خرجت ذات يوم تستقي من عين خاصة بقلعتهم فلم تعد، وقيل إن الجن اختطفوها إعجابا بجمالها.

للجن في هذا المجال حضور غير عادي في كل مكان، وحضوره أقوى حيث توجد النار وحيث يكثر الماء وحيث تشتد الريح. إذا أخلت النساء مكان المواقد في الدار ليلا وانطفأت الأضواء، فالمعتقد أن دور هؤلاء قد جاء ليحلوا محل الإنس الذين عليهم أن يناموا في وقت النوم. لا بد أن يفسح لهم المجال. والمستقر في الاعتقاد هو ما يتوجب من الحرص على التوقير بين الجانبين، ولا يعدم بنو الإنسان هنا سماع حركات هؤلاء المخالطين لهم على الأرض أو أصواتهم. والنساء على الخصوص أكثر توقيرا للجن وأحرص على التساكن معهم وأيقن بحضورهم جنبا إلى جنب مع الناس. وأول مقتضيات توقيرهم تجنب التعرض لهم بالذكر دون قرن هذا الذكر بقول «بسم الله». بل إن التكلم عنهم يكون بتجنب

تسميتهم، فهم في لغه هذا البلد يُدعون: «غويد ياضني» (هؤلاء الآخرون)، أو هم «ويدا أور إعديل» (الذين هم غير خيرين). ومما يقتضيه تجنب إذايتهم عدم صب الماء البارد على النار، وعدم إهراق الماء الحار على الأرض كما سبق ذكره، وتجنب وطء المستنقعات، وعدم إذاية بعض الحيوانات المعتقد أنها مسكونة أصلا بالجان، مثل الضفادع والقنافذ.

لا مطمع في النجاة من هذا الخلق الآخر كلية، ولا سيما بالنسبة للنساء اللائي يعتسفن بحكم أشغالهن مواقع الماء والنار، ويطرأ عليهن أحوال من الهشاشة في وقت الحيض والنفاس أو التأخر في الزواج أو نسيان التلفظ بالبسملة عند تخطي بعض العتبات غير المحصنة بالتمائم.

على العكس من النساء المتوجسات، كان بعض الطلبة، حفظة القرآن، يدعون أنهم يتحكمون في الجن ويسخرونهم في قضاء بعض أغراضهم، فيستعملون لتحقيق ذلك التحكم جداول أو استحضارات بذكر أسماء على صيغة مخصوصة يتأتى لهم بها ذلك التسخير.

لا تبعد قرية أحمد إلا مسيرة نهار واحد، مشيا على الأقدام أو ركوبا على البغال، عن مغارة تنسب لأشهر من يحمل اسما معروفا من الجن، إنه المعروف باسم شمهروش، ويسمى عند القبائل: سيدي شمهروش، ويذكر عنه أنه كان من صحابة الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وأنه عاش بعده ألف عام. توجد المغارة التي يظن أنه كان يسكنها أو دفن فيها أو كان يأوي إليها، تحت إحدى أعلى قمم جبال الأطلس الكبير. يحمل الناس إلى هذه المغارة في كل صيف من كل قرية من القرى التي يصل إليها صيته كل من به مرض يعزى لمس الجن، فهو معروف على أنه ملك الجن الذي

ينصف أهل الإنس من عدوان أهل مملكته. تتكون ركبان زيارته وتتجه إليه، وفيها الرجال والنساء من مختلف الأعمار، وإذا اقترب الركب من المغارة دخل كل المشتكين في حالة من الاضطراب العصبي قد يصحبه الصراخ وقد يصحبه ما يعتقد أنه كلام الجني الساكن في الآدمي، ليشتكي أو يتظلم أو يتوعد، والشائع المفهوم أن ذلك الاضطراب إيذان بتضايق الساكن وتخوفه من قرب من هو أكثر سطوة منه. وكل الركبان الزائرة تحمل قرابين من المعز في الغالب، تذبح عند المغارة، ويأكل لحمها الزوار والمجاورون. ويحكى أنه بعد المبيت بقرب المغارة ليلة أو ليلتين يتخلص معظم المصابين من علتهم. والرحلة في نفس الوقت مناسبة للترويح على النفس بالنسبة للمرافقين الذين هم أكثر عددا من المصابين، لأن الموقع الجبلي المرتفع الذي تقع فيه المغارة موقع رائق المناظر، غزير المياه، يصعد إليه عبر مسارب تظللها في المراحل المتوسطة منها أشجار الجوز الوارفة الظلال، ثم تتعرى صفحة الأرض بفعل البرد كلما زاد الارتفاع لكي لا تترك للنبات أي فرصة للازدهار.

كان يحدث للزوجة الثانية للوالد، أللا فاضمة، أن تنتابها الحالات التي تعرف بالصرع أو مس الجن. كان يغمى عليها، وفي وقت من تلك النوبة يحدث لها أن تتكلم بكلام بعضه مفهوم وبعضه غير مفهوم. وإذا جيء بقارئ يقرأ القرآن عند رأسها فإنها كثيراً ما تشتمه وتتهدده. وكان يعن لها أن تقوم دفعة واحدة من حال امتدادها على الفراش وتهم بالخروج من الغرفة، فيقوم من حضر بمحاولة منعها، فلا يقوى على ذلك إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة من الأقوياء، وهي في حالتها العادية لا تملك حتى عشر تلك القوة، وهي تلك المخلوقة الرقيقة النحيفة.

أذن لها الوالد مرة في أن تذهب لزيارة المغارة المذكورة، وكانت تلك الزيارة في ركب قاده أحد أبناء العمومة من الذين توكل لهم المهمات.

كان يحلو للوالد في حال غيبوبتها الساكنة أن يحاور المتكلم فيها، ووقع ذات يوم أن هذا المتكلم قال إنه، قبل أن يحل بهذا الجسم، كان متلبساً بامرأة أخرى ذكر اسمها وأهلها وقريتها، وتسمى القرية توگرمان، وقال إنه أكل عندها دشيشة بأوراق اللفت (أفراس). كان اليوم عشية الأربعاء، ووجدها الوالد فرصة للقيام بالتحقق من مدى صحة تلك الأقوال. فبحث في سوق الخميس عن ناس من تلك القرية وهي على وادي نفيس، فوجد ما ذُكر صحيحاً، أن المرأة موجودة، وأن عشاء أهلها كان بذلك الطعام، وأنها أصيبت في تلك الليلة بحالة تعتادها.

في ذلك الإبان وصلت إلى الشيخ عمر رسالة من قائد القبيلة يخبره فيها أن السلطان سيدي محمد بن يوسف سيزور مدينة مراكش بعد أيام، وأن على الشيخ أن يكون هو وبعض أعيان مشيخته في الاستقبال ضمن مجموع أعيان القبائل، وأن عددا معينا من الفرسان بأفراسهم وحلتهم وبنادقهم التي تُخرج البارود، مطالبون بالحضور، علما بأن كمية من البارود ستعطى لهم لاستعمالها في فرجة التسابق بتلك المناسبة.

تقرر أن يكون الوالد من الأعيان الموفدين لهذا الاستقبال، وقد سبق له أن تملى بطلعة السلطان في زيارة سابقة إلى مراكش قبل ما يزيد عن عشر سنوات، وعرف أبهة الاستقبال، ولذلك قرر أن يكون معه الولد في الرحلة إلى مراكش لمشاهدة الاحتفال.

لم يكن الولد في سنه تلك يتردد على سوق الخميس الذي يقام

في قرية درب ويركّان لحلق الرأس عند أحد الحلاقين، وإنما كان يحلق شعره في القرية على يد الشبان أو حتى الكهول المتطوعين الذين ينظمون جلسات دورية للحلاقة في بعض المناسبات، ولا سيما عند اقتراب الأعياد. صادف الإعداد للرحلة إلى مراكش مناسبة لجلسة أخرى من الحلاقة الجماعية في القرية. وقد كان أحمد أول من وقعت به العناية بوصية من والده، وذلك لكي لا يصاب بالقرع، لأن دور من في رؤوسهم قرع من الأولاد لا بد أن يأتي فيما بعد، فالحلق يكون بنفس الموسى التي يقع تحديدها على ملق من الحجر. كان حلق شعر رأس الولد بالنسبة إليه في كل مرة عملية مؤلمة لا تخفف من ألمها الدموع، وأمهر هؤلاء الحلاقين المتطوعين هو الذي يحدث في رأس الولد أقل عدد من الجروح، ويصيب أقل ما يمكن من سلائخ جلده، وقد يتناوب اثنان أو ثلاثة أو أكثر على حلق ذلك الرأس حتى لا يتحمل واحد وحده وزر إذاية هذا الولد الذي يحبه والده ويوصي به.

بعد حلق الرأس أوصى الوالد بأن يدخل ولده الحمام، فالرجال هم الذين يترددون على الحمام العمومي الواقع بالمسجد، وفي يوم من أيام الأسبوع يخصص هذا الحمام للنساء، ولكن النساء في معظم الوقت يغسلن أو يغتسلن في دورهن في الحمام الذي يسمينه «إسكني»، ومعناه السلة الكبرى. ويتعلق الأمر بوعاء معمول في الأصل لنقل سنابل الزرع عند جمعها على البهائم، ويصنع من أعواد طويلة تُقوَّس وتربط بالحبال بحيث تشكل مخروطا مفتوحا إلى أعلى يكون وعاء من وحدتين على ظهر الدابة. إذا قُلب هذا المخروط ووُضع على الارض، بحيث تكون قاعدته إلى الأسفل وقمته إلى أعلى ووضعت عليه إزارات من الحُيَّاك (الملاءات) المستعملة في

الغطاء أو كجلابيب للنساء المحتجبات عند الخروج، تراه يشكل شبه خيمة تتسع لجلوس امرأتين أو ثلاث، إذا لم يكن من السمينات. يتم تسخين الهواء داخل هذه السلة المغطاة بصب الماء السخن على حجارة فوارة ذات مسام يتم اختيارها لهذا الغرض، وهي تطلق البخار الذي يرفع حرارة الجو داخل السلة الحمام.

أدخل الولد إلى هذا الحمام وأزيلت أدران جسده، والأولاد في العادة، قبل البلوغ، قلما يحتاجون إلى تنظيف غير ما يتوفر لهم بالسباحة في مياه الأودية والسواقي. لا يتذكر الولد من هي المرأة التي تولت تنظيفه في تلك المرة بطلب من أمه، غير أنه يتذكر هنا أيضا أنه لا يحب ولا يطيق أن يصب الماء على رأسه لأنه يحس وكأنه يختنق.

جاء اليوم الموعود المحدد للرحلة، وكانت مفاجأة كبرى للولد لأنه ركب السيارة لأول مرة في حياته. لا يدري السبب الذي جاء بسائق القائد، ولأن القائد وحده المالك للسيارة في القبيلة، لا يدري سبب مجيئ هذا السائق إلى دار الشيخ ليتغذى هناك وليقبل أن يركب معه الوالد والولد في سفرهما إلى مراكش، ولعل ذلك كان طمعا في هدية. ركب السيارة ولم يبق في ذاكرته من ركوبها غير الدوار الذي أصابه حتى كاد أن يختنق، فإذا فتح عينيه رأى الأشجار تهرب إلى الوراء على جانبي الطريق، في منظر لا يطاق، وإذا أغمض عينيه شعر في أحشائه كأنه يهوي في بئر سحيقة. لعل الذي خفف عنه ضيقه هو أنه استسلم للنوم في حجر والده الذي ضمه إليه. وكان الوالد في مثل تلك المواقف يعّير ولده مداعبا بأنه يبالغ في الخوف، ويسميه «هربوب».

وصلت السيارة إلى مرأب دار القائد في المدينة، ولا يتذكر

الولد هل استطاع وكيف استطاع أن يحتفظ بالطعام في بطنه بالرغم من ذلك الدوار الرهيب. ركب الوالد وولده في أزقة المدينة تلك العربة المعروفة بالكوتشي، يجرها حصانان، ووصلا إلى الدار التي تملكها العائلة في مراكش بحي عرصة إيهيري، وكان رقمها 19 بدرب البونبة. وكان قد سبقهما إليها بعض المعاونين وبعض الفرسان، وكان بجانب الدار إصطبل صغير يسمى «تارّوات» وقد اصطحبوا معهم كل ما تقوم به حياة عادية كما تعودوا عليها وأزيد.

في يوم الغد الذي سبق يوم زيارة السلطان، خرج الوالد بولده لاكتشاف بعض معالم هذا الفضاء الغريب، عالم مدينة مراكش الذي كان يسمع به ولا سيما عند قرب الأعياد، إذ منه كان الوالد يشتري «الحوائج»، وهو الاسم الذي يطلق بالذات على اللباس. كان أهل أحمد لا يهمهم من هذه المدينة غير أماكن معروفة محددة بعينها، وهي ساحة جامع الفناء، حيث توجد حلقات الروايس، وهم المطربون البربر، إذ قلما يتوقفون عند حلقات الفرجة الأخرى، ما عدا حلقة واعظ ديني باللسان البربري، وهو مكفوف البصر. والحي الذي به الزاوية التجانية، وسوق السمارين، حيث قيصريات بيع الملابس، ورحبة الزرع التي بها يباع الملح المنقول من جهات مجاورة للمدينة منها قرية إِمَرِغْنْ، هذا كل نصيبهم من مراكش.

في مساء ذلك اليوم وصل إلى الدار بمراكش عونان هما أحمد ن بن طالب ومبارك أو بلال. وكانا قد أتيا إلى سوق الماشية ببغلة وبقرة وثور ليتحصل من بيعها قدر من المال ينفق في تلك الرحلة.

في يوم وصول السلطان خرج الجميع إلى الشارع الذي سيمر منه الموكب. ووقفوا أمام نافورة قريبة من الساحة المعروفة بساحة عرصة مولاي عبد السلام. وكانت الفرق الموسيقية على جنباتها

تعزف رائق نغماتها. والحرس أمام الناس من النصارى ومن السود المعروفين بساليگان، أي الجنود المستقدمين من السينغال، في إطار الجيش الفرنسي العامل بالمستعمرات. وقبعات الضباط الفرنسيين في الشرطة والجيش تلمع خيوط ترصيصها الذهبية في الشمس. ومن حين لآخر يقع للحراس شنآن مع بعض الجمهور من المصطفين، ويظهر أن بعض الناس من المراكشيين أرادوا تحدي الشرطة والعسكر متحمسين بتلك المناسبة متعمدين أن يظهروا الكراهية للنصارى المستعمرين، إلى حد أن هؤلاء اعتقلو شخصا ووضعوا يديه في القيد المعروف عند الناس آنذاك «بالنميرو خمسة»، وذهبوا به في سيارة عسكرية. يتذكر أحمد أن بعض المؤيدين لذلك الشخص المعتقل كان يتهدد الشرطة من النصارى بعبارة رددها الناس وتعجبوا لها إلى حد أنها لصقت بذاكرة الولد وإن لم يكن آنذاك يعرف معناها : قالوا إن المتوعد كان يقول للضابط الفرنسي: «تيواوار» أي «tu vas voir!»، ومعناها سترى (يعني سترى ماذا سيقع لكم مع مقاومتنا). كان تعبيرا عن موقف الوطنيين الذين يرون أن يوم رحيل الاستعمار أخذ يدنو، وهذا غير مفهوم البتة لدى الكثيرين في ذلك الوقت، لأن قبضة النصارى كانت مستحكمة، ولا أحد يتصور كيف يمكن تحديهم مع كل ما كانوا يملكون من قوة.

لم يكن الولد واقفا في الصف على رجليه، بل كان يحمله فوق كتفيه العون المسمى أحمد ن بن الطالب. كان يكبره بحوالي عشرة أعوام، وكلما اصطحبه الوالد في خرجة بعيدة، وهذا العون حاضر، إلا والولد يكمل الطريق على كتفي العون، إن لم يتأت ركوب بغلة الوالد.

فهذا العون والعون الآخر الأسمر اللون المسمى مبارك، هما

اللذان يدخلان الدار كمسخرين في الأشغال الخارجية. أما أراضي الوالد فقد كانت تعطى لفلحها للشركاء بالربع أو الخمس، وكان هذان المتسخران يقومان بأشغال مثل سقاية الماء وجلب الحطب يوميا، وغير ذلك من أعمال التوسط مع الشركاء في الفلاحة. وقد يضاف إلى المسخرين المذكورَين شخص ثالث أو حتى رابع في بعض الأحيان. وبالرغم من إخلاصهما وسعادتهما بل وفخرهما بخدمة الوالد، فإن بخلهما وتكاسلهما في العمل أو أخطاءهما في بعض الأحيان كانت تثير غضب صاحب الدار. كان ابن الطالب هذا يسارع إلى العناية بالولد، وهو أول من سمع منه الولد تعليقات الكبار على الكبار من الرجال والنساء، بمقاييس تلك البيئة، وبعضها ظل منقوشا في ذاكرة الولد.

سُمع هتاف بعيد، إيذانا بوصول السلطان، والناس لم يأبهوا لحرارة الشمس الشديدة التي وقفوا تحتها من الضحى إلى قرابة وقت العصر، ثم وصل السلطان إلى الساحة في سيارة مكشوفة بيضاء، وهو واقف فيها يرد بيديه على هتاف الناس، وقُبُّ (قلنسوة) جلبابه يعلو رأسه على شكل مخروط، لم يشاهد الولد مثل طريقة شده قط، وكانت لحية السلطان كثة سوداء، قصيرة، وحول سيارته حرس يتقدمون على خيل تسير كأنها راقصة، حرس بألبسة حمراء مزوقة بخطوط خضراء وأزرار ذهبية اللون. يعزفون بآلات لماعة صفراء مثل التي عند الحاكم في القبيلة، فيحدث عزفهم أصواتا قوية مؤثرة، وكان بعض الناس يبكون من التأثر.

بعد مرور موكب السلطان تفرقت جموع المستقبلين، وكان الطباخون في الدار قد أعدوا غذاء متأخرا لعدد من أعيان القبائل المجاورة لقبيلة الوالد تواعد معهم العم (عم الولد) على الالتحاق به.

ويذكر الولد أنه استسلم للنوم إلى وقت العشاء. فقد كان بعض المزاحين يقول للوالد إن ولدك هذا يشبه النعناع، إذا تعرض لقليل من الشمس يلتوي. والواقع أن الوالد لا يغيب عنه أنه يرتكب بدعة غير مستحسنة من أقاربه بكثرة تدليله، لذلك كان يفضل ألا يتعرض الولد لتعليقاتهم.

رجع الوالد والولد إلى القرية في غده على متن حافلة المسافرين الذاهبة من مراكش إلى سوس، وهي التي تغادر مراكش في الخامسة صباحا. أما المعاونون فقد رجعوا مع الفرسان، يركبون تارة ويترجلون تارة، وهم يحملون ذكريات مشاهدة السلطان وأكل خبز قمح أبيض بالجنجل، على طريقة المدينة، وكفى بذلك أنهم قد تميزوا عمن عداهم من أبناء القرية الذين لم يعرف أحد فيهم كيف هي مدينة مراكش، وهي منهم على بعد لا يزيد عن أربعين ميلا.

بعد أيام قليلة من الرجوع من مراكش وقعت جفوة بين الوالد وبين ابن الطالب، والد الشاب الذي يحمل الولد فوق كتفيه، فهو زوج جدة الولد التي قطعت سرته عند الولادة، واسمها كبُّور، وزوجها هو المتعهد في الدار وعند العم الشيخ لأواني الشاي مع المعوق الأسمر بلال. وهو نفسه المؤذن المهلل في الصبح في مسجد القرية السفلى التي تقع تاوريرت في طرفها، وهو إضافة إلى ما ذُكر متعهد حديقة قريبة من الدار اسمها «تورتيت نايت عبلا» (حديقة بني عبد الله). فلكل أسرة كبيرة في القرية أراض للزراعة، ولها حديقة للخضر والفواكه لا تعطى للشركاء، ولكن يسهر عليها قيم متخصص.

كانت حديقة السي محمد هي أجمل الحدائق في القرية، ومن بين ما كانت تتميز به عن الحدائق الأخرى علو سياجها كأنه الجدار،

وضرورة الدخول إليها من باب مقفلة. ومتعهدو هذه الحدائق الخاصة يكرهون دخول الأولاد إليها كما يكرهون رؤية الجراد، ويحبون ألا تمتد يد غير يدهم إلى شيء من ثمارها، إذا احتيج إلى شيء منها فالقيمون أولى بقطفه أو قطعه بالوجه المناسب. كانت في حديقة السي محمد أشجار سفرجل كثيرة، وبعض أشجار التين التي لا يوجد مثيل لأصناف ثمارها في أي مكان آخر، وأشجار خوخ وبرقوق وعنب وليم وإجاص ومشمش، ولكن ميزتها الكبرى هي ما فيها من الورود العالية، كثيفة الشجر، وهي تعبق برائحتها فتفوح على الجهات المجاورة، ومنها ورود أخرى تزيينية ذات ألوان خضراء وبنفسجية من الصنف المعروف بسيف الغراب. وبجانب الأشجار والأزهار تمتد أحواض مرسمة تنبت فيها الأعشاب العطرية المستعملة في الشاي، مثل النعناع ورعي الحمام (اللويزة) والنبتة الناعمة (السالمية) وغيرها. وإلى جانب الفواكه والورود والأزهار والأعشاب العطرية، كانت أحواض مخصصة للخضار الموسمية مختارة البذور. وباختصار فهذه الحديقة بمحتوياتها هي مرآة تناسب الدار التي تعتمد عليها في عيش يتميز بالرقة النسبية، فكل شبر فيها يشهد على عناية متعهدها صباح مساء، ففيها قيلولته في ظلال رواق أقيم تحت شجرة الكرم البلدي، ولا يقبل هذا المتعهد إلا أن يطلب منه ما يحتاج إليه أهل الدار، فيتولى التقاطه أو حفره أو قطفه بالقدر الذي يراه مناسبا، ومن المكان الذي يحسبه مواتيا للنمو والنضج، وغيره من الناس في نظره لا يحسن ذلك، بل هو يحسب أيدي غيره أيادي سامة تزرع الأمراض في النبات، إن لم تقتله.

الذي أخرج ابن الطالب عن طوقه في ذلك اليوم هو أن الولد تسلل إلى الحديقة مع بعض رفاقه الذين يترددون معه على الكتّاب،

توصلوا إلى فتح المعراض الخشبي للباب بغير مفتاحه العادي، وبدأوا بقطف حبات من اللوز وهي بعيدة عن النضج، ولما فاجأهم المتعهد أخذ يصرخ، ولم يكتف بأن نعتهم بعبارته المألوفة وهي : «تسعة رهط» (يفسدون ولا يصلحون)، بل فاه هذه المرة بنوع من السباب قصد به الآخرين، ولكن الشتم شمل الولد أيضا، إذ لم يستثنه، وذلك بأن نعتهم وصرخ في وجههم بأنهم : «تاروا ن تسوكت» أي «أبناء الزقاق».

بلغ سباب ابن الطالب أذن الوالد، وكان بالمصادفة في شرجب من شراجب الدار المطلة على البساتين. والوالد كان حديد السمع بدرجة غير عادية، فكان يخبر أهل الدار في صباح بعض الأيام بازدياد في ماء النهر ليلا إذا وقع الإعصار في الجبل، والنهر بعيد بمسافة تزيد عن أربعة أميال وبينه وبين القرية مرتفعات. عندما تأكد الوالد أن ولده كان من بين الموجه إليهم ذلك الشتم من ابن الطالب غضب ووجه إليه عتابا لم يعهده منه، وكان الوالد قد ترعرع وشب واكتهل أمام عيني هذا الرجل، فلم يتحمل هذا الأخير منه ذلك العتاب، ولم يرض بما سمع، ولزم داره وأهمل الحديقة على سبيل الإضراب والاحتجاج. ويظهر أنه منع زوجته، الجدة كبُّور، من التدخل كعادتها في نوع من الشفاعة لتجاوز ما حدث. أما ولده المشتغل عند السي محمد فلم يظهر عليه تغير في سلوكه.

حدث أن رجلا جاء من قرية اسمها لارجام. ويذكر المتأخرون أن سبب تسميتها يرجع إلى عهد الموحدين، حيث نُسب للمهدي، مؤسس دولتهم، أنه كان يدفن بعض أصحابه باتفاق معهم ليسألهم عن صدق دعوته، كأنهم ينطقون من عالم الأموات بتأييده أمام الذين كان يريد أن يقنعهم بدعوته وإمامته من شيوخ القبائل الأخرى، وإذا

تحدثوا من تحت التراب وأدوا مهمتهم، قال للحاضرين : «ارجموا هذه القبور لكي لا تتسرب منها الشياطين»، فيرجمونها ويردم بذلك من فيها حتى لا يخبر أحد من المتواطئين معه بحقيقة ذلك الأمر. ولا يصدِّق هذا السبب في التسمية أناس من قبائل الموحدين المجاورة، ويعتبرونها دعاية من عهد الدول التي جاءت إلى الحكم بعد دولة المصامدة.

جاء هذا الرجل من قرية لارجام يريد مقابلة الوالد، وكانت له معرفة بابن الطالب، فبات عنده، وفي الصباح طلب منه أن يصحبه ليأتي إلى الدار، ولم يرد ابن الطالب أن يطلعه على ما وقع من الشنآن، لأن في ذلك إفشاء لأمور «عائلية»، فاضطر إلى مصاحبته لدى الوالد، ولعب دوره كقريب للعائلة كما كان يفعل، ورجعت بذلك الأمور إلى نصابها، لأن الوالد قال له من قبيل التوطئة للصلح: «لقد أتيتُ لك من السوق ببذور الباذنجان، وعليك أخذها من الدار، فهذا وقت زرعها».

أما الغرض الذي جاء من أجله الرجل فلم يذكره لابن الطالب، بل طلب من الوالد بعد تناول الفطور (والفضور (بالضاد) لا يطلق على القهوة والحريرة في الصباح، وإنما يطلق على طعام وقت الضحى قبل الخروج إلى العمل)، فطلب أن يختلي به. وبعد جلسة طويلة انصرف عائدا إلى بلده، وكأنما جاء على غير قصد ليكون سببا في رجوع ابن الطالب إلى الخدمة.

أخبر الوالد ولده أن الغرض الذي جاء من أجله الرجل الأرجامي هو طلب مساعدة الوالد له على النبش عن كنز يظن الرجل أنه مدفون تحت صخرة بيضاء قريبة من الدار، تاوريرت، قال إنه أخبره به بعض المتعاملين معه من الجن. وحيث إن الوالد كان صعب

التصديق بمثل هذه الأمور فقد أعطى الرجل حمل دابته من الشعير تقديرا لكونه من حفاظ القرآن، ثم صرفه قائلا : «سأفكر في الأمر وأرد عليك الجواب، لأن إزالة الصخرة البيضاء سيوقعنا في شبهات تجر علينا تحقيقات مزعجة»، ويقصد أن ذلك سيبلغ الحكام ويعطيهم فرصة للتوجس والتسلط، وهو في الحقيقة إنما أراد صرف طالب الكنوز إلى حال سبيله.

في اليوم الموالي للذي زار فيه الرجل كان الولد يعاني من الحمى بحيث لم يذهب إلى الكُتَّاب، بل لازم الفراش، وفي وقت نزول الظلام، وهو ممتد تغطيه ملاءة فوق حصير في غرفة والدته بالدويرة الصغرى، سمع الوالد وهو يعاتب العون ابن الطالب (الصغير) لأنه لم يذكره بشراء الحجر الذي تشتغل به القناديل، إذ لم يوجد شيء منه عند أحد من المتاجر الثلاثة التي بالقرية. والولد ابن الطالب متخصص في إعداد ما بين خمسة وعشرة من القناديل تضيء بالحجر كل عشية.

وقع الاكتفاء في تلك الليلة باستعمال الشمع في الإضاءة، وهو أقل توهجا من إضاءة قناديل الحجر. والذي أثار غضب الوالد أنه كان في تلك الليلة بالذات بحاجة إلى ضوء وهاج لأنه دخل إلى الغرفة التي كان فيها الولد مسجى، ومعه كيس من الأوراق المالية، تلك هي حصيلة الضريبة المسماة بالترتيب.

كان الشيوخ يتلقون الموظفين المخرصين الذين يقدرون التوقعات من محاصيل الزراعة، ثم يأتي مراقب الترتيب ليسجل الناس في كناش التقويم، ثم يتلقى الشيوخ ورقة باسم كل مكلف وفيها ما حسب عليه من أملاك، والقدر الذي ينبغي أن يؤديه في أجل معين.

وعندما يحل الأجل يكون الشيخ قد جمع كل المستحقات على أهل مشيخته، عليه أن يحملها إلى مراقب الترتيب الذي يوجد مكتبه في مركز الدائرة الإدارية.

جاء أجل الأداء في ذلك العام وأدى الشيخ عن «إخوانه»، أي أهل قبيلته الذين تأخروا أو عجزوا، ولما كان هو شخصيا مصابا بوعكة صحية فقد كلف الوالد بالنيابة عنه في حمل الواجب إلى الإدارة كاملا.

أعاد الوالد حساب ما في الكيس من أوراق المال، وقارنها بما في السجلات، ثم التفت إلى الولد بعد أن وُضعت مائدة العشاء وتمنى لو قام وأكل، أما الولد فلم يهمه العشاء ولا مرضه، ولكن اهتمامه كان لما هو آت من تغيب الوالد يومين أو ثلاثة أيام. وكل ما وجد للعزاء أو الاحتجاج هو أن طلب ورقة من تلك الورقات المالية الحمراء الكبيرة. وقد اصطلحا على أن يضع الوالد الورقة المالية في كوة بجدار الغرفة إلى أن يستيقظ الولد ليأخذها في الصباح، وهو يعلم أن الولد سينسى الموضوع برمته، إذا ذهبت عنه حمى المرض الذي زاد من تقلب مزاجه.

عندما استيقظ الولد في الصباح لم يعوضه عن غياب والده شيء، سوى أن أمه قالت إن الوالد أوصى بألا يذهب إلى الكتَّاب حتى تذهب حرارة جسمه كلية، وزاد في تسليته أن بعض الرعاة جاء بأرنب وقعت فجر ذلك اليوم في مصيدته.

قد يكون الوالد هو الذي أوصى الراعي بالقيام بهذه التسلية إشفاقا على ولده في علته وحزنه بغياب والده، وكان هذا الراعي، واسمه باحسين، سعيد الحظ في الصيد، لأن إيقاع الحيوان في المصيدة هو في نظر الناس مسألة حظ أكثر مما هي مسألة مهارة،

ومع ذلك فإن الجميع يشهدون له بمعرفة مواقع نصب المصايد، ويحسن التعرف على بعر الأرانب حيث تمر، وكيف يضع لها أغصانا من شجر يسمى إِمِثْك، تقودها إلى حتفها، وهو يعرف كيف يناقش الحدادين في إتقان صنع أجزاء مصاييده. وكان ممن أدرك الصياد الشهير الذي نصب مصيدة وقع فيها أحد أواخر فهود الأطلس في قرية تقع في عمق قلب وادي ويرگان، واسم هذا الصياد أعلاكّي، وكان يوم اصطياد هذا الفهد يوما مشهودا لا يفتأ الناس يذكرونه.

من أهم أسرار نصب المصايد في نظر باحسين طمس آثار يد الآدمي ورجله بعد وضع المصيدة، أي طمس رائحته التي لا تخفى على الحيوان وتجعله يغير المسار. لا يستنكف باحسين من وضع المصايد للحجل أيضا، لأنها، لثقل جسمها بالنسبة لقصر أجنحتها، لا تحتاج إلى مصيدة حديدية، وإنما تنصب لها مصيدة يصنعها كل الأولاد من عود رطب قابل للانثناء وخيط يصنع منه طوق يوضع في وسطه طعم يطلبه الطائر مثل حبة الذرة أو حبة فول. ولهذا الصياد خبرة في كل ما يهم مطاردة الحيوان، فهو الشخص الذي يلجأ إليه الفلاحون لصنع حفر يقيمونها في مداخل حقول الذرة التي يعيث فيها الخنزير البري فسادا. فهذا الوحش النتن، أي الهلوف، لا يستحق لبلادته مصيدة كمصيدة الفهد، بل تكفي في إردائه حفرة تُصنع له على حجمه في منافذ حقول معينة، فإن وقع فيها لم يتمكن لا من الصعود ولا من الحراك، فيهوي عليه الفلاحون بالضرب ويقتلونه، ثم يدفنونه ما دام لحمه محرما عليهم أكله. والسر كله في حجم الحفرة ومقدار عمقها ومكان إقامتها وكيفية تغطيتها وإخفائها برميم الأعشاب.

الواقع أن الخنزير البري، أو الهلوف، كان محميا من حارس الغابة، نصراني يرافقه معاون من المخازنية، يركب الأول الحصان

ويتبعه الثاني على البغل، والناس لا يستسيغون أن يحاسبهم الحكام على قتل الخنزير، وهو الحيوان الذي ينزل من الشعاب ليلا ليعيث فسادا في حقولهم، ولا سيما حقول الذرة عندما يكون فريكا. لذلك ترى في الصيف أن في كل حقل فلاحا يبيت ساهرا معذبا مواظبا على الصراخ لطرد الخنزير كلما سمع ما يشعر بأنه دخل إلى الحقل. ومن الفلاحين من يستبد به النوم فيصبح وقد ضاع جزء من غلته لأنه لم يتفطن للحيوان متى دخل إليها، لذلك كان التواطؤ قائما على مدافعة هذا الضرر دون أن يصل الخبر إلى حارس الغابة النصراني، فالناس كانوا يرون أن كل السر في الحرص على حماية الخنزير هو في توفير لحمه للنصارى الذين يأتون لصيده في موسم معين. وقد حكى العون ابن الطالب أمام الولد الصغير ذات يوم أنه كان، وعددا من أقرانه الشبان، يستفزون الطرائد لتخرج من مكامنها بالصراخ وباختراق مخابئها المتشابكة الأغصان في الغابة لتتجه إلى حيث ينتظرها صيادون من النصارى جاؤوا من مراكش. وقال الحاكي إن خنزيرا ضربه صياد بالرصاص فاعتدى، وهو مجروح، على صياد آخر وجده أمامه وجرحه بنابه الطويل جرحا بليغا، لأن الخنزير المجروح فاجأ الصياد الآخر وهو منشغل بتبادل العواطف مع زوجته المصاحبة له، وبندقيته ملقاة أرضا، فلم يتمكن من استعمالها في الوقت المناسب للدفاع عن نفسه.

يتذكر الولد أن الخادم عندما حكى هذه القصة سمعها منه دون أن يرى ملامح وجهه لأن عيني الولد أصيبتا بمرض من أمراض الصيف، وكانت عليهما عصَّابة ثوب، لأن الأطفال قلما يمر فصل صيف دون أن يصابوا بمرض العيون، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا حال المستنقعات التي كانوا يسبحون فيها والأتربة التي كانوا بجريهم

يثيرونها. فإذا كثر العمش ولم يتفطن المصاب إلى غسل العينين بماء سخن وضع فيه ملح، واشتد فركها، انتفخت وسدت لعدة أيام، حتى تبرأ بحسب نجاعة الوصفات التي تدور كلها حول كمد العينين بأعشاب تعصب عليها بمنديل، وقد تكون تلك الأعشاب هي بقية أوراق الشاي والنعنع في الإبريق بعد شرب الشاي، وإذا طال المرض وقع اللجوء إلى بعض الحجارة المعدنية المسحوقة، يسمونها الحديدة الزرقاء، يظنون أنها تقتل المرض إذا اشتد وطال في العين.

آفات فصل الصيف بالنسبة للأطفال عند مرض العيون، لأن حركتهم الزائدة على المعتاد في هذا الفصل، وطيش فضولهم المتجدد، وعدوانهم على الطبيعة بجميع مكوناتها، يعرضهم للمهالك، فمن ركلات الحمير والبغال، إلى السقوط من فوق الأشجار، إلى لسعات العقارب والثعابين، إلى عضّات الكلاب، إلى انحصار الطعام في الأمعاء من فرط أكل ثمرة الصبار[1]، إلى ما يضاد هذه الحال، أي الإصابة بالإسهال من كثرة أكل المشمش أو التين على الخصوص، إلى التعرض لهجوم النحل إذا أرادوا سرقة العسل من أجباحه.

من ذكريات الولد من هذا القبيل، أن أحد أبناء عم والده الشيخ عمر، أراد أن يأخذ عسلا من أجباح في الحديقة المجاورة للدار، فهاجمه النحل، وجرى حتى غطس في صهريج ماء يستعمل في الري، فلما علمت ضرة أمه المحظية عند أبيه بتلك الجسارة، سلطت عليه خادماتها فتقبضن عليه بحيث لا يستطيع حراكا، وأخذت

(1) المعروفة في هذا الوسط بأكناري، علامة على أنها نبتة هاجرت من أمريكا إلى المغرب مرورا من جزر كناريا.

هي تصب العسل في فمه عقابا له وهو يصرخ. وبكل هذه المصائب التي يقع فيها الأطفال جراء شقاوتهم تعظم محنة الأمهات حيث ينشغلن بجبر الكسور وكمد الرضوض وطبخ المحاليل المضادة للسموم إلى إفراغ الطعام المنحصر في أمعاء الأطفال باستعمال المغزل من الأست، إلخ.

أصاب الولد شيء من ذلك في هذا الصيف، زيادة على مرض العينين. كان للوالد حقول تزرع بالحبوب في المحاط الفلاحي المجاور للقرية، وهي مما يسقى، وسنابلها تحمل بعد النضج إلى البيدر الذي تحت جدار الدار، وحقول في محاط بوري أبعد يسمى أمزاورو، لانبساطه، ومعناه الميدان الذي تجري فيه الخيل، وسنابلها تدرس في بيدر أوسع وسط طين يسمى بوالخير، وحقول أخرى في القرية المسماة بالعزيب، في أقصى طرف القرية، وليس به سوى أطيان لبعض العائلات الكبرى مع حظائر لماشيتها من الغنم لقربها من المراعي في الغابة. وسنابل حقول العزيب هذا يتم دراسها في بيدر بملك يسمى بور العزيب، أعلى الدار التي بها زريبة غنم السي محمد، وبها سكنى الفلاح الذي يزرع حقوله على سبيل الخماسة.

في اليوم المعين لدراس سنابل ذلك الصيف من حقول العزيب، قمحا وشعيرا، اصطحب الوالد ولده على ظهر بغلته، ووصلا إلى عين المكان في أول وقت الضحى، ونزلا. وبينما كان الوالد يدق وتد رباط البغلة بجانب ذلك العرام العظيم الذي سيدرس من السنابل، تحرك الولد إلى الجهة الأخرى من البيدر، فإذا عدد من الكلاب كانت تقيم على حاشية كدية السنابل، ولما ظهر أمامها الولد قفز منها كلب أو كلبة فعض الولد في ساقه وهو هارب من رؤيتها، فصرخ وارتفع صوته بالعويل، فأدركه الوالد في تلك الحال من الهلع

ورأى أن باطن ساقه قد دميت، فحمله، وتجارى لتدارك الموقف من كانوا هناك من الخدام والخماسين والمتعاونين ممن سبقوا في الوصول، وقد جاؤوا ببغالهم وأحصنتهم للدراس، لأنها مناسبة من مناسبات التطوع التضامني، إذ المالك، أي الوالد، ليس له العدد الكافي من الحيوان لإنجاز ذلك العمل لوحده.

ذهبوا بالولد الذي عضه الكلب إلى الدار هناك، وهي الدار التي يسكنها الخماس، ورشُّوا وجهه بالماء البارد الذي به شيء من القطران، وعصبوا رجله الدامية لوقف النزيف، وأتوا بأوراق الجوز فعصروها على الجرح، وجاؤوا بأعشاب مقطرة فسكبوها في حنجرته إكراها، وغطوه ونام في غرفة عالية لها نوافذ لا مسادَّ لها، يدخل منها الريح محملا إلى الغرفة بنسيم عليل هو أبرد ما في ذلك الجو الحار خارج الدار، تعطره رائحة الحبق تزرعه النساء في تراب موضوع في أواني من الفخار تتوسط تلك النوافذ. ومع الحبق غنباز يصلح للزينة بزهرته الصفراء كما يصلح لطرد الذباب.

نام الولد في النسيم العابر بين نافذتين ولم يحضر انطلاق الدراس، ولا حضر ذبح الشاة التي سيكون منها طعام المتطوعين، ولما أيقظوه للغذاء كان الوالد ومن حوله من الأصحاب، كأنهم في نشوة، سيما وأن عضة الكلب على ساق ولده لم يترتب عنها أي تورم أو انتفاخ أو ألم. والفلاحون لا تخفى عليهم أسباب التئام مثل ذلك العدد من الكلاب، وفي أي الأحوال تصدر من كلبة تصرفات عدوانية، ما عدا حالة حمايتها لجرانها الصغار.

بينما كان سرب كبير من الحيوان، البغال والأحصنة، يدك جبل السنابل لتحيله إلى صعيد من التبن والحبوب، وهي مربوطة بحبل واحد حول أعناقها يجعلها تدور حول مركز قار وهو الخشبة

الوسطى، والشبان المتناوبون على طردها يصرخون وراءها في حماس، كان الوالد ومن معه يحتسون كؤوس الشاي بنعناع من رعاية القائمين على العزيب. فكل غلات هؤلاء متميزة، فلفل لا تطاق زعاقته، يخلق سعادة بعض النساء اللائي يتحملن أكله بلذة يصاحبها احتقان الوجنتين بالدم وانفجار العيون بالدموع، ونعناع أسود القضيب قوي الرائحة العطرة، وباذنجان يشبهون سمرته الممتزجة بالخضرة بخدود الإماء السمر اللامعة.

لما أنهى المشتغلون بالدراس مهمتهم اغتسلوا مما تطاير عليهم وعلق بجلودهم من مسحوق التبن المديس، وجاءوا إلى الغرفة التي كانت فيها الجلسة بدار متعهد العزيب، وأحضرت قصعتان من الكسكس، وعلى كل منهما نصف شاة مطبوخة بكاملها. ولطعام ختم الدراس بعد العصر تقاليد وطقوس. فبعد تناول طعام الكسكس باللحم، وأثناء شرب الشاي الذي يلي الأكل، تدخل امرأة متزينة وفي يدها طبق من السمار مزوق، وفي الطبق باقات من الحبق ومكحلة ومرود ومرآة. تنسحب المرأة بعد أن تضع وسط جماعة الرجال ذلك الطبق المسمى بطبق البيدر (أسْكّي ن أو نرار)، فيبدأ كل واحد من الذين اشتغلوا في الدراس من الشبان والكهول بشم الحبق ووضع الكحل في عينيه واستعمال المرآة في التزين، ومثل ذلك لا يصدر علانية من الذكور إلا في هذه المناسبة. وأثناء التزين تصدر منهم تعليقات كلها إشارات إلى المعاني الكامنة في إسداء الشكر لهم بأسلوب مناسب، ينم عن تحية فحولة أعطت الدليل على قدرتها في الإخصاب، وحسن الرعاية من بداية الحرث إلى نهاية جمع المحصول. لعل ذلك الطقس رمز لحب الأرض وتجديد شهوة عشقها وهي تعبق برائحة خارجة من أحشائها عبر نبتة الحبق المهيج،

كيف لا والأرض ما تزال تعبر عن شدة خصبها بالعطاء، فمن حق هؤلاء الفحول الذين استولدوها بعرق جبينهم حتى خلفت هذا الخير المتمثل في السنابل أن يأخذوا من تلك الزينة نصيبهم ويروحوا إلى أهليهم بعد العودة في المساء على تلك الحال من التشبب والمزاحمة للنساء وهن محل خصب من نوع آخر.

عندما يتأمل المرء تلك الطقوس يظهر له أن مناسبتها تجمع بالفعل بين تقدير الشغل وبين الاحتفال وأشياء أخرى لم تكن تقال، لأنه لو تعلق الأمر بمجرد شغل يتوقف على خدمة لكانت كلفته بدفع الأجرة أقل من كلفة هذا الاحتفال. وحتى الحرث والسقي والحراسة والتنقية وكل مطالب إنماء الحرث إلى غاية حصاد المحصول، مع عدم التيقن من كفاية المطر اللازم، أعمال أشبه ما تكون بالطقس المقدس إذا قيست بالمجهود المبذول فيها كل عام، على نفس المواعيد والعوائد، فالسدر ينبت كل عام ولابد من قطعه ليمر المحراث فوق عروقه دون أن يتكسر، ولكي تستنبت الدوائر التي يغطيها الشوك، ولكن قطعه لا يمتد قط إلى اقتلاعه من جذوره، لأن ذلك يتطلب الاشتغال بين فصل وفصل، بينما الصيف يغلب عليه الاحتفال.

يمر بأبواب الدور في الصيف أيضا عدد من المتجولين أفرادا، من المنتسبين إلى أموات من الصلحاء، بعضهم من تلك الجهات وبعضهم من أماكن بعيدة في الجنوب، لا تستطيع أن تشبههم بمتسولين، وإن كان مطلوبهم هو الحصول على شيء من الزرع، لأنهم من نسب مبجل معترف لهم به، ولأنهم يؤثرون على سكان كل دار، إذا وصلوا إلى بابها، برفع الصوت، بأذكار بعضها وعظ وبعضها تهوين من قدر الدنيا، وهي منظومات باللغة البربرية، فكأنهم

يحملون إلى الناس تذكيرا وبركات لا يقاس بها ما يمكن أن يحصلوا عليه من الصدقات. ومن أشهر هؤلاء الوعاظ المتجولين منتسبون إلى الشيخ محمد ابن يعقوب الذي توجد ذريته بزاويتهم بإيمي ن تاتلت بأعلى جهة وادي سوس.

يمر، عدا هؤلاء، عدد من الحواة الذين يحمل الواحد منهم ثعابين في صندوق أو في صندوقين، يخرجها ويفرض عليها نوعا من السكون أو الرقص بفضل الضرب على دف في وسطه خيط رقيق مرتعش من الجلد، يحدث ذبذبات تؤثر على الثعابين. والواحد من هؤلاء الحواة يحمل في الغالب أفعى رقطاء قصيرة وحنشا أسود واسع الرقبة كرأس المغرفة، يرتفع بنصفه الأمامي فاغرا فاه ليلقي إلى خارجه لسانه الرقيق، وليظهر أنيابه السامة التي بها ينهش إذا اعتدى. ينتسب هؤلاء الحواة إلى الشيخ محمد بنعيسى، دفين مدينة مكناس. ومن البركة الموروثة عند هؤلاء الأحفاد الحصانة ضد سموم الأفاعي والحصانة ضد لهيب النار وحرارة الماء الساخن. وفي القرية أولاد أشقياء ممن لا يصدقون هذه البركات ويتخيلون أن العيساوي إنما يتحايل على الثعابين حتى يعصر سمها في الأرض فتغدو غير ذات خطر، لذلك تجدهم يدعون العيساوي، كلما حضر إلى القرية، لكي يخلصهم من ثعبان في جحر مَّا في دار مَّا يكونون قد رصدوا مكمنه، والغالب أن قصدهم من ذلك اختبار العيساوي وتعريضه للمخاطرة أو دفعه إلى الاعتذار وانصرافه المثير للاستهزاء.

يفد على القرية كذلك الهدَّاويون المنتسبون إلى الشيخ عبد الهادي العلوي المعروف بسيدي هدِّي، وهم يتميزون بقوة الأبدان وشبه تجرد من اللباس وبشعث الشعر وارتجال أقوال تدور على الحكمة، يحفظها عنهم الناس إذا كان الهداويون ممن يتكلمون

برطانة أمازيغية تتميز باللحن المتعمد. والناس يرون في استعمالهم الناشوق أو في تدخين التبغ عبر غلايين طوال نوعا من التمرد الذي يكمن وراءه سر يجعلهم غير عاديين، سيما في هذا الوسط المنبهر بكل ما هو عربي اللغة. وضرب الهداويين على الدف الأسطواني الخزفي المعروف بالدعدوع يزرع الرهبة في صدور أبناء بيئة لا تحتمل إلا دفوفا رقيقة الصوت.

من أهل هذا الوسط من لا تخدعه تلك المظاهر، فقد حكوا قصة طريفة عن أحد أعمام الوالد، واسمه الشيخ بوقدير، وقد أدركه الولد، وكان يسميه عمي بوقدير، وكان مكلفا بالتدبير الداخلي لدار العائلة الكبرى، عائلة أيت وحمان، لما كان كل الإخوة فيها مجتمعين، فهو لا يسافر إذا خرج الآخرون في أشغال ومهمات. حكوا عنه أن هداويا جاء إليه وهو جالس بالدكة الكبرى التي على جانب المدخل العام للدور الفرعية، وكان الوقت وقت عصر، في زمن بداية الخريف، فقال الهداوي : «يا سيدي! أنا ضيف الله!» (بمعنى أطلب أن أبيت عندكم وتقوموا بضيافتي على السنن المعهود من إكرام ابن السبيل). فتركه العم ودخل إلى الدار ثم رجع وفي يده شمعة مضيئة ووضعها أمام الهداوي الذي حط رحاله. وقصده أن يرد على طلب الضيافة وكأنه يقول له : «كان طلبك يُقبَل لو أدركك الظلام عندنا، أما وأن في ضوء النهار بقية توصلك إلى القرية التي بعدنا، فقد أسففت في طلبك!».

يحتفل أهل القرية بعدد من المطربين المعروفين بالروايس، من المستعملين لآلات لا يعرفها الطرب الجماعي المحلي المقتصر على الدف والتصفيق، بينما يستعمل هؤلاء الزفانون الربابة وآلة وترية هي نوع من الكمان، كما يستعملون الناقوس والناي. وهؤلاء هم إما من

بقايا جوقات ولدت في دور كبار الحكام المحليين، من القواد والشيوخ، في قبائل الأطلس الكبير وجهة سوس، وإما أنهم من المقلدين لبعض تلك الأجواق.

لكن الفرقة الكبرى التي تخلق جوًا جماعيا يلزم كل أهل القرية، كلما مرت بعد تقديم الإعلام، هي الفرقة المسماة إهياضن، لعل اسمها مشتق من الفرجة المشفوعة بالحركة والصراخ، وهي تجمع بين فرجة اللعب البهلواني وبين متعة الطرب والتمثيل. تتكون فرقة إهياضن من بضع عشرات من الأفراد المتمرنين على الحركات البهلوانة، يؤدونها بينما جوقة منهم تعزف على الدف والناي إيقاعا قصيرا مناسبا، ولهم أناشيد تصاحبها هتافات وحركات منسجمة تثير الإعجاب، لأن أصحابها يقيمون طبقات عالية إذا أردف بعضهم بعضا وإذا لعبوا أفرادا، تشعر وكأن أجسامهم الطائعة للالتواء لا عظم فيها، على حد تعبير أهل البلد. فحركاتهم تتجاوب مع إيقاعات الدف والصنج والناي في استعراض بديع يستطرفه أهل القرية المعتادون على حركات أقل تلونا في طربهم الجماعي المعروف بأحواش. ثم إن اهياضن يتميزون ببدلاتهم الملونة الموحدة المكونة من قمصان وسراويل بهيجة الألوان، بينما يخرج أهل هذا البلد إلى الطرب في ملابسهم العادية.

تعد ضيافة فرقة إهياضن واجبة، لا لأنهم يقدمون فرجة معجبة فحسب، بل لأنهم قبل كل شيء أجانب لا بد من إكرامهم، سيما وأنهم ينقلون المحاسن والمثالب خلال جولاتهم على القبائل. وربما عبروا عن مشاعر تقديرهم للضيافة قبل المغادرة في اليوم الثالث. وهذا الشعور هو الذي يحمل الناس في القرية على التضامن في رفد

هؤلاء الوافدين العابرين، وأما استعراضاتهم فتتم بعد كل عصر في الساحة التي أمام دار الشيخ، عم الوالد.

وقد حكوا أن شخصا ذهب إلى الفرقة عشيةً بعد أن حلّوا للمبيت في القرية ذات مرة، فدفعه فضوله إلى أن يسألهم: من هو المهرج الذي يضحك الناس في فرقتكم؟ فأجابوه: غدا سنرى من هو «الضحكة» حقيقة. وكان قد ظهر لأفراد الفرقة في ذلك المرور وكأن القرية قد فوجئت بحلولهم، وأن الاستعداد اللازم لم يتخذ ليقدم لهم طعام العشاء على الوجه المطلوب. وكان الأمر كذلك، فلما غادروا بعد يومين وحلوا ضيوفا على القرية المجاورة أرادوا افتتاح فرجتهم بهجاء أهل القرية الذين فرطوا في القيام بضيافتهم، لكن الجماعة الذين حلوا بين ظهرانيهم أوقفوهم عن عزمهم رعيا لمشاعر الأخوة والجوار بينهم وبين أهل قرية الولد.

بحضور مثل هذه الفرق يختل النظام العادي للقرية، ويشعر الناس وكأن الفرجة قد طغت ومالت بهم عن الصرامة المألوفة في حياتهم. وفي هذا الجو من ذلك العام أتى تاجر من المدينة بأوراق كبيرة من تلك التي تلصق على الجدران، وعليها رسوم لهياكل عظمية باللون الأسود ومسامير وكلاليب وعقارب وأفاع وغير ذلك من الأشياء المخيفة، وكان تقديمها للبيع على أساس أنها من جملة ما يستعمل في عذاب القبر الذي ينتظر في الآخرة كل المفرطين اللاهين في الحياة الدنيا.

كانت فرصة الكلام عن هذه الرسوم سانحة للطالب المذرّر الإمام في المسجد لكي يعيد فتح الحديث في هذا الموضوع، موضوع عذاب القبر. وقد حمل الوالد أقوالا من حديث الإمام إلى الدار ومعه نسخة من تلك الرسوم. ربما كانت تلك أول ليلة هجر فيها

النوم عيني الولد تحت تأثير مخاوف الآخرة وهو لا يدري ماذا تعني، وإنما تأثر بما حكاه الوالد أمامه للنساء في الدار وبمنظر تلك الرسوم، ولا سيما رسوم العقارب والكلاليب.

لم تمض سوى أيام على مرور فرقة إهياضن بالقرية حتى وقع أمر شغل الناس بالرغم من أنه لم يكن من الوقائع التي تستحق كبير الاهتمام. إنه فرار راع من رعاة عائلة الشيخ، يسمى ابريك، وُلِدَ في هذه الدار وكبر فيها، إلى أن جاوز الثلاثين وهو لا يعرف غير الاستيقاظ في الصباح وشرب حريرة الفطور والتزود بخبز وإدام، وإخراج الغنم إلى مراعي الجبال، إلى حيث تسام من وقت الضحى إلى غاية غروب الشمس. وهو مثال حي في عَيِّ الكلام والسذاجة في التفكير وسلامة النية والتأدب مع كل أسياده وكل الناس من الصغار والكبار، وهو لبراءته جزء من داخل الدار، لا يقف عند حجاب، كما هو امتداد لها في الخارج، لا يعصي أمرا، وإن كان من البطء بحيث يثير الغضب بل والشتائم في بعض الأحيان، وهو في تصرفاته لا يبالي بمن حوله، بل يواجه الجميع باستبشار هادئ لا يغادر صفحة وجهه. كل عالم هذا الراعي الأسمر يتلخص في ما قضى من حياته مع الغنم في القمم، وهو وقت أكثر مما قضاه مع الناس في دار أسياده، وأقل منه اجتماعه مع غيره في القرية، وكل من فاتحه بالحديث لا بد أن يصبر على انتظار جوابه المتعثر. وهاهو في ذلك اليوم يخرج عن الطوق ويغادر القرية تحت ظلام الثلث الأخير من الليل.

لم يصدق أحد أن الراعي الأبق يعرف طريقا إلى بلد آخر، وتشكك الناس في أن يكون بعض تجار السهل العرب ممن يأتون لشراء الملح قد سرقوه ليتخذوه راعيا، وتشكك آخرون في أن يكون

لهؤلاء طمع في مثل هذا الشخص المعوق الكلام حتى في لسان البربر، بله أن يقدر على التفاهم مع ناس من ذوي اللسان العربي العريق، وهو لسان غاية في الطابع البدوي الذي يتندّر حوله حتى أهل المدينة في مراكش.

انطلقت الألسنة في دار أعمام الوالد لمعاقبة الخادم الفار بالتهكم عليه، فبدأوا يتخيلون أين يمكن أن يحط رحاله، وهم على يقين بعجزه عن كسب قوته، إذ لم يتصور أحد يوما أن يصدر منه ما صدر، لأنه معتبر ممن لا يقررون ولا يفكرون ولا يتمنون ولا يتطلعون إلى غير ما نشأوا وشبوا عليه.

تصوره بعضهم قد وصل إلى المدينة، مراكش، بعد يومين أو ثلاثة من المشيوقد حصل في طريقه بالتسول على قوته من قرية إلى قرية، وتصوروه هناك في المدينة يكتشف الساحة الوسطى المعروفة بجامع الفناء، وأنه رأى الأطعمة المتنوعة المعروضة، من الحريرة إلى كراع البقر المطبوخة في مرق بالحمص، إلى الخبز الأبيض تعرضه للبيع نساء متنقبات قد لا تقل حواجبهن سوادا ولا جفونهن كثافة ولا غررهن بياضا عما عند نساء دار سيده في إِمَرِغْنْ. تصوروا لعابه قد سال أمام منظر الأكل المعروض وهو جائع، فجلس مع الجالسين على كرسي خشبي جماعي ممتد طويل، فطلب الطعام وقدم له كل ما سأل، ولما شبع قام يريد الانصراف على عادته في دار أسياده، فأوقفه أصحاب المطعم وطالبوه بالمال مقابل ما أكل، واستغرب من السؤال لأن الطعام في كل حياته لا يباع ولا يشترى، وهو فوق ذلك لا يعرف المال ولا يعرف النقود، وعندئذ هوى عليه أصحاب المطعم وأشبعوه ركلا ولكما ورفسا؛ فما كان منه إلا أن أفاق من غفلته وفهم الفرق الكبير بين البادية والمدينة، فما كان منه

إلا أن سب وشتم مراكش، لأن أهلها لا يعرفون حقوق الضيافة، فغادرها راجعا إلى قريته وأهله نادما.

كانت الخادمات أقسى في التندر على ابريك، لأنهن فقدن فيه الشخص الوديع، ومن وداعته أنه كان لا يتضايق من تعييرهن له بلكنته وبعيه، فهو لا يكاد يبين، وكان إذا لم يخرج في السراح لا يتردد في تقديم المعونة لأي خادمة إذا كان عليها أن تحضِّر طعام الظهر وطعام ما بعد العصر، بل كان ابريك يعين الخادمات حتى على فلي شعر رؤوسهن وتنقيته بالأظافر من القمل، وكم كان يحسن ذلك!

عاد ابريك من مغامرته ووصل إلى القرية ظهر يوم من الأيام قبل انصرام شهر على غيابه، وشاع خبره، ولم يمد له صاحب الدار يده للسلام، وتعرض بالخصوص لنقمة الخادمات اللائي واجهنه وأعملن فيه مزيدا من مناقير ألسنتهن اللاذعة، وأرهقنه بالغمزات القارصة، وهو يجيب بسذاجة عن أسئلتهن الماكرة بخصوص الاستقبال «الحار» الذي سعد به في المدينة، ثم عملن على إرهاقه بعبارات الشماتة التي يستحقها في نظرهن كل من لا يشكر حاله حيث هو .ومنذ حادثة فرار ابريك والناس يرددون ما أشيع عنه في حكمه على المدينة التي تأخذ مقابلا عن كل شيء حيث أجروا على لسانه أنه قال: «لعن الله مراكش، حيثما جلست يطلبون منك ريالا».

وجد ابريك مكانه في رعي الغنم وقد حل فيه غيره من الرعاة، وكانت تلك خيبته الكبرى، فقد ظهر وكأنه فائض عن حاجة الدار، فالفلح وأشغال الزراعة هي من الأمور التي فاته تعلمها في الصغر، إذ أنه منذ صغره تخصص في الرعي حتى كان يقال عنه إنه يستطيع أن يسرح مآت الأغنام طيلة يوم، يمشي وراءها وهو نائم، فلا يضيِّع رأسا ولا يكسر كراعا، تحبه الكلاب ولا تقترب منه الذئاب.

حزن ابريك حزنا شديدا لأنه بعد بطالته من الرعي صار يؤمر بأشغال لا يحسنها، الأمر الذي يعرضه لمزيد من السخرية والشماتة. فالحرث يتعلمه الطفل في هذا البلد وهو أقل قامة من علو مقبض المحراث، ورمي البذور بلا تقليل ولا تكثير من الفنون التي لا يمكن ارتجالها، وقطع السدر لا يحسنه إلا من تمرس بالقبض على الشفرة، وإتقان الضرب بها دون تشنج اليد ودون تراخ تنفلت به من يد الضارب، وتوضيب الأحواض لتسهيل السقي يتم بجرّاف يحركه شخصان متقابلان، يحركانه بدقة راقصين لا تتصادم أرجلهما، والري، ولا سيما الليلي منه، يحتاج إلى مهارة في التعامل مع مصارف المياه وسد أماكن الرشح، أما الحصاد فلا تناسبه قامة ابريك الباسقة، إذ لم ينحن في حياته إلا لتقبيل يد سيده في الصباح، ولم يأخذ بيده منجلا قط.

كان ابريك يشعر بانحطاط قدره إذا طلب أحد منه سخرات مثل مرافقة خادمات لحمل الزرع إلى المطاحن التي تدور بقوة تدفق الماء على سواقي وادي ويرگان، وكان من هؤلاء الخادمات عفريتات متحكمات لا يشق لهن غبار في الكلام والتصرف، وقد يحلو للواحدة أن تجعل على بغل قوي تليسا مطرقا مملوءا بحبوب الحنطة المراد طحنها وتقفز راكبة فوقه، وتترك البائس ابريك يجري وراءها لاهثا وهو الذي تعود على أن يسير الغنم بسيره ولا ينفق أنفاسه إلا في النفخ في الناي في أعالي الجبال، ثم إنه يجري والخادمة الماكرة تشعره أنها في تلك اللحظة تلعب دور السيدة وهو مكره في دور خادمها، وإذا وصلوا إلى المطحنة عشيةً فهو يتوقع أن الخادمات سيستسلمن للنوم وهو الذي عليه أن يزيد الزرع في الوعاء الذي تنفرط منه الحبوب من فوق عين فلقة المطحنة، كلما أوشك على

الفراغ، وهو وعاء يخلخل بحركة الشق الدائر من الطاحنة الحجرية، ويترتب عن تلك الخلخلة سقوط متوال لقدر من الزرع لا يزيد عما تطيقه قوة الفلقة العليا من الأسطوانة الحجرية الدائرة، ولا يجوز أن ينقص عما تتطلبه، فلابد من عين ساهرة تعدِّل ذلك النظام.

كانت حاجة دار المشيخة إلى الزرع بالقدر الذي يستدعي الذهاب إلى هذه المطاحن المائية بحملين أو أكثر من الزرع مرتين على الأقل في كل شهر، علما بأن في الدار أكثر من مطحنة حجرية يدوية صغيرة تديرها النساء بأيديهن بالتناوب للحاجات العادية أو المستعجلة كل يوم. وكم شقيت أم الولد بإدارة هذه المطحنة المنهكة.

لكن أشق الأشغال على ابريك هو إرغامه من قبل الخدم المكلفين بجلب الحطب على معاونتهم، وهو لا يقوى لا على استعمال الشواقير والفؤوس ولاعلى حزم الحطب وتحميله على البغال، ثم إنه لا يثق بالأباليس من الخدم الذين يزجون به في هذه المتاعب ولا يأمن جانبهم أن يستفزوا البغل بنخسة مفتعلة حتى يصيب ابريك إذا مر قربه بركلة شديدة.

يذكر الولد أنه لقي ابريك هذا يوما في أيام محنته تلك، والولد مغادر للكتَّاب بعد العصر، ذاهبا إلى داره في الطرف الآخر من القرية، فبادره ابريك : «أنت لست من التلاميذ الذين يطالبهم المعلم بجلب الحطب؟» فقال الولد : «لا»! فقال إبريك : «إن الله يحبك». والواقع أن الولد كان يتمتع بذلك الإعفاء بسبب بعد داره كعذر ظاهري، ولكن الأمر لم يكن يخلو من جانب من المحاباة، غير أن ذلك الإعفاء كان يقتضي البقاء مدة زائدة في الحفظ بعد العصر مع بعض الطلبة القادمين من الآفاق.

بالرغم مما كان يحكى عن الخادم إبريك من علامات الغباء

فإن عموم الناس في القرية قد رأوا في هجرته محاولة لتغيير حياته بالذهاب إلى المدينة دون استئذان أحد، رأوا فيها نوعا من الشجاعة التي لم تصدر من قبل عن غيره. وقد أدهش الناس في دار الشيخ مرة أخرى عندما كسر الحصار الذي ضرب عليه بعد فشله في الهجرة، ذلك أنه اغتنم فرصة بعثه في سخرة إلى دار الوالد فطلب شفاعة امرأة لا يرفض لها شيء، فتدخلت لصالحه لدى سيده الشيخ عمر، فرده إلى مقامه في رعي الغنم.

كانت المتشفعة هي السيدة فاضمة بنت الشيخ الحسين، كما ذكرنا، وهي ضرة والدة أحمد. كانت موقرة من جانب والدها المتوفى ومن جانب والدتها كذلك، وهي السيدة زهراء عالية القدر والهمة، كانت قد اقتعدت بصدمة موت الزوج ولم تعد تغادر سريرها (ناموسيتها)، إلا إذا ساعدها الغير. وكانت تشكو من تورم أفشل ركبتيها، ويذكر الولد أنه ذهب مع أحد الخدم، أرسلته ليجلب لها الماء من عين تدعى «عين سيدي بويفادن»، أي عين سيدي أبي الركب، قيل إن ماءها يشفي المقعدين. وافقها الوالد على ذلك إرضاء لخاطرها، وإن كان هذا الوالد قليل التصديق بمثل هذه الأمور.

عاشت السيدة زهراء تسعة أعوام بعد زوجها وتوفيت، وكان فصل الشتاء الذي ماتت في بدايته قاسيا ببرده وأمطاره وثلوجه. وكان الوالد يشقى بفصل الشتاء، لا سيما إذا كان بهذه القساوة، وذلك أنه يبيت الليل وهو يتفقد سطوح أروقة الدار وغرفها، لأنها دار ضخمة شاسعة ورثها عن مجد مشيخة عمه، صاحبها، ولأنها قد بنيت في أقصى القرية على أكمة مشرفة بطين أحمر رملي لا يصمد للماء. وكان الوالد يسميه بالطين الجبان. وحتى لا يتسرب الماء من السقف كلما كثر المطر، كان الوالد يقف على خادم أو خادمين

لوضع طين من الصلصال الأبيض الحابس للماء في الشقق التي يكون ماء المطر قد أحدثها في السطح، صلصال يحفر من جرف يطل على تاوريرت وهو مخالف للطين الأحمر الحصوي الذي بنيت به الدار، وهو سريع الانهزام للأمطار.

كانت هذه الدار العالية بسقوفها الرائقة، بقبابها الباسقة الأشجار في الأحواض التي تتوسطها، عابقة بروائح زهر البرتقال وعطر شجرات اللويزة والسالمية في فصل الربيع، طيبة الهواء في الصيف، وقد فقد الهواء سخونته بعد تسلله عبر أبهائها، طيبة الشمس في أروقتها في فصل الخريف. فإذا كان فصل الشتاء وريحه الحاملة للزمهرير تعوي وهي تعانق تلك الأقواس المبنية بالآجر الأحمر المطبوخ، انحاشت العائلة عن رياضها تبحث عن الدفء في دار المطبخ الملاصقة لها، والمسماة بتيكَمي مزين، أي الدار الصغرى. وأدفأ مكان فيها كان هو حمامها ذو المدخل والغرفتين. يتحول كل ليلة إلى مجلس يتجمع فيه النساء والأولاد حول الوالد. وفي الوسط مدفأ ناري قد فقدت جمرته كل غازاتها، فالسقوف منحدرة مقوسة مبنية بالطين المقوى باللبن.

كان الوالد، كما قلنا، معروفا بسمعه الرهيف، كان يستفيق من نومه على صوت فيضان نهر بعيد بأربعة أميال إذا تدحرجت أمام سيله الأحجار، فكيف لا يستيقظ على قطرات رشح سقف داره في الليالي المطيرة، ومن أفكاره قال ذات يوم : «إن النصارى حُذَّاقٌ لأنهم يجعلون سقوف دورهم مائلة لا يستقر عليها ماء المطر ويسهل كشط الثلوج من فوقها».

حلَّ فصل الشتاء قارس البرد، كثير المطر، وحدث على غير العادة أن المطر توالى سقوطه شهرا كاملا، وسقط معه ثلج كثير غطى

القرية كلها لعدة أيام. وقد ترتب عن تشرب جدران الدار لماء مطر كثير انهيار الرواق الجنوبي لرياضها، وذلك بانهيار السواري (الأسطوانات) الحاملة له بالرغم من كونها مبنية بالآجر المطبوخ. وانخرم بذلك الانهيار التناظر الجميل الذي كان بين الأروقة الأربعة التي فتحت عليها القباب الأربع المقابلة للأحواض الأربعة المغروسة بأشجار البرتقال في الوسط وبأشجار متنوعة باسقة أخرى في الأركان .

لم ير الناس قبل ذلك مثل هذا المطر الذي شبهوه بالطوفان، وجاء الخبر من عند أخوال الولد في قبيلة كيك أنهم عانوا من كثرة المطر معاناة أشد لكون تربة بلدهم لا تنفذ الماء كثيرا، وقد قالوا إن مواقدهم (كوانينهم) كان ينبع منها الماء بحيث يتعذر إشعال النار ما لم يكن في الدار طابق، وهو النادر .

كانت الثلوج تسقط وتغطي الجبال المجاورة شهورا عديدة من السنة، وكانت تهبط حتى تغطي القرية في بعض الأيام، وكان علوها في بعض الأحيان يقارب القامة، حتى إنها كانت تكاد تلمس بمد اليد من نوافذ الغرف التي فوق الأهراء. والثلج يثير خيال الأطفال فوق المعتاد، فليلة الثلج الظلماء هي ليلة الضباع، والضباع في خيال هذه البيئة شريرة، لكنها لا تهاجم الإنسان حيا، ولكنها تفقده صوابه برائحة تنبعث منها فيضل الطريق ويتبعها حتى يهوي من شاهق فيموت، وعندئذ تفترسه.

لم يتغلب على مكر الضبع إلا امرأة حكوا أنها أرادت أن تضمن طاعة زوجها لها بطريق السحر، فذهبت إلى إمام المسجد في القرية، فطلبت منه أن يكتب لها جدولا يؤثر في زوجها حتى يلين لها كما تحب، فأراد الطالب أن يثنيها عما عزمت عليه، فذكر لها شرطا

حسب أنها تعجز معه وتنصرف، فقال لها : «لا يتم لك ما أردت إلا إذا أطعمته شعرة التضبيع التي تجعل الزوج يتبع زوجته في كل ما تريد، كما تتبع الضحية الضبع إذا تخدرت برائحته». فقالت: «وأين توجد شعرة التضبيع؟» فقال : «تحت الأذن اليسرى لضبع يخرج في ليلة مقمرة تتبع ليلة سقوط الثلج». فقالت «وأي شعرة هي ؟» فقال : «لا يعرفها إلا العارفون من أمثالنا، وينبغي أن تنزع الشعرة من الضبع وهو حي».

ويحكون أن المرأة الراغبة انصرفت وانتظرت أعواما حتى كانت ليلة كسا الثلج فيها الأرض وتبددت السحب وأنار ضوء القمر الآكام والشعاب، فإذا باب المسجد يدق في منتصف الليل وليس داخله في غرفته إلا الطالب (الإمام)، فلما أطل من ثقب في دفة الباب رأى المرأة وهي تقبض بأذن الوحش الضخم، فتعجب وكاد يصعق من الخوف وهو لا يقدر حتى على تحريك فَكَّيْ فيه لينهرها، فما زاد على أن دعم مساندة الباب من الداخل بالنعش ومغسل الموتى، وعاد إلى غرفته يرتعد فيها فرقا إلى أن دق بابه المؤذن لصلاة الفجر.

سمع أحمد هذه القصة من جماعة من الأعوان كانوا يتندرون حول موقد بين العشاءين، وكان فيهم يهودي جاء إلى القرية من المدينة بميزانه الذي يزن إلى حد القنطار، وأقام في نهاية المسلك المطروق للشاحنات خيمة يأتيه فيها من يريد بيع ثمرة الزيتون. فلما جثا الثلج على خيمته وميزانه وعلى عرام من ثمرة الزيتون الذي اشتراه، لجأ إلى دار الوالد، إذ هو أكثر به استئناسا.

اعتاد أحمد على أن يكتشف في أحوال اليهود الذين يحلون ضيوفا على دار والده أمورا تميزهم وتثير فضوله، ومنها تفضيلهم

لأكل أمور لا يُقبل على أكلها الناس في القرية، مثل البيض والطماطم، وكذا اتساع أشداقهم للقم تكاد الواحدة منها تأتي على ربع رغيف، كما كان يتعجب من إطالة شعر رؤوسهم، ومن سواد جلابيبهم في كثير من الأحيان، ولكن أهم مظهر يحرص الولد على مباغتتهم فيه هو حالهم في الصلاة في بداية الصبح، حيث يتمنطق اليهودي منهم بزنّار ويضع على جبهته خيطا من القيطان ويشد به مربعا من الخشب يتوسط الجبين.

كان اليهودي المتاجر في الزيتون متعودا على تعامل فيه كثير من الجرأة مع شباب القرية وكهولهم من الرجال والنساء، وكلما مر من هنا ترك سيرة تحمد أو تستهجن، ولكنها سرعان ما تدخل في المألوف، من ذلك أنه كان أول من أدخل لعب الورق إلى القرية، ثم انتشر هذا اللعب ووقعت به البلية بين علية القوم، أما العامة فلا قدرة لهم على تعلمه ولا مال لهم لشراء عدته ولا وقت يفيض عن مشاغلهم للاشتغال به. ثم إن إمام القرية قد قال فيه قولا نفَّر منه الناس، فقد استقبح الأسماء العجمية التي تسمى بها كل ورقة، وقال إن الفارس المصور في ورقة منها هو الكافر الذي قاتله سيدنا علي، والمرأة صاحبة التاج هي سلطانة يستعملها شياطين الجان لتفويت أوقات الصلاة على اللاعبين، والشابة المصورة في ورقة أخرى ساحرة عارية الساقين يؤذي النظر إليها، وقد يُشَكُّ حتى في وضوء من قبض عليها بيده، أما بقية الصور فهي مزامير لهو وطنابير فتنة وشهب تقذف بها الشياطين أكباد المؤمنين.

في غد يوم سماع هذه الحكاية خرج أحمد في الصباح الباكر إلى الكتَّاب، وكان ينتظر أن يرى اليهودي في صلاته، لأن هذا الأخير نام في دكة من المدخل الكبير المسمى «أغكمي»، ولعله كان

قد انتهى من الصلاة لأنه قابل الولد بتحية الصباح وقال له : «عافاك (الله) يا سيدي أحماد أن تدق باب دار مولاتي بيجا جاعا في طريقك وتقول لها أن تنتظر مروري لأنقل ثمرة زيتونها إلى الميزان، إذا خرج النهار (أشرقت الشمس)».

استحيى أحمد من أن يرفض طلب اليهودي، إذ لم يكن يقول لأحد «لا» إذا تعلق الأمر بخدمة كهذه، ولكنه كان يكره أن يدق باب هذه المرأة التي كانت تشاكسه، ولكنها وهي الأرملة المدبرة لأمور عائلة من الأولاد والأحفاد، وهي التي تقضي نصف يومها، منذ كانت، في البساتين، ظلت صلبة العود، ملوحة الوجه، مكتنزة في قامتها الفارهة، أعفاها السن من الخفر المعتاد أمام الرجال، فكانت إذا لقيتهم في الطريق تحييهم وتبادلهم أنواعا من «ضرب الكلام»، نثرا من جوامع كلام البربر، أو شعرا من رائق أوزانهم البليغة، في براءة لا يخدشها شيء، ولكنها بمعانيها وبيانها قوية لاذعة منعشة للحياة.

كانت عادة بيجا، وهي ذاهبة إلى الحقول وفي يدها منجل وحبل، أن تلتقي أحمد في الاتجاه المعاكس، نازلا من الأكمة التي عليها داره، فتحاول أن تشاكسه بالتقبض عليه وعناقه، ولكن وجنتيه إنما تحمران من عبارات تقذفه بها هذه الشمطاء، عبارات هي مما قد يرد النطق به في مثل هذا الفصل البارد، الفصل الذي يجني فيه الأطفال البلوط من الغاب ليأكلوه أخضر أو مشويا في الرماد الحار.

كانت بيجا تقذف أحمد بهذه العبارة : ماتِّينْ كِيوْنْ إِكَانْ أُوزْ تِسْبَقِي؟ «من منكم أيها الأشقياء قد دسه ولم يشققه؟».

إنها بتلك العبارة تقلد فيها أم أحمد أو غيرها من أمهات الأطفال في مثل تلك البيئة، عندما يقوم الأطفال بترصد الأمهات

حتى يفرغن من استعمال الكانون (التنور) في الطبخ، وما زال رماده حاميا شديد الحرارة، فيدسون فيه ثمرة البلوط الملتقط من الغاب المجاور، وينتظرون أن يشوى ويصير سائغا لذيذ المذاق، والعادة أن الأطفال يحدثون شقوقا في قشرة حبات البلوط قبل إدخالها في الرماد الساخن، لأنهم إن لم يشققوها يسخن الهواء الذي بين القشرة والثمرة فتنطلق من وسط الرماد كالرصاصة لتصيب الطفل الذي ينتظر وهو مقرفص أمام الكانون، فتصيبه في الغالب بين فخذيه، لأن الأطفال في ذلك الوقت لم يكونوا يلبسون السراويل.

هذه هي الواقعة التي كانت تحكيها بيجا الماكرة الشمطاء. أما الذي كان يوقع أحمد في الخجل ويجعل الدم يحتقن في وجهه فهو المعنى الباطن لتلك العبارة وما تقصده بيجا بالذات. ففي هذا الوسط الذي يعطي عذرية العرائس أهمية قصوى، يكون فصل الصيف، وهو فصل الأعراس، هو فصل تعداد حالات النجاح والفشل في ليالي الدخول. فالأمهات يخفن على أولادهن من مَعَرَّة الفشل، والضمير المفعول به في عبارة الأمهات للأطفال ضمير واحد يعود على البلوط، والضمير في حالة العرس الذي تحيل عليه تورية المرأة المشاكسة ضميران، واحد يعود على فعل «الدس» وآخر يعود على فعل «التشقيق».

نادى أحمد وألقى بوصية اليهودي من خلف باب دار المرأة وهرب، وهو متيقن أن بيجا أو أحدا من أهلها قد سمع، فهم يعرفون اليهودي وينتظرون موعده، لأنه على ما يبدو يحفظ لهم مشاعر قديمة، وقد كانوا أقرب الجيران لحي اليهود الذي في طور الاندثار في القرية بعد هجرتهم إلى مكان للتجمع بين عام تسعة وأربعين وعام

خمسين ، وكانت أطلال بيعتهم ما تزال قائمة، تتميز بطلاء جدرانها بالجبس الأبيض من الداخل.

ما أن خف برد فصل الشتاء حتى شرع الوالد في بناء جدران سقطت من سور الإصطبل المجاور للدار، وكلما انطلقت أشغال البناء للإصلاح أو التغيير رافقتها متعة تتاح لأحمد في أوقات فراغه من الكتَّاب، ذلك لأن عمال بناء ألواح الطابية الذين يملأون بالطين المبلل ما بين لوحين، ينشدون أمداحا وأذكارا وهم يدقون الطين بالمركاز، ويزيد في فرجة أحمد أن رجلا من حاشية قرابته يسمى الحسين نايت الرايس، يكون من جملة عمال البناء. فهو أحول البصر، قصير القامة، ذو حافظة عجيبة، وكانت له عناية خاصة بأحمد، عربونا على ما يلقاه هو من عطف الوالد، لذلك تجده يستعرض أمام الولد ما بين حمل قفة طين وقفة أخرى ما يستظهره من القرآن، كما كان يقرأ أمامه من ذاكرته محفوظه من خطب الجمعة التي يلقيها الإمام في المسجد، كل ذلك وكأنه يتنبأ للولد بمصير له علاقة بالقراءة، وكان ذلك من مستغرب الأحوال في ذلك الوسط الذي لا يتكلم فيه ببعض عبارات العربية إلا قليل من الناس. ثم إن هذا الرجل لا يفتر عن ذكر القصص والنوادر والأشعار وغيرها. فهو حقا من الأدباء الذين تروى عنهم المقالات والأجوبة المسكتة والعبارات الطريفة. فمن ذلك أنه جاء ذات يوم مع ورثة من الإخوان والأصهار يطلبون تحكيم الوالد في اقتسام بقع من الأرض يحرثونها. فكان هذا الرجل الظريف ممن يطالبون بقسمة ذلك الملك الموروث الضيق المساحة، حسما لأسباب النزاع بين الورثة، وكان الوالد يراودهم أن يعدلوا عن تلك القسمة لأن مساحة الأرض غاية في

الصغر بالنسبة لعدد الشركاء، وإذا وزعت لم يأت منها شيء، فإذا بالحسين المذكور يُقسم بالأيمان لا يفترقون من مجلسهم إلا أن يأخذ كل نصيبه، فلا يبقى شيء يتنازع فيه بينهم، فقال مخاطبا الوالد: «يا خالي! إننا قاسمون ولو اقتضى الأمر أن نأتي بضفدعة برية، ننخسها فتقفز فنقول : هذا نصيب وارث منا!». ومنذ ذلك الوقت صارت مقالته، «القسمة بقفزة الضفدع»، مثلا في ما يشبه ذلك الموقف.

حل فصل الربيع وانتشت القرية بالعبق الصاعد اليها من الحقول الواقعة عند أقدام أسفل السفح، فالسنابل في إبان امتلائها واثقالها بمادة الحنطة المتكونة تقارب النضج الكامل على مدى أيام قليلة، وفي ذلك الإبان يحل أوان اقتطاف ما يصلح منها بندقا عطر الرائحة ، يسمى «أزنبو»، وذلك بأن يهيأ حب هذه السنابل القريبة من النضج ثم ييبس بعد فرك السنابل وهي ما تزال تحتفظ بشيء من خضرتها، ثم يبخر كما يبخر الكسكسون. وأزنبو هو أحب الطعام إلى أحمد في صغره، لأنه لذة الذوق ومتعة الشم. وتقطف في نفس الإبان سنابل مماثلة تشوى على مطرح فوق النار لتؤكل، وتسمى «تيزلفين».

عادت الطيور بعد رجوع الدفء لتشارك في موسم حافل تتجدد به الحياة، طير في أعشاش وطير في مبايض وسط سنابل الحقول، وطير في ثقوب جدران دور الأكابر لعلوها، كلها ستفرخ من بيض، إلا ما أصابه عدوان الأطفال أو الثعابين، وهو القليل.

لم يكن أحمد يدرك ما الذي كان يدفعه في تلقائية، لعلها نوع من اللعب أو المتعة، ليعانق تلك الحقول فيشق بالجري طريقا في وسط السنابل يصطدم بها جسمه وتلمسها كل أوصاله فيتبلل بما يحمله الزرع من قطرات الندى، ولكنه كان في بعض الأيام يسير وراء

والده في خرجاته وقت ما بعد العصر لتفقد حقول زرعهم المنتشرة هنا وهناك، فيسمع الولد والده وهو يعلق على الغلة الكاملة، وعلى التي جاءت ناقصة من إكثار البذور، أو من كثرة الماء، أو من تأخر المطر في وقت مًّا عن مزارع البور، وقد يصدر من الوالد ما يشير إلى أن بعض الحقول معرضة لأذى العين لوقوعها على واجهة الطريق. في مثل هذا المعنى كان الوالد يظهر الخشية على ولده من العين مشبها إياه بالزرع المعرَّض في مقدمة الحقل.

فالأحياء بكل أحجامها وأنواعها في هذا الفصل قد تناسلت، والأرض لم تكتف بإرضاء الإنسان الذي زرع ورعى، ولكنها أخرجت أنواعا من الزهور والنبات شكرا لما تلقت من ماء السماء، وأخصبت من بذور لم يبذرها أحد، وإنما خبأتها الأرض في أحشائها وتلقت من دفء الشمس العائدة، فأثمرت ألوانا وأشكالا أغلاها وأكثرها النورس الأصفر وشقائق النعمان القانية الاحمرار، زرابي مبثوثة تخالط خيرات السنابل وتزين حواشيها في مستراح الحقول.

يتذكر أحمد أن في ذلك العام، وفي يوم من تلك الأيام المفعمة برائحة خميرة الطين والسنابل، وقع في عالم الناس ما يناقض ذلك الغَناء والعطاء، فقد استيقظ أهل داره على خبر سرقة ثور من زريبة أسرة في القرية، وهو حدث غير عادي، فما اعتاد الناس أن يسرق أحد شيئا لأحد، ولم تشر تخمينات الاتهام إلا إلى شخص مبتلى بهذه الجريمة، جريمة سرقة المواشي ليلا من الزرائب، لا يمتلك نفسه حتى يرتكبها، ما لم يكن في السجن من أجلها، وقد خرج منه منذ أقل من عام. اسمه: الكامل، لقوة بنيته، يسكن قرية أخرى غير بعيدة، وهو رجل خجول، مسالم ودود، يثير عطف معظم الناس.

ذهب نفر يسألون عنه في قريته فوجدوه غائبا عنها منذ مساء أمس، فتفرقوا على طرق الأسواق المجاورة، وحماسهم للقبض على السارق ليس منبعه قيمة المسروق، ولكن استنكار السرقة بشكل جعل الناس يتعبأون لمعرفة أصل ما حدث، فما لبثوا أن ضبطوه ذاهبا بثوره في اتجاه سوق خميس مراكش. فعادوا به وسلموه لشيخ القرية.

شاع أن السارق سيسلم إلى الدركيين من النصارى، وكان الشيخ أراد أن يحسم الأمر دون تبليغ، ويبدو أن شريرا فضوليا أبلغ الخبر إلى هؤلاء الغلاظ فجاؤوا للتحقيق، وبدل أن يحملوه إلى دائرتهم في قرية أسنى، شرعوا في استنطاقه في غرفة من غرف دار الوالد، لأن الشيخ طلب من الوالد أن يقوم لهم بواجب طعام الغذاء.

لما رأى الوالد أن ذلك الاستنطاق سيقع في داره بإيعاز من بعض المتجرئين من أقاربه، وكان ينوب عن الشيخ، أرسل شخصا وعمل حيلة ليوجه ولده عند الخروج من الكتَّاب إلى دار عمته، وهي في القرية العليا، ليتغذى الولد هناك ويلعب في الساحة الوسطى المسماة «بأسايس». وكان جل لعب الأولاد هناك الرماية بالكرة، كل فرقة من جهة، والهدف قضيب مثبت بالتراب، ويسمى هذا اللعب «تيميشا»، وذلك في انتظار أذان الظهر المتأخر، وهو وقت استئناف القراءة في الكتَّاب.

سمع الولد، بعد رجوعه إلى الدار عشية، بما وقع، وسمع امتعاض الوالد لأن اللص لم يكن يحتاج إلى ما تناوله به الدركيون من الإكراه بمساعدة ذلك الرجل الجسور، بل إن اللص يقر كل مرة بفعلته بسهولة وكأنه دُفع إليها بقدَر لا يملك مقاومته، والناس في بلده يتعجبون من ابتلائه بالسرقة لأنه يملك أبقارا وأطيانا وبسطة في الجسم.

تشاءم من في الدار بما جرى ولم يعد أحد يقبل أن يبيت في الغرفة التي وقع فيها الاستنطاق، وصارت تستعمل لبعض المخزونات، وقد وقع عن قريب ما أكد أن ذلك الفعل ما كان له أن يقع في الدار حتى ولو تطلب الأمر مواجهة صريحة مع الدركيين، بدل الاستسلام إلى الفضوليين والناقمين، وقر في اعتقاد الناس أن الإكراه الذي تعرض له اللص هو من قبيل الظلم البَوَاح.

ربط بعض من في الدار بين هذا الابتلاء وبين سقوط الولد من أعلى جرف يوجد في الطريق من الكتّاب إلى دار أيت واحمان الكبرى، حيث دار الشيخ. والذين ذهبوا إلى هذا التأويل يعتقدون أن أكثر عضو هشاشة في العائلة كلها هو هذا الولد السريع العطب، وكأن الهش يؤدي جريرة الصلب الخشن الفظ الغليظ، كان ذلك بعد فترة قراءة المساء، أي بعد وقت العصر. خرج أحمد من الكتّاب وهو يعرف أن الوالد في دار الشيخ مع أضياف، فمر من الجرف المطل على الدار، فلما توسطه هوى منه إلى الحضيض، وهو لا يدري هل هوى لأن رجله عثرت به أم لأن النوم دَهَمه وهو يمشي، أو لأن الريح قد عصفت به. وعلى الجرف طريق تنحدر من أعلى حيث الساحة التي بها المسجد إلى أسفل حيث دار الشيخ، وعلى يمين النازل جدران دور، وعلى يساره هاوية في أسفلها حديقة دار الشيخ، وفي منتصف ما بين الطريق التي تنزل على حافة الجرف وبين الطريق الجانبية للحديقة، عند قدمه، ساقية عالية يأتي فيها ماء من غيابات حفرت تحت ساحة المسجد لري الحديقة وتزويد الدار بالماء. عندما هوى الولد ارتطم جسمه بحاشية الساقية في وسط مهواه فانقذف، وبدل أن يسقط في قدم الجرف سقط في وسط حوض نبت به فول في الحديقة.

كان أول من رآه وأدركه هو الخادم المكلف بآنية الشاي في دار الشيخ، الملازم لباب داره، المتعهد لحديقته، بلال المذكور آنفا، جاء يجري وهو يقول للولد مداعبا، يريد أن يخفف عنه من وقع ما جرى : «أيها السارق! جئت تسرق الفول من حديقتي؟».

يذكر الولد بعد ذلك أن الوالد وناسا آخرين أسرعوا لحمله وأدخلوه إلى الدار، وهنالك أظهرت زوجة الشيخ المحظية المسماة أللاَّ رقوش كل عناية بالمصاب تقديرا لوالده، وذلك من قبيل تكميد الرضوض على الجسم ومداواة جروح الرأس بنسغ ورق الجوز الحارق. وتقوت مرة أخرى بذلك الحادث فكرة الناس التي مؤداها أن هذا الولد سريع العطب، مستهدف بأذى العين أكثر من غيره من الأولاد.

وفي الأيام الموالية دلل الوالد ولده بأن أمكنه من التعطل عن الذهاب إلى الكتّاب وأتحفه بأنواع من التسليات من قبيل فرجة صيد الخفافيش من سقف الدار بإثارتها من مخابئها، ثم اعتراضها وهي طائرة تحت سقف الأروقة في الدار، لا تطيق النور خارجها، تُصاد بقصبة في رأسها كناسة من شوك، تتعوق فيها الخفافيش التي يعميها الضوء وتثقلها أجنحتها الشفافة المرهفة الواسعة.

في مثل تلك المحن يزيد الوالد من تدليله للولد عن المعتاد، يظهر ذلك من اصطحابه في فرجاته وأشغاله، ومن جملتها في تلك الأيام حضور الشغل التعاوني الذي تتعبأ له الجماعة لكنس الساقية التي يأتي فيها الماء من وادي ويركّان. في عمل جماعي إلزامي مثل هذا تنتدب كل أسرة ذات حق ونصيب في الماء على التقسيم المرعي المتوارث، تنتدب عاملا أو أكثر، حيث يقوم المشتغلون بإعادة تعميق الساقية وبإزالة الأطيان المترسبة وسد الشقق، لا سيما في منعرجات

جبلية تدمرها شعاب تقطع الساقية عموديا، كما يعاد إصلاح نقط اشتقاق مصارف المياه عند وصولها إلى مشارف القرية، قبل حوض التوزيع الرئيسي الواقع عند الأرحاء.

ما كان الوالد ليصطحب ولده لو أن ما يجري في ذلك اليوم أو اليومين من شغل الجماعة كان عاديا ليس فيه إلا المشقة والتعب، بل اصطحبه لطرافة الجو الذي يجري فيه الشغل الجماعي المعروف «بتويزي»، ومعناه اللغوي «التحمل»، ومعناه الاصطلاحي العمل الجماعي التعاوني بلا مقابل، فهو جو مليء بالحماسة والجد، يشرف الأعيان، مثل الوالد، على الشغل المحتفل به من حيث تقديم الطعام الجيد الذي يأتي لحمه من ذبيحة يسهم الناس في شرائها، كما يسهمون في إحضار لوازم الشاي. ويصاحب الحفر والردم والتعبئة لغط متشابك الأصوات تثار فيه قضايا الحياة العامة للقرية، في صورة تقابل لوجهات النظر، خالية من كل تشنج، بل هي مليئة بالدعابة وبالنقد المستساغ أو حتى اللاذع في ذلك المقام.

لما استحلى الولد ذلك التساهل المتجدد انجر إلى فرجة أخرى دون علم الوالد، لأن هذا الأخير غاب في مهمة مخزنية بمكتب الحاكم بأمزميز بتكليف من عمه الشيخ. والأمر دبرته نساء الدار اغتناما لفرصة غياب الوالد الذي لا يؤمن بكل التأثيرات الغيبية مما لا يسلم به العقل. فقد كان في الدار بنات من الأقارب الملحقات بالخدمة أو بالتكفل، وبنات من الخادمات، وقد تعدى بعضهن سن الزواج الذي هو في ذلك العصر بعيد سن البلوغ، والبنت كلما مرت عليها الأعوام بعد البلوغ اعتبرت نفسها واعتبرها غيرها على حافة البوار، وكل ما هو غير عادي من قبل البوار مرتبط في الاعتقاد السائد بالتأثير السيء للسحر المتعمد من حاسدين أو بالتأثير الخبيث

لشياطين من الجن لا يحبون الخير للناس، أو بانعكاس حظ يتطلب التدخل. ومما شاع من أسباب فسخ تلك العوائق وإبطالها في مثل هذا الشأن أن تذهب البنت البائرة أو التي تخاف البوار وتغتسل في أماكن يعتقد الناس في نجاعة الاغتسال فيها، ومن تلك الأماكن في بلد الولد، ضريح أحد أحبار الرِّبيِّين اليهود في دوار قريب اسمه أنراز، كانت بجانبه قرية بها طائفة يهودية. هاجرت تلك الجماعة إلى جهة غير معروفة بعد أن كانت من جملة طوائف يهودية متأصلة في جبال الأطلس. بعد المغادرة ترك اليهود شخصا من المسلمين يتعهد بالصيانة مدفن ذلك الحبر الذي يقام حوله موسم سنوي يتجمع فيه المآت من الحجاج اليهود. وكان يقال إن بعضهم يأتي من بلد مريكان. والمسلمون في هذا الجبل لا يعرفون شيئا عن علم اليهود ولا عن دينهم ولا تراثهم بالرغم من أن اليهود عاشوا بين ظهرانيهم مآت السنين، وإنما يعرفون عوائدهم وجوانب مشتركة من الحياة معهم . فالحبر صاحب الضريح غير معروف عندهم إلا باسم «مول أنراز»، أي الرجل المبجل الذي في أنراز.

خرج البنات من دار السي محمد في رديف وقت الضحى، وكأنهن إنما غادرن لزيارة بعض الأقارب، ثم التقين بأخريات من القرية، وذلك على إشارة سيدتين من الإماء المحترمات في الدار، ولم يستطع أحد أن يمنع الولد من الذهاب، بالرغم من أن المسافة هي بضعة أميال، وذلك لأنه الوحيد الذي إذا أُغضب يمكن أن يحمل الوشاية إلى الوالد بعد رجوعه.

بعد تمكين قَيِّم الضريح من هدية (أو رشوة) مقابل خدمته وتستره في آن واحد، دخل البنات بأسطال من الماء إلى بيت معلوم للاستحمام الذي جئن من أجله، وكان الولد منشغلا باكتشاف ما

بداخل الضريح المجاور من أدوات ومعلقات ليست معهودة في مساجد المسلمين. وفي طريق الرجوع قالت له إحدى الخادمات المتجرئات : «إن أمك قد أرسلتك معنا لتغتسل أنت أيضا لأنك مصاب بالعين، كما نحن مصابات. ولكننا خفنا من نقمة والدك لو أصابك الزكام من الاغتسال بالماء البارد، وأنت على كل حال لن تكون بائرا ، فما يصيبك من الآفات له علاج». وضحكن!

في نفس ذلك اليوم، عند العصر، اتبع الولد الشخص المتعهد لحديقة الأزهار والخضر، مؤذن دار الشيخ، المسمى ابن الطالب، زوج جدته، قاطعة سرته، ووالد الشاب الذي حمله مآت المرات فوق كتفيه، ولا سيما في صغره، اتبعه في جولته في الحقول. ذهب إلى حديقة للشيخ بها أشجار جوز ضخمة ليقطع منها أطراف أغصان يستعملها لطرد الذباب عند قيامه على صينية شاي في دار الشيخ، أو عند وقوفه فوق رؤوس الجالسين للأكل حول مائدته.

كان ابن الطالب قد تخلص من آثار التنافر مع الوالد في المرة التي قاد فيها الولد أشقياء رفاقه من أطفال الكتّاب وتسلل بهم إلى الحديقة المسيجة التي يتعهدها ويحرسها. وها هو في تلك الجولة يمشي أمام الولد، يمر من حقل إلى حقل، يتوقف ويتكلم مهمهما ساخطا أو لاعنا أو متعجبا، ثم يستمر في مشيته، وكأنه يحاسب أناسا على سلوكهم. كان يتقصد أماكن بعينها وكأنها عناوين معروفة لديه، مخابئ تحت أغصان شجر كثيف لا يصلح عادة إلا في إقامة السياج، كان يطل على فضاءات وسط تلك الأدغال، وكأنها مكنوسة من الرمم الذي يغطي الأرض حولها. لم يفهم الولد شيئا من اهتمام ابن الطالب بهذه المخابيء التي لم يرها هو قط، والتي قد لا تعدو أن تكون مستراحات الرعاة في أيام القيظ.

لم يحدس الولد في تلك الجولة شيئا من جلية فضول هذا المؤذن الجهوري الصوت. وبعد شهور عديدة أو حتى أكثر من عام، سمع الولد أشقياء الخدم في غياب زميلهم ابن المؤذن، يتكلمون عن وسوسة أخذت تعتري المؤذن وترتب عن نتائجها تكرار الخصام مع زوجته ولجوؤها المتكرر، وهي تذرف دموع الضيم، إلى تاوريرت، والنساء يسعدن بشقاوتها ومقامها عندهن في آن واحد لأنها سرعان ما تنسى حكاية المنافرة مع الزوج وتخوض في القصص الذي يثير النساء اللائي لم يعشن قط جو القرية حيث الاختلاط بين الرجال والنساء، وتتحفهن بحكايات تداعب خيالهن وبصناعات تتقنها من أمور النساء، وبوصفات لتحضير أنواع خاصة بهن من الطعام، وبأخبار تهم كل زوج وزوجة في القرية وفي آفاق أبعد منها. كل أخبار الدنيا عند هذه المرأة، لا يخفى عنها منها شيء. قالوا إن خصامها مع زوجها بدأ يتكرر منذ أن رفضت الزوجة القطيعة مع امرأة أخرى فارهة صناع مثلها، طلقها زوجها لأن المهرجين في المسرح المقام في الأيام السبعة الموالية لعيد الأضحى الفارط قد غمزوا امرأة في القرية دون ذكر اسمها ولا اسم زوجها، وإنما قالوا إنها هي التي تتفاوض مع مالك أرض من أجل تجديد عقد مزارعة مع الزوج.

عاد الوالد متأخرا في الليل، وكان الولد قد نام، وفي الصباح كان هو الذي أيقظ الولد لأن شيئين جميلين ينتظرانه، طائر وسمكة. فالطائر قد وقع في مصيدة أحد الأعوان، وهو من نوع الحمام البري المسمى أزضوض، وهو طائر حاد البصر، مرهف السمع، لا يطيل المقام على نفس غصن الشجر، ولكن الذين ينصبون له مصيدة من عود مقوس وخيط، يعرفون كيف يسحرون عينه بحبة من الذرة

الصفراء، لها لمعان يغريه ويجتذبه كما يجتذب الذهب بني الإنسان، يرمق الطائر تلك الحبة الساحرة من أعلى عرشه فوق الشجر، فلا يتمالك أن يتنزل، ولا يكاد ينقرها وهو غافل عما يحيط بها داخل الدائرة المشكلة من خيط مرتخ، حتى يحرك الوتد الخشبي الصغير، فينتفض العود المقوس الذي في رأس الخيط، فإذا الحلقة تشتد على عنق الطائر في لمح البصر، فلا تنفعه أجنحته وقد وقع في الأسر.

أما السمكة فقد جاءت بواقعة لم يسبق لها مثيل، فالناس في القرية لا يعرفون السمك حيا في الماء إلا من ذهب منهم إلى أحد النهرين، نفيس أو رافده ويركّان، وكلاهما على بعد أقل من ثلاثة أميال، وإنما هم يعرفون سمك النهر مشويا أو حديث العهد بالماء، مسلوكا في قضبان السمار، يأتي به الباعة في فصل أو فصلين من العام. أما سمكة ذلك الصباح فقد جاء بها الماء في ساقية القرية في وقت ذوبان الثلج تحت شمس الربيع وازدياد منسوب المياه في النهر، ولكن الطريف الذي لا يكاد يتصوره الخيال هو أن تلك هي السمكة الوحيدة التي سمع الناس برحلتها من النهر عبر الساقية إلى غاية القرية، والأغرب من ذلك أنها سقطت في قُلّةٍ امرأة تستقي من منحدر في الساقية بجانب القرية، ثم إن هذه المرأة لم تكن من عشرات نساء القرية، وكلهن يترددن مرات على ذلك المكان للاستقاء كل صباح، وإنما المرأة التي سقطت السمكة في قلتها هي زايدة، جدة الولد، يدعوها «جدة» بحكم أنها كبيرة الإماء وقد أسهمت في تربيته، كبر في حجرها كما يقال. والعجب في الأمر أنه قلما شوهد مثل السمكة في حجمها ولا في شكلها قياسا بسمك النهر، حيث كانت على جلدها الداكن نقط حمراء ونقط صفراء.

عندما شاهدت الأمة الخادمة، زايدة، السمكة تدخل في القلة

لم تفكر إلا في إدخال السرور على الولد، ومن ثمة على الوالد، وبعد رجوعها إلى الدار لم تفرغ الماء من القلة في الخابية، على العادة، وإنما أفرغت ماء القلة في قصعة خرجت إليها السمكة العجيبة تسبح تحت الأنظار.

ظلت بعض آثار الرضوض على جسم الولد زرقاء من أثر السقوط من الجرف. فقرر الوالد الذهاب به إلى مراكش لمشاورة بعض الحكماء والحجامين، ولتمتيعه بمزيد من التسلية والفرجة هناك. والذهاب إلى مراكش يتطلب مالا ، والمال إما أن يأتي من بيع الملح في الخريف أو بيع ثمرة الزيتون في الشتاء، أو بيع حطب أشجار تقطع وتحمل في شاحنة إلى مراكش. ويذكر الولد أن الذي ضحى الوالد به وقطعه تلك المرة هو أشجار من صنف الصفصاف. نقل الأخشاب إلى سوق المدينة صاحب شاحنة يلقب بالكَباص (أي الجباس صانع الجبس). ومن أثر لعب الورق الذي أدخله اليهودي إلى القرية أن الناس يحرفون اسم صاحب الشاحنة ويسمونه بالكَباص، لأن صورة هذا السائق تشبه صورة مرسومة ممتلئة الوجنات في ورقة من أوراق اللعب تحمل هذا الاسم.

ركب الوالد والولد بجانب السائق في الشاحنة، وركب مساعد السائق المسمى بالشحام فوق الخشب المشحون على ظهرها. ويذكر الولد أن هذا السائق الحضري توقف في منتصف الطريق وأخرج الطعام الذي جاء به لغذائه، وأشرك فيه ضيفيه. كان الطعام خبزا أبيض مصنوعا على طريقة المدينة، وكان يسمى في البلد «أغروم ن مراكش» أي خبز مراكش، وأخرج معه إناء فيه اللحم المصبر في السمن والشحم، المعروف بالخليع. كانت تلك المرة لأولى التي يأكل فيها الولد هذا اللحم الرائق بمذاقه الملح. وقد تقزز قليلا من

برودته لولا أن السائق أخرج أنبوبا عريضا فتحه وصب منه في الكؤوس شايا ما زال يحتفظ بسخونته، فتعجب الولد من شاي سخن في غير موقعه العادي من الصينية التي يقام فيها بمراعاة الطقوس المعتادة.

طاف الوالد بولده في أسواق المدينة، برفقة صديق العائلة، السي الحسن الخياط، مستشيرين بعض الحكماء من جباري العظام والحجامين مصاصي الدماء الخبيثة لتخليص الجسم منها، فتأكد من العارفين أن النقط الدائرية الزرقاء في جسم الولد لن تلبث أن تختفي مع الأيام، وأن الدم المتجلط فيها ليس دما خبيثا يستدعي الفصد، ولكن الدم الطيب المتجدد سيأكل الأزرق الخبيث، وإنما تأخر اختفاؤه لضعف بنية جسم الولد.

غير أن الصديق الخياط قد أشار على الوالد بأن يذهب الولد مع ولد الخياط إلى الحمام، وأن يتصبر على حرارة أرض الغرفة الداخلية القريبة من جفنة الماء، هذا الحوض الذي ظل المراكشيون يسمونه باسمه البربري «تافضنا». والمطلوب أن يتمدد الولد على الجص الساخن ظهرا وبطنا لما يتوقع من هذا الترطيب تحت الحرارة من الإسراع بذهاب البقع الزرقاء المتجمدة ببرودة الدم فيها. لكن الوالد قال لصديقه الخاص: «حتى أنا بحاجة إلى تدليكة في الحمام، فسنذهب معا، كثَّر الله خيرك!».

اعتاد الولد على الحمام المهيَّأ في الدار تحت السلة الكبرى مع النساء، وهو صغير. ثم اعتاد على حمام الدار بعد أن أصلحه الوالد، وهاهو يكتشف أن حمام المدينة إنما هو صورة مكبرة لحمام داره، بغرفه الثلاث وتقويساته، إلا أن الذي أدهشه، وهو يدخل حمام المدينة لأول مرة، هو رهط من الرجال يعرضون خدماتهم في

الحمام، وفي مقدمتهم محافظ الثياب في الغرفة الواسعة، ذات الكراسي الخشبية الطويلة في جلسة ما قبل الدخول، وهو في ذات الوقت قابض الأجر المسبق، وهو الممد بآنية الخشب التي يُستقى فيها الماء السخن والبارد، وتسمى القباب (مفردها «قب»)، وهو يُمد في نفس الوقت بالإزارات القصيرة التي تستر عورة المستحمين، وقد جمع هذا الرجل ثياب الاثنين ووضعها كلها في سراويل الوالد وشد عليها تكة السراويل.

تفرس في الداخلين، الوالد والولد، رجل من ثلاثة كانوا شبه عاريين، جلوسا على مقعد خشبي طويل، يتداولون جعبة تدخين واحدة، فتقدم، وهو ذو طول في القامة غير عادي، وجسم نحيف تستطيع أن تعد فيه أضلعه وفقرات ظهره، متقد العينين لامع بياض الأسنان، بارز الفك، تقدم دون استئذان ليفرض خدمته، لأنه تفرس أن الرجل والولد من الآتين من خارج المدينة، ومن الذين من حيائهم لا يعاكسون أهل المدينة في شيء، وبالفعل فقد وافقه الوالد الذي أخذ بيد ولده تحت ظلام البخار الحار، دون كلام، وتقدمهما الرجل وفي يده الأسطل الخشبية الأربعة. تقدم الرجل وفتح باب «البيت» الأول في الحمام، وتبعه الوالد حتى بلغوا «البيت» الثالث، وهو الداخلي، وهو الأشد حرارة، فحجز لهما الرجل الطويل مكانا ركنيا، وصب عليه آنية من الماء لتنظيفه، استقى ثلاثة دلاء من الماء السخن وواحدا من البارد، وبعد حين صار بإمكان الولد أن يميز ما حوله وسط البخار. رجال بعضهم يزيل أوساخه بمحكات وآخرون يتناولهم منظفون مدلكون ممسدون من طائفة الشخص الذي استقى له ولوالده.

خرج الوالد وولده من الحمام والتحقا بدار الصديق الخياط

الذي كان ينتظرهما للغذاء، وفي قبة دار ذات فرش من زرابي حولها طنافس عالية، رأى الولد ناموسية تشبه ناموسية جدته المتوفاة، زهراء، أرملة الشيخ الحسين، فقد كان لها دون غيرها هذا السرير الفاخر الذي يغطيه على رأس أعمدة أربعة في زواياه ثوب أبيض رقيق شفاف، ويتدلى عليه ثوب آخر مخملي الحواشي، والكل مرفوع على القضبان التي في طرفي السرير، يصير كالغرفة لا يدخل إليها الناموس (البعوض). لا يعرف الناس العاديون في القرية هذا النوع من الناموسيات، فإذا ناموا تركوا جلودهم للبعوض وإضرابه من الحشرات الآكلة، وإذا استيقظوا فإنما يحتمون بنباتات عطرة كالحبق أو بأغصان شجر يُسمى «أمَّاش»، ينبت في جوانب الأودية الآسنة الماء. والبعوض المعروف عندهم ب «وابيبا» يُخاف منه بالخصوص على الأطفال الرضع، لأن تعرضهم لعضه بكثرة قد يؤدي بهم إلى الموت. أتى المضيف بمبخرة ينبعث منها دخان عود طيب محترق، وطلب من الوالد أن يقوم فوق المبخرة ويتلقى تلك الروائح من تحت جلبابه، ثم قال للوالد : عندما كنت أنت مع السي أحمد في الحمام ذهبت إلى باب فتوح لآتي إليك بالبدعيات والفرجيات والسراويل التي تركتها المرة الماضية للخياطة، فوجدت هناك الفقير عمر ألحول، مقدم التجانيين في قريتكم، وقد جاء بملء شاحنة ملح، فقال لي إن عمك الشيخ عمر يريد منك أن تقطع زيارتك لمراكش وترجع، لأن الإعلام جاء من المخزن بأن الأطباء سيأتون لتلقيح أطفال قبائل جبلكم ضد الجُدَريّ، وقال : هذه قائمة بالحوائج التي يطلب منك شراءها لضيافة القائد والحاكم والأطباء. وإذا لم يكفك ما معك من المال أخذنا لك ما تحتاجه من أصحابنا.

كان الوالد متعودا على ذلك النوع من الإزعاج لأن الدنيا

علمته أن أمور المخزن (الحكومة) لا يمكن، في جميع الأحوال، توقع ما يمكن أن يأتي منها مباغتا، بل إن كثيرا منها يأتي على غير انتظار، ولذلك أخذ الأمر بجد وخرج لشراء المطلوب، تاركا الولد في دار الخياط ينعم بترحيب النساء والأولاد، وإن كان فهمه للعربية ضعيفا لا يتعدى جملا معدودة، وهو يعرف بعض هؤلاء النساء والأولاد، لأنهم يزورون داره في البلد برسم الصداقة والقرابة في نفس الوقت.

وقع الإعلام بحملة التلقيح وحشر الشيوخ والمقدمون كل الأهالي من ذوي الأطفال من أهل القبيلة إلى قرية تتوسط اسمها تاسا ويركَان. وفي وقت الضحى بدأ الأطباء ومعاونوهم يضعون على أذرع الأطفال ما هو معروف شكله واسمه في تلك البيئة، ويسمى أكَزّاي، وهو اسم يستعمله الحجامون وتستعمله الواشمات، ويعني إحداث جرح صغير في الجلد بضربة موسى خفيفة.

في منتصف النهار وصل الحاكم النصراني ووصل قائد القبائل إلى مكان التلقيح لتفقد العمل، وكان الشيخ عم الوالد، أعد لهما ولحاشيتهما حفلا عُبئ له المآت ممن كلفوا بإصلاح الطريق لمرور سيارات القادمين أو لصنع الخيام الواسعة المسماة بأوثاق القائد، أو للتسخيرات الضرورية، أو لإقامة الرقص والغناء الذي يشترك في إحيائه الرجال والنساء في زينتهم المعتادة.

كان الإنذار بقرب وصول موكب الحاكم والقائد برفع أعلام بيضاء على أيدي رجال رصدوا بعيدا فوق مرتفعات ومنعرجات ينظر بعضها إلى بعض على الطريق المؤدية إلى تلك القرية. وبوصول الموكب اهتزت الأرض بضرب الطبول والبنادر ورفع العقيرة بالغناء المصحوب بالرقص، طرب رددت أصداءه سفوح الجبال على جنبات ذلك الوادي.

جاء دور الولد، وجرحوه على سبيل التلقيح في ذراعه اليسرى ولم يسل منه دم، لأنهم حبسوا الدم بماء حارق، قال الناس إنه من عصير ورق الجوز الذي يعرفونه، وبعد ذلك ذهب أحد الأعوان بالولد بوصية الوالد إلى دار مقدم القرية حيث أُعد غذاء الضيوف والأعيان. وسمع هنالك أن هذا الحاكم النصراني الذي جاء إلى مكتب القبائل منذ وقت قريب ليس على تمام عقله، فهو يأمر خفيرا من المخازنية بأن يسير وراءه أينما ذهب، حاملا لآلة نفخ نحاسية ضخمة، يأخذها منه الحاكم ويزمر فيها قليلا ثم يردها إليه. قال بعض العائدين من الحرب إن هذا الصنيع يصدر من بعض من شاركوا في الحرب وارتاعوا منها إلى حد أنهم لم يصدقوا أنها وضعت أوزارها.

لم يتردد إمام القرية كعادته في التعليق على تلقيح الأطفال، فذهب إلى القول بأن المادة التي يزرعونها في الأطفال يريدون بها أن تفعل في نفوسهم وتؤدي إلى القضاء على نخوة الإسلام حتى يكبر الأطفال على الطاعة والامتثال. ولما مرت أيام وانتفخت مواضع التلقيح في الأذرع عند جل الأطفال، قال الإمام : «الحمد لله على أن دم الإسلام يرفض زريعة الكفر، وإن كان تمييز العقل عند أهلنا المسلمين قد ذهب بكثرة المعاصي».

بعد أيام، جمع الحاكم شيوخ القبائل وقرأ عليهم رسالة من الطبيب الذي أشرف على التلقيح، وقال: إن الطبيب، بقدر ما سر من غزارة شعر الطفلات ونظافته، بقدر ما ساءه كثرة الأطفال الذين في رؤوسهم قرع.

عندما سمع إمام المسجد بذلك التقريع قال : إننا نحن الذين علمنا الناس أن النظافة من الإيمان، ولو حملتم أولادكم أيها الناس على الوضوء والاغتسال لما عيركم النصارى بكثرة القروع في الرؤوس.

استغرب الناس لتلك المثلة وأكثروا فيها الأقوال، وتندر بعض الأشرار وقالوا إن النصارى سيحدثون ضريبة على الرؤوس القرعاء حتى تبرأ. وقال آخرون إنهم سيبيعون لمن في رؤوسهم قرع الزيت الذي يفرغ من السيارات بعد فساده لكي يضعه كل أقرع على رأسه فيقيه من الشمس حتى يموت قرعه بحجبه عن الهواء. أما عمة الولد، وكانت من المعتقدات في صلاح بعض الأموات فقالت : «إن كل آفة تصيب الأطفال في رؤوسهم إنما هي من تفريط الآباء في تسليم أعشار غلاتهم للأضرحة المتعهدة بتلك الصدقات».

كان مارا من بيت الولد، إبَّانَ تلك النازلة، يهودي يأتي من أمزميز ليصنع البرادع للحمير والبغال، فجرى الحديث بينه وبين الأعوان عن قضية القرع فقال لهم: أما سر غزارة شعر اليهود فهو شربهم لماء الحياة، وينطق به الناس (ماحيا)، وهو مشروب معروف عند جل بربر الأطلس الكبير، نظرا لسكنى اليهود في قراهم، ونظرا لأن التين الذي يصنع منه بالتقطير يعد من ثمراتهم الشائعة. وقال: إذا كان شرب ماحيا حراما عندكم فإن تضميخ الشعر به يصلحه، فما عليكم إلا أن تشتروه منا.

لم تمض سوى أشهر قليلة على رجوع الولد إلى الكتَّاب بعد تغيبه بسبب السقوط من الجرف، حتى حل عيد الأضحى، وكان الولد على العادة هو الذي فاز من الثياب الجديدة بحلة كاملة، من البلغة (الحذاء) إلى الجراب (الشكارة) بمجدوله، مع جلباب رائق وتشامير (لباس داخلي طويل). والغالب أن حظ الآخرين والأخريات لا يتعدى حاجة أو حاجتين، وبعد الرجوع من المصلى، وعند المرور السريع للسلام على العمات في الدار الكبرى، قالت إحداهن للوالد : «يا أخي! إن تقشيب الولد بهذا الشكل يعرضه للعين، ونحن لم نعد نطيق أن نسمع بأسا يحل به».

في يوم ثاني العيد تبدأ الفرجة، من طرب ومسرح. ويعتبر مسرح عيد الأضحى هو الفرجة الكبرى في الاحتفال الذي يدوم سبعة أيام. يقام بين العصر والمغرب في الساحة الوسطى للقرية حيث يتسنى للجمهور الجلوس على المرتفعات الطبيعية المحيطة بشكل يتيح التتبع الكامل للوقائع، إما من الجالسين على تلك المنحدرات أو ممن يجلسن من النساء فوق سطوح الدور المجاورة.

تبدأ الفرجة بغناء تتخلله حركات، ثم تأتي حصة المسرح التي تنتهي قبل غروب الشمس. وأما فرجة الليل، فغناء بصفين يتجاوبان، صف رجال وصف نساء. وتكون بينهما محاورة ذات معان رقيقة، بعضها مرتجل وبعضها مقتبس محفوظ، وفي كل مرة يختم شوط من المحاورة بغناء على شكل إيقاع سريع يغني فيه الرجال مقطع لازمة والنساء مقطعا آخر.

يظهر ممثلو الفرجة على ثلاثة أصناف هم:

1) الرجل المتنكر في جلود المعزى ورأسها، ويتولى تنظيم الحفل بحيث يتحكم ويعاقب بكراع في منتهى يديه، يضرب به الأولاد والشبان على الخصوص، ومن تجرأ عليهم حتى من الكبار؛

2) اليهود، وهم مسلمون متنكرون بوضع أقنعة من الورق أو الجلد على وجوههم مع ارتداء لباس خال من كل أناقة أو انسجام، وظهورهم في صفة يهود يتجلى على الخصوص في طريقة كلامهم وفي المواضيع الساخرة التي يطرقونها والتي تتناول مواقف من الحياة تعزى إليهم في تلك البيئة، ويكون عددهم ما بين ثلاثة وستة؛

3) مسلمون يمثلون شركاء لليهود في مزارعة، يكون موضوع المزارعة هو التفاوض على شركة الحرث بين مسلمين يتوفرون على دابة الحرث التي يمثلها الرجل المعزى، وبين يهود يأتون ببقية لوازم المزارعة.

تنتهي الشركة بالفشل، ولكن العرض بحواراته يكون ساخراً مضحكاً، يتضمن كثيراً من الغمز الذي يشير إلى وقائع في حياة القرية خلال السنة المنصرمة بشكل ذكي يجعل هؤلاء الأشخاص الذين يمثلون فريق «اليهود» يقولون بلكنتهم الخاصة أموراً لا تقال باللغة العادية في الحياة العادية.

مر العيد بكل فرحته وأهازيجه ومسرحه وتظاهره، وكان الاختتام كالعادة أمام دار الوالد لأنها في الطرف الأقصى للقرية. بدأ الحفل عند العصر وانتهى بعد العشاء، وفرجة النهار رقصات وتمثيل، يشارك فيها الرجل اللابس جلود المعز، والفرقة المقنعة المسماة بيهود العيد.

أصيب الولد بآفتين خفيفتين أخريين قبل تمام أيام العيد، ركلة بغلة والده، عندما ذهب ليضع أمامها شعير العلف في المحل المعد له، ولدغة زنبور في شفته، وكان الزنبور داخل إبريق شاي كانت فيه بقية، رفعه ليشرب منه بدل أن يصب الشاي في الكأس.

وفي بداية فصل الشتاء وصل الإعلام من الحكام بأن باشا مدينة مراكش وحاكم ناحيتها الفرنسي سيخرجان للصيد بإمرغن بعد يومين. أرسل خليفة القائد أعوانه المقربين، وكلف الشيخ عمر كعادته الوالد بالتعامل معهم لتحضير ما يلزم. حُشر آلاف الرجال والنساء للتسخير، وعزم أعوان الخليفة على رفع الأهبة وضمان الطاعة في التنفيذ على أقصى وجوه الإتقان والسرعة، فلم يروا من سبيل لذلك سوى زرع الرعب بين الشيوخ والمقدمين حتى ينفث هؤلاء غضبهم في التحريض على محكوميهم، وسمع الناس في الساعات الأولى أن أصحاب الخليفة (أعوانه) تناولوا بالعصا فلاناً وفلاناً من الأعيان، وهم من الموقرين في قبائلهم، وكان أشد الناس حرجاً الوالد، لأن

الحفل يقام في قرية الشيخ الذي ينوب عنه، والزبانية قد كشروا عن أنيابهم وأبانوا عن شر مستطير قد لا يستثنون منه حتى أندادهم من أبناء أيت واحمان.

قبل غروب شمس يوم ورود الإعلام وصلت الجحافل وأُعملت المعاول فتطاير الغبار وقُطعت الأشجار وأزعجت الأحياء في الغاب من مكامنها من طير وأرانب بعد قطع السدر وإبادة المنابت على جنبات الطريق.

اختير بسيط لنصب خيام الاحتفال في مكان مشرف مقابل للمرتفعات الجبلية التي سيطرد منها الصيد، والبسيط المذكور أرض في ملك الشيخ عمر، زُرعت قمحاً، وكان الزرع طيباً قد علا الأرض بمقدار شبر، فما كان من الزبانية المتحكمين إلا أن أمروا بأن تصب عليه آلاف أحمال الرمال لردم ذلك الزرع وتسوية الأرض. قضى الناس الليل البارد المطير يحضرون المطلوب لاستقبال الضيفين الساميين اللذين أراد المضيف أن يظهر أمامهما بمظهر الحاكم الكفء المقتدر الذي يستحق الترقية.

كانت دار الحداد في قرية الرعاة هي مقر مجمع الأواني وإصدار أوامر الأعوان وإنفاذ خطتهم في التطويع.

كان الجبل في الصباح مغطى بالضباب والأرض قد تشبعت بالماء وركد منها في المنحدرات ما كوَّن مستنقعات، وصار الحال أشق منه في اليوم السابق.

وصل كل أعيان الجهة من قواد وشيوخ وحكام من النصارى واصطفوا للاستقبال، وجاء الخبر بأن الباشا والحاكم قد عدلا عن الخروج لحفلة الصيد لمانع طارئ.

انصرف الكبار وانفرطت الأجواق وأذن لآلاف الواقفين على

جنبات الطرق للترحيب بأن يرجعوا إلى قبائلهم بعد الظهر، وكان الخليفة المنظم آخر من رحل من الكبار، ومعه بعض أعوانه الذين خفت برحيلهم حدة الرعب. وكان الخليفة قد ظهر بسيارة جديدة من نوع كادياك اشتراها للمناسبة، وقد ركبها من ساحة الخيام عند الانصراف، ولكنها خاست في الطين وصارت عجلاتها تدور في الفراغ، فندت من أحد الأعوان صيحة جعلت حشداً من المصطفين يهبون لرفع السيارة بمن فيها، فتقدموا بها وكأن المرغوب هو أن يصلوا بها إلى وجهتها الأخيرة وهم يركضون، فقيل لهم ضعوها على الأرض الصلبة، فوضعوا.

لم يصل إلى علم الولد شيء عن المحنة أو الإهانة التي تعرض لها الوالد في التعامل مع أولئك المتسلطين.وقد سمع من بعض الاقارب أن أولائك الأعوان بيَّتوا أن يكسروا النخوة التي يمثلها الوالد في أسرته وذلك بتعريضه للسوط والعصا علي طريقتهم الناقمة الشامتة، لكن إنذارا صادرا من صديق العائلة سكناه بقرية تساويركَان اسمه بوستة قد جنبه التعرض لذلك العدوان الشائن. لكن الثابت هو أنه خرج منكسر النفس مريض المزاج من تلك الزوبعة.

قرر الوالد أن يتغيب بعائلته شهوراً في مراكش، فأعد لذلك عدته في أيام.

سكن الوالد بأهله دار العائلة الكبرى، وكانت تلك الإقامة مناسبة للولد لكي يتعلم العربية الدارجة، لاسيما في تسخيراته لشراء أغراض من المتاجر بسويقة الحي. ورأى هناك أموراً كثيرة منها مرور كوكبة من النساء قال المتفرجون من التجار إنهن ذاهبات للقاء نساء أخريات قصد تشكيل وفد يذهب إلى قصر باشا مراكش لاستعطافه، عسى أن يتراجع عن منع النساء من ارتداء الجلباب بعد أن ألزمهن

بارتداء الملاءات الصوفية (الحياك) أو القطنية (الإزارات) المعتادة.

وحيث إن الإقامة كانت ستطول بمراكش فقد قرر الوالد أن يدخل ولده إلى كتَّاب قرآني. كان الكتَّاب في حي الجزا، بين حي عرصة إهيري الذي به الدار وبين حي روض العروس.

كان الكتّاب قاعة واحدة في الطابق الأول، يُطلع إليها بدرج بابه على الشارع. رحب المعلم بالولد وأعطاه لوحاً واصل فيه حفظ حزب «الرحم؟ن علم القرآن». وسرعان ما اندمج مع بقية الأولاد المتعلمين من أبناء المدينة مع ما يقتضيه ذلك من الجهد والتحمل.

كان يتردد على معلم هذا الكتَّاب كل يوم عدد من النساء قد يصل عددهن بحيث يكون من ينتظر منهن دوره بحسبامرأة على درجة واحدة من السلم. والسبب في هذا الإقبال شهرة المعلم في إجراء أسباب التقريب بين الأزواج وإبطال المنافرة التي يكون سببها السحر.

رأى الولد بأم عينيه أن المرأة التي تطلب التقريب في المودة تشاهد المعلم يأخذ قصبة من عدد من القصبات بجانبه فيشقها نصفين، فيأمر ولدين من تلاميذه يقفان ويأخذان بطرفي نصفي القصبة متباعدين، كل واحد من جهة، فيشرع المعلم في قراءة أذكار في سره، ولا تنبئ بذلك إلا حركة شفتيه، وهو ينظر إلى القصبتين، ومن حوله شهود. فإذا نصفا القصبتين يقترب أحدهما من الآخر حتى يلتقيا ويسمع اصطفاقهما، وتفهم المرأة أن سبب المودة مع من تريد قد استحكم، وتسلم الهدية (الفتوح) وتنصرف.

أما المرأة التي تشتكي من نفرة بسبب السحر فإن المعلم يشتغل لها بأن يأخذ ورقة ويملؤها بالكتابة بقلم السمق، فيأمر طفلاً من تلاميذه بالوقوف ويحمل الورقة على راحة يده اليمنى، فيأخذ المعلم في تلاوة أذكار معينة سراً، فتأخذ الورقة في الانطواء حتى تصير

كالجعبة، ثم تأخذ في الانبساط حتى تعود كما كانت، وتفهم المرأة أن السحر قد تم فسخه، وتسلم الهدية وتنصرف.

يأتي الوالد، في بعض الأيام، في نهاية حصة المساء ليصحب ولده في طريق العودة. وذات يوم وجد الوالد جالساً مع الطالب شخصاً شابا سميناً وسيماً كثير التردد عليه، فاختلى بالوالد في حديث خاص كان هو الذي طلبه.

في الغد، قرر الوالد أن يذهب بولده إلى كتَّاب قرآني جديد في الطرف الآخر للحي. نُمي إلى الولد من جهة زوجة أبيه أن الرجل الشاب الذي كلَّم الوالد بالأمس طلب منه مالا دفعه إليه الوالد استحياءً، ولكن الذي أحرج الوالد وجعله يسحب الولد من ذلك الكتاب هو أن الشخص الذي طلب المال من الوالد ذكر له الوجه الرذيل الذي أراد أن ينفق فيه ما طلب، كلام عادي في ذهن ابن المدينة، بينما هو منكر مستقبح في تقدير ابن البادية.

جاء في بداية صيف عام واحد وخمسين، استدعاء من المخزن إلى الشيخ عمر لحضور حفل اختتام السنة الدراسية بمدرسة أمزميز الابتدائية، وهي من المدارس القليلة التي أحدثها نظام الحماية في مجموع حوز مراكش، وبعد مدرسة أمزميز أحدثوا مدرسة ثلاث ن يعقوب. وقد أناب الشيخ كعادته في الاعوام الماضية، الوالد في الحضور. ففي ذلك الحفل يستعرض التلاميذ من أبناء البربر الجبليين محفوظات من شعر لافونطين وغيره من الشعراء الفرنسيين، ولا يكتفون بالاستظهار بل يقومون بتمثيل مسرحي لها في سكيتشات باللغة الفرنسية، فيرى الأعيان الحاضرون في الحفل من أهل البلد ، إلى جانب الحاكم والقائد والدركيين وحراس الغابة وكل الإداريين، يرون أن أطفالا من بني جلدتهم يتكلمون لغة الحكام، ثم إن

انبهارهم يكون أشد عندما يرون بعض المتفوقين من التلاميذ يستظهرون بعض المحفوظات باللغة العربية، وهم لم يسمعوا العربية إلا في القرآن وفي خطب الجمعة التي يتلقونها جملة على أنها من مرفقات الصلاة. يتوج الحفل بتوزيع جوائز عبارة عن كتب للأطفال باللغة الفرنسية لا غير، كتب في حلة لم يروا لها مثيلا بورقها وصورها ذات الألوان، تمثل أنواعا من حيوانات وأشخاص وأشياء غير مألوفة في حياتهم. ثم إن هؤلاء التلاميذ المتفوقين الذين يتسلمون الجوائز يصافحون الحاكم مثل الند للند كما تقتضيه اللغة، وهذا الكلام مع الحاكم بلغته لا يتيسر حتى لقواد القبائل الذين يخاطبون الحاكم بعربيتهم ذات اللكنة الشلحية ويخاطبهم هو بعربيته الوظيفية التي قرأ جملها المحدودة في مدرسة ضباط الشؤون الأهلية، يؤديها بنطقه العجمي المكسر، وإذا استعصى عليه تبليغ شيء ببضاعته القليلة في العربية فإنه يبلغه باللغة الفرنسية عبر الترجمان المسلم الذي هو في نفس الوقت كاتبه.

كان الوالد، منذ حضوره آخر مرة في مثل هذا الحفل، يفكر في إلحاق ولده بمدرسة مثل مدرسة أمزميز، فكر في مدرسة أمزميز نفسها، وهي على بعد خمسة وعشرين ميلا، على أن يقيم الولد عند صديق للوالد، وهو نائب ناظر الأحباس واسمه السي بوحسين، وهو رجل كثير التردد على دار الوالد، محبوب، ظريف، تعتني زوجته الشريفة الركَراكَية للا صفية، بكل من يأتي إلى أمزميز من جهة دار أيت واحمان. ثم فكر الوالد بهذا الصدد في مدرسة إمزوغن، وهي القرية المعروفة بالباراج منذ أن أقيم بها سد للاتاكركوست أواسط أعوام الثلاثين، وهنا أيضا يوجد أصدقاء للوالد، وفي مقدمتهم شيخ تلك القبيلة، وفكر في أن يودع الولد عند بعض أقاربه في مراكش

نفسها، ولكن زوجته الثانية قالت له وهو يتحدث عن الموضوع: «كيف يمكن أن ترسل الولد ليقيم عند الناس في مراكش وهو ما يزال يحدث له أن يبلل ثيابه بالليل!».

نقلت خادمة ذلك التعليق إلى الوالدة فقالت: «عيب ولدي قد زال، يحسدنا أهل الدار، فما شكونا من البراني!».

كانت مفاجأة سارة للوالد وهو يستمع إلى خطاب الحاكم بأمزميز في حفل صيف عام واحد وخمسين حيث أعلن أن مدرسة ستفتح أبوابها في ويرگان في أكتوبر المقبل.

عاد الوالد من أمزميز وانطلق يذكر بحماسة أوصاف ما شاهده مرة أخرى في حفل المدرسة، ثم قال للولد أمام من حضر: «بعد شهرين ستدخل إلى الشكويلة (المدرسة) في ويرگان».

قالت الأم : «والمسجد؟» قال : «حتى القرآن يحفظونه في المدرسة، ثم إنه في عطلة الصيف يمكن للولد الرجوع إلى المسجد وحفظ ما لا يقل عن حزبين، فأحمد الآن في حزب «تبارك»».

توجد قرية ويرگان على بعد ثلاثة أميال من دار الولد، وفيها يقام السوق الأسبوعي للقبيلة كل يوم خميس، وبمناسبة إقامة السوق وتجمع الناس يحضر الحاكم والقائد والشيوخ حيث تعرض عليهما بعض الدعاوى للفصل فيها، وبنفس المناسبه يمكن لهؤلاء الحكام أن يبلّغوا شيوخ القبائل الأوامر المخزنية (الحكومية) المستجدة. يتم ذلك في مكتب من غرفتين متجاورتين، لواحدة منهما باب على السوق وللأخرى باب على ساحة في طرفها غرفة أخرى للاستراحة.

لم يزر الولد من قبل هذه القرية، وهو لا يدري شيئا عن هذا الشيء المسمى بالمدرسة، ولا يتصور دراسة غير ما ألفه في كتّاب حفظ القرآن بالمسجد. كل ما ينتظره هو أن تمر الأيام بسرعة ليكتشف

أمورا لا يستطيع أن يتخيل شيئا منها، فأسئلته الكثيرة للوالد لا تأتي بجواب واضح. شيء واحد تيقن منه، هو أنه لن يذهب في الصباح ويعود في المساء كغيره من الأطفال الذين سيسجَّلون في المدرسة من قريته، بل سيقيم غذاء ومبيتا عند أسرة مقدم ويركَان، صديق والده، ويسمى أداً حسين نايت سوس.

جاءت الأوامر لتسجيل خمسين طفلا سيدخلون الشكويلة، من قرية ويركَان ومن القرى المجاورة. منهم من هو في السادسة أو السابعة، ومنهم من هو في الرابعة عشرة من عمره. تردد كثير من الناس في تسجيل أولادهم لأنهم تخوفوا من مقاصد النصارى من ذلك المشروع ولأنهم سيحرمون الاستعانة اليومية بأولادهم في الأشغال. أما الشيخ عمر، عم الوالد، فقد كان له ولد اسمه احماد (والبربر يميزون في النطق بين احمد، بتسكين كل حروفه على عادتهم في تغليب التسكين، وبين احماد، بفتح الميم). كان عمره هو عمر الولد، وليس بينهما سوى ستة أيام، وقد أراد الشيخ عمر أن يُعفى ولده احماد من المدرسة، فتقدم إلى القائد، وهو مار بسيارته إلى مراكش وتوقف ليسأل عن عملية تسجيل الأولاد للمدرسة، فدس في يده رشوة قدرها مائة ريال وقال: «نريد منك أن تعفي ولدنا من المدرسة لأن لنا بقرة هو المكلف بسرحها»، فقال القائد: «وهل فكرت أيها الشيخ عمر ماذا سيقول الناس إذا امتنع الشيخ من إرسال ولده إلى المدرسة!؟» ولا شك أن القائد بعد انصرافه ضحك مع أصحابه من العذر الساذج الذي تقدم به الشيخ، وخمنوا أن تلك العبارة ليست منه، وإنما هي من زوجته الطارئة غير أم الولد.

ولما حل شهر أكتوبر جاء الأمر بالتحاق التلاميذ بالمدرسة في يوم جمعة، أي في غد يوم السوق.

ذهب الوالد بنفسه صحبة ولده مردفا إياه على البغلة، وذهب الأولاد الآخرون بعضهم راكبا وبعضهم راجلا، وبعضهم مصحوبا بوالده وبعضهم مرسلا مع الجماعة، وكلهم حمل زاد غذاء ذلك اليوم.

يمتد نصف الطريق الأول من إمرغن إلى ويركَان عبر الغابة طلوعا ونزولا، ونصفها الثاني في الطريق المعبد، وهو شديد الانحدار. وأول ما يكتشف من يشارف قرية ويركَان هو ضيعة زيتون وخروب في طرفها مقهى في ملك امرأة لا تتكلم إلا العربية ولغة النصارى، استوطنت هناك في ظروف خاصة، اسمها الباهية، وهي متزوجة من شخص أوربي اسمه دومكنهايم. ثم تبدو القنطرة الكبرى على النهر، مرفوعة على سبعة أقواس حنايا عالية مبنية من الحجارة البيضاء. ثم على نهاية القنطرة إلى الجانب المقابل للنهر توجد «الكانتينا»، وهي مقصف ومطعم وبعض غرف الإيواء في ملك فرنسي اسمه «بول تيفنان»، ورائحة مطبخ هذا المطعم تشعرك بأنك داخل إلى عالم آخر غير عالم الطعام البلدي الخالي من البهارات في غالب الأحيان. ثم تتقدم وسط القرية فإذا فيها بعض المتاجر على جانبي الطريق، فيها من عدد السلع كثير مما لا تقارن به حوانيت إِمَرِغْنْ. ثم يصل الواصل إلى فضاء فيه دار مبنية على نمط أوروبي، وفي جنباتها أحواض تنبت فيها مختلف الأزهار الرومية، وفي قبالتها مقهى لمغربي عربي اسمه العياشي، ومنها إلى حيث يقام السوق الأسبوعي. ويوجد مكتب الحاكم (البيرو) على يسار الطريق. وعلى اليمين دار لأوربي اسمه باياك، يشتغل في مطبعه تخرج الجرائد في الدار البيضاء، وتقيم زوجه المغربية في هذه الدار.

تجمع الأولاد المسجلون للدخول إلى الشكويلة (المدرسة

العصرية) عند مكتب الحاكم وقيل لهم: إن الشكويلة ستكون في إحدى قاعتي مكتب الحاكم، والعطلة ستكون يوم الخميس، حيث يقام السوق، ويوم الأحد، وقيل لهم أيضا إن المعلم سيصل يوم الإثنين المقبل.

رجع الأولاد إلى الساحة التي أمام مقهى العياشي حيث أخرج كل زاده للغذاء، وجلس للأكل أمام مصرف ماء. جاء الأولاد من خمس قرى غير قرية درب ويركَان. لم يشك أحد في أن أمر المدرسة جد، فقد وصلت قبل ذلك من مراكش سيارة شحن ضخمة إلى تلك الساحة وحطت المقاعد التي سيجلس عليها التلاميذ، ومعها وصل مكتب المعلم واللوح الأسود الذي سيكتب عليه.

لم يحضر الولد إلا قليلا لقاء التعارف بين الأولاد في تلك الساحة، لأن الوالد ذهب به إلى دار المقدم أدًّا حسين نايت سوس لتناول الغذاء وللتعرف على العائلة التي ستُؤويه أيام الدراسة في الأسبوع.

كان لعائلة أيت سوس ولد أصغر من أحمد بعام، سيدخل معه المدرسة، واسمه أحمد مثله. وكان ولدهم الأكبر واسمه الحسين، هو المقدم الفعلي في القرية، وهو متزوج، وله مخالطة مع أصحاب المقاهي من النصارى، يتكلم الفرنسية التي تعلمها من المخالطة. وقد تظاهر وكأنه عارف بجزئيات ما ستجري عليه الأمور بالنسبة للدخول إلى المدرسة، وبين الحين والآخر كان ينطق بشيء من مزعوم اطلاعاته.

في يوم الإثنين الموالي، التحق كل الأولاد في الصباح الباكر بالمدرسة. كان المعلم قد وصل، وهو شاب وسيم اسمه أحمد، يظهر عليه أثر النعمة. كان يرشده في كل شيء ابن المقدم الحسين

نايت سوس وشخص قارئ معروف لدى عائلة أيت واحمان، اسمه سي محمد التلحيق. والتلحيق هو حبة البارود، سمي الشخص المذكور بذلك لأنه ينطلق بالأخبار سريعا، وقد تزند بأخباره حوادث خارقة، كان يجالس شيخ أيت واحمان ويتصل بالقائد لأنه يعرف كيف يكتب الرسائل المخزنية الإعلامية. وقد قيل إنه سيعين لاحقا بالمدرسة معلما للغة العربية.

لم يدخل التلاميذ إلى الفصل في اليومين الأولين، لأن المعلم انشغل بترتيب أمور داخله، من كتب وصور ولوحات. استعان بأولاد كان منهم أحمد، وقد أظهر به عناية وكأنه تلقى من ولد المقدم أخبارا عن القبيلة وأعيانها وأحوال الناس وكيف يمكن التصرف معهم.

لقي الولد حفاوة في دار المقدم، وكانت سيدة الدار امرأة يقطر منها النبل، وعرائسها شامخات. وكان لهم ولد مكرس لقراءة القرآن تجاوز عمره سن هذه المدرسة الجديدة، وكانوا يرسلون إلى معلم الشكويلة قارورة حليب كل صباح.

أجلس المعلم التلاميذ في المقاعد الخشبية التي يتسع كل مقعد منها لثلاثة تلاميذ. الصغار في الأمام، والأطول منهم قامة يجلس في مؤخرة الصفين.

اشتغل المعلم بتعليم الأولاد القراءة والكتابة تدريجيا، من الحروف إلى الكلمات، وذلك على اللوح الأسود المعلق على الحائط، وباستعمال الطباشير. وفي نفس الوقت كان يعلم الأولاد المحادثة باللغة الفرنسية ويعلمهم الحساب، ثم بعض المحفوظات بطريقة جماعية. وفي يوم من الأيام جاء يفتشه المدير الفرنسي الذي في مدرسة ثلاث ن يعقوب، ووجد تلاميذ مدرسة ويركان نابهين

سريعي التعلم، إلا أنه استغرب من كون المعلم يلقنهم محفوظات لا يفهمون معناها وينطقونها نطقا منكرا لا وقف فيه حيث ينبغي، إذ كانوا يقولون جماعة في إحدى المحفوظات:

جيملا نسيدو

بدل أن ينطقوا : جيم لان[1] J'aime l'âne، ومعناه : أحب الحمار.

سي دو si doux!، ومعناه : ما ألطفه...

فعاتب المفتش المعلم وأمره بالكف عن هذا النوع من التحفيظ.

وبعد أسبوع وزع المعلم الألواح الحجرية والطباشير على التلاميذ.

وبعد ثلاثة أشهر وصلت كمية من الدفاتر وأقلام الرصاص، فقسم المعلم الدفتر الواحد على تلميذين، وقلم الرصاص كذلك، وفي بعض الأحيان كان المعلم يُخرج جميع التلاميذ إلى الساحة التي بجانب القسم لتعليم درس في المحادثة في الهواء الطلق.

في منتصف العام، وصلت المحابر المرمرية البيضاء، ووضعت في مكانها من الطاولات، وصب فيها الحبر الأرجواني من قارورة، ووزعت الريشات على التلاميذ، وبدأوا يتعلمون استعمالها باحترام ظهر الحرف وبطنه، ومراعاة التناسب في ارتفاع مختلف الحروف، وفي كل مساء تجمع الدفاتر لتصحيحها ويأخذها المعلم إلى غرفة إقامته المجاورة.

سرعان ما ظهر أن صدارة التفوق في القسم يتداولها الولد

(1) من قصيدة للشاعر الفرنسي Francis Jammes

وتلميذ آخر يتيم كفله إخوته من نفس القرية إِمَرِغْنْ، اسمه عبد الله ن بوطرخا. وكان تأدب الوالد مع المعلم وتردده عليه واستفساره عن أحواله وإكرامه، بالإضافة إلى نجابة ظاهرة من الولد، قد جعلت المعلم يشفق على هشاشة الولد حتى إنه إذا رأى أن علامات الإعياء ظاهرة عليه في حصة ما بعد الظهيرة كان يأمره بأن ينتقل لغرفته لقيلولة قصيرة، ويعود ليلتحق بالتلاميذ، فعل ذلك مرتين أو ثلاثا.

ساد جو من الحرج بين الولد وجليسه في المقعد الأمامي، ابن العائلة التي تضيفه، أيت سوس، حيث ظهر تفاوت في التجاوب مع تقدم التعليم.

وبعد شهر من وصول المحابر والريشات وصل كتاب القراءة، وعنوانه: صباح الخير يا علي! صباح الخير يا فاطمة! Bonjour, Ali! Bonjour, Fatima!.

منذ افتتاح المدرسة تمتع التلاميذ ببعض العطل، ذهب فيها المعلم إلى بلده، وبقي التلاميذ في دواويرهم، وحاول الوالد أن يعيد الولد إلى الكتَّاب لاستئناف حفظ القرآن، لكن الجو في المسجد قد تغير بالنسبة لكل الذين ذهبوا إلى المدرسة، فقد تهامس عدد من أفراد الجماعة بعتاب مفاده أن الذين أدخلوا أولادهم إلى المدرسة قد تسببوا في شبه إفراغ المسجد. وقد حرض الطالب الإمام على انتشار تلك الإشاعات وشجع عليها، بل إنه اغتنم فرصة اعتكاف الفقراء التجانيين بزاويتهم بمناسبة عيد المولد، فقال إن حكم الداخلين إلى المدرسة أن يحشروا يوم القيامة مع النصارى، لأن مما ورد من توجيهات الدين أن من عاشر قوما أربعين يوما حُشر معهم، وقال إن معاشرة هؤلاء الموالين للكفار مما لا يقبله الدين أيضا. لا شك أن الإمام قال ذلك في جلسة كان الوالد عنها غائبا، وبالرغم من أن الوالد لم يكن ليثنيه عن مشروعه بإدخال الولد إلى المدرسة مثل هذا

الوعيد والتهديد، فإنه تأثر عندما حضر صلاة تراويح ليلة السابع والعشرين من رمضان، ورأى أن الإمام تعمد أن يقدم أولادا صغارا يتناوبون على ركعات يصلونها بالناس من حفظهم، دون سهو ولا تعثر، فتمنى الوالد إذ ذاك أن لو كان ولده يجمع بين الحسنيين، حفظ القرآن والقراءة في مدرسة النصارى.

حل فصل الربيع وصارت أحواض الزهور حول دور الأوربيين في قرية ويركَان بهجة للناظرين، تتميز بأنواعها عما هو مألوف في حقول الزرع ومنابت الطبيعة في إِمَرِغْنْ، ومن أهم ما يميزها ورود مستوردة ونباتات مخملية تتسلق جدران المنازل، ووراء الجدار الذي يحد ساحة المدرسة يمتد حقل نبت فيه قمح طيب، ممتلئ السنابل، لا يكاد يحرك سيقانه الريح الخفيف. كان هذا الحقل يفصل بين المدرسة وبين مقهى مجاور. كان بعض المتكلمين بالسوء يروجون أن صاحب هذا المقهى يبيع أشياء محرمة للمسلمين، وكانت سيدة حسناء شقراء تسكن غير بعيد، وكان يحلو لها أن تتقدم نحو المدرسة عبر حقل القمح خلال السنابل، حتى إن إهابها يكاد يرى من خلال نوافذ الفصل، لعلها كانت تتمنى أن يكون لها ولد مثل الأولاد الذين يتعلمون في المدرسة.

بعد أشهر من انطلاق الدراسة التحق السي محمد التلحيق بالمدرسة معلما للغة العربية، وكانت مخصصة لهذه اللغة حصة ساعة واحدة في آخر النهار. لم تكن مهمة هذا المعلم صعبة لأن كل التلاميذ مروا بالكتّاب وحفظوا ما تيسر من القرآن، ولكنه تميز بإدخال عادات المدرسين السيئة المتمثلة في ضرب الأطفال وشتمهم، لأنه كان يعرف أسرارهم من خلال أسماء عائلاتهم، وكان يعيِّر السمر بلون بشرتهم والذين في وجوههم فطس بأنوفهم. كان

يختم حصته بأن يأمر التلاميذ بترديد جماعي وبصوت عال لهذا البيت:

محمد بشر لا كالبشر بل هو كالياقوت بين الحجر

أجرى المعلمان للتلاميذ اختبار آخر العام، فنجح منهم عدد غير قليل، فجاء المدير النصراني وقرر أن يكرر الجميع القسم التحضيري حتى يأخذ المتقدمون بأيدي المتخلفين. وحدد يوم لإقامة حفل نهاية العام، وحضر الحاكم والقائد والمدير والشيخ والأعيان ومن رغب في الحضور من أولياء التلاميذ.

كان الضيوف المتميزون جالسين على مقاعد جيء بها من مكتب الحاكم، وأخذ التلاميذ في تنفيذ ما سطره لهم المعلم من قراءة محفوظات أو قيام بأدوار في تمثيليات، وكل ذلك باللغة الفرنسية. وكان للولد دور في تمثيل حكاية الغراب والثعلب من شعر لافونطين، تلك الحكاية التي خدع فيها الثعلب الغراب بتملقه وقوله له إنه فصيح، فانتشى الغراب وأطلق الجبنة التي في فمه وخطفها الثعلب، وعُيِّر الغراب بالانخداع لأقوال المتملقين.

انتهى الحفل بإعطاء الجوائز، وتصفيق النصارى لأبناء البلد، وقيام الحاكم واقفا حتى سلم على الأولاد المتفوقين.

أوشك الوالد في تلك اللحظة أن يبكي فرحا من نشوة الفخر بولده، فها هو يعيش أمله يتحقق ويرى ولده كما كان يتمنى أن يراه عندما كان يحضر حفل تخرج تلاميذ مدرسة أمزميز. لكن الذي تغيرت فكرته رأسا على عقب هو الشيخ عمر، عم الوالد، فهو من صنف الآباء الذين لا يرون أن من الحكمة أن يبتسم الأب لولده، بله أن يدلله ويسايره في خواطره، وكان من جملة أقارب الوالد الذين يضمرون له النقد، وربما غمزوه في موضوع المعاملة الرخوة الضعيفة

التي يعامل بها ولده، ولكن منظر الولد وهو يتسلم الجائزة الأولى من يد الحاكم الذي يصافحه ويصفق له قد جعل الشيخ ينظر إلى الولد ووالده بمنظار جديد.

إلا أن شيئا مستقبحا قد كدر صفو المدرسة ونجاح ملازميها من التلاميذ، فقد شاع أن زوج المرأة الحسناء المذكورة بجوار المدرسة، قد رفع ضد مسيو أحمد، معلم المدرسة الطيب الذي جاء من بلد بعيد، رفع ضده دعوى في المحكمة متهما إياه بأنه طلب من زوجته التي تسير بين سنابل القمح لتقترب من المدرسة، طلب منها أن تصنع له شايا بالنعنع بدون علم زوجها.

كانت تلك الواقعة، عندما شاعت، انتصارا لكل الذين كرهوا المدرسة وأهلها، وأدخلت الحزن على الوالد وعلى كل من عرف المعلم وقدر لطفه وليونته، والأنكى من ذلك أن الدعوى كانت مسجلة في عين المكان، وكان على المعلم أن يأتي لجلسات المحكمة في أيام السوق خلال الموسم الدراسي الموالي.

عند افتتاح هذا الموسم، جاء معلم جديد، أصله من مراكش، اسمه الحسين. وكان بخلاف سابقه يغضب ويضرب، ويطرق المقاهي، ولا سيما المقهى الذي عند القنطرة، واسمه مقهى «عند الهلوف المبخر» Au Sanglier qui Fume.

وقد كتب اسم المقهى الذي هو في نفس الوقت مطعم وفندق، كتب في لوحة كبيرة ببابه، لوحة فيها صورة هلوف في فمه غليون وهو يدخن، إذ وقع التعبير بهذه الصورة مجازا، لأن عبارة qui fume بالفرنسية قد تعني: الذي يعلو بخاره بعد طبخه، أو الذي يدخن التبغ. وكثير من الناس يرون أن الهلوف المدخن الحقيقي في هذا المقهى (الكانتينا) هو الشخص صاحبه، بول تيفنان، وذلك من حيث

هيئة جسمه، وضخامة صوته، وكونه لا يلبس صيفا وشتاء إلا سراويل قصيرة بين ركبتيه وسرته، ويظل بصدره وظهره عاريا، لا يشكو حرا ولا بردا، بل يقضي وقته وهو يصرخ في وجه العمال، وفي أوقات فراغه يلعب البينغ بونغ أو يلعب الرمي بالقوس، ويقوم بكل ما من شأنه إغراء زبائنه من الرجال ومن النساء على الخصوص، حتى يضمن عودتهم إلى مؤسسته.

كان هذا المقهى المطعم الفندق مقصودا للسياحة من مراكش، ولا سيما في يومي السبت والأحد. وفي أيام العطل والأعياد، أعياد النصارى. كان صاحبه ينظم للزبناء، ومعظمهم من النصارى العاملين في المدينة، حفلات راقصة في الساحة التي بين باب المقصف والنهر المجاور، وهي ساحة تظللها أغصان شجرة جوز عظمى، يسكن فوقها لقلاق له شهرة في المغرب كله.

مجيء هؤلاء الزبناء السيَّاح من مراكش في غير أيام العطلة مفيدا للتلاميذ الذين يأتون من قرية إِمَرِغْنْ، لأن القرية تقع في الطريق إلى مراكش، فبعد خروج التلاميذ من المدرسة يمشون كلمترا واحدا قبل الوصول إلى المقهى، وهنا يزيد حظهم في استيقاف سيارة واستعطاف أصحابها من النصارى لنقلهم إلى النقطة المقابلة للقرية من الطريق، ثم يبقى عليهم أن يدلفوا بين الحقول للوصول إلى دورهم في مقدمة السفح. فأصحاب السيارات يستأنسون بهؤلاء الأطفال الذين يتكلمون الفرنسية في أماكن قاصية داخل الجبل، وفي بعض المناسبات يقضي السيّاح جلستهم بالغابة لأن المقهى لا يتسع لجميعهم، فيجد التلاميذ عشرات الأماكن في الغابة وقد أقام فيها السياح وتناولوا غذاءهم. وقد يفضل من جلستهم شيء محفوظ يكون شكلاطة أو سردينا أو علبا من الفواكه اليابسة.

منذ مطلع هذا العام الثاني خبر الولد بدوره واقع هذا السفر اليومي إذ طلب من والده، وأسعفه الوالد، ألا يقيم عند مضيفيه في العام الماضي بدار مقدم ويركَان، إذ فضل أن يقطع الطريق على رجليه ذهابا في الصباح وإيابا في المساء كل يوم، كما يفعل غيره من الأطفال، دفعه إلى ذلك إحساسه بعبء تلك الإقامة على دار المقدم، لأنهم مضطرون إلى ضرب حساب وجود هذا الغريب الذي يمثل في أعينهم دارا لا يجوز الظهور أمامها بشكل غير لائق في الأكل وفي كل الأحوال، ثم إن العلاقة بين الولد وبين زميله ابن المقدم قد دخلها تعكير بسبب ماجريات داخل القسم الدراسي. وقد يكون السبب الرئيسي هو شعور الولد بعقدة نقص أمام تلاميذ قريته لأنه يتميز عليهم بفرصة عدم تجنب ذلك الإرهاق اليومي، حتى إن بعضهم يقاطعه بسبب ذلك ولا يكلمه، سيما إذا وصل إلى المدرسة من القرية هؤلاء المتجشمون للمشقة في بعض الأيام القاسية، ولباسهم قد التصق بجلودهم بللا من المطر، أو تعرضوا لعواصف الثلج وعواصف الريح الشديد .

وهكذا، وكأن الولد يريد أن يقاسمهم المشقة حتى يرضوا، ولا يبقى فيصلا غير التفوق في الدراسة. هذا هو الطبع الذي لازم الولد، أو العقدة التي تركبت فيه، من كثرة ما قيل له في داره إن أحسن السلوك يكمن في التواضع للآخرين. لكنه فهم هذه الوصية على أساس بلوغ تلك الغاية، غاية إرضاء زملائه، وجلب اعترافهم بتواضعه، وهي الغاية التي لم يدركها في يوم من الأيام، فهو كان يعيش مع الأطفال تلك المحاولة بشكل دؤوب، يراقب كلامهم وأعينهم، عسى أن يكونوا من الراضين، أما هم وقد استأنسوا فيه بذلك الشعور بالمراعاة، فقد كانوا يعاملونه، تلقائيا، بمكر

الاستنزاف، يستلذون أن يروه في محنته تلك، فيغالون عليه إما من أجل الحصول على منافع أو بقصد أن يكبدوه نفورا أو قلى ينطبع به مزاجه الرهيف. فأسعد أوقاته عندما كان يعيش فترة من المسالمة مع رفاقه أو على الأقل مع رؤوس المكر فيهم، وأشقاها عندما يجرون عليه ظلما أو يسمونه افتراء يجد معه نفسه وكأنه مطالب بتبرير سلوكه أو الدفاع عن نفسه. وهو يكظم غيظه، ولا يشك ساعة أنه هو المحق أو أنه هو المظلوم المتعرض للضيم، ولكنه يتصرف وكأنه لا يهتم بأن تنتصر الحقيقة، بل كل همه أن يؤدي ثمن مداراة شر عزاؤه فيه ظنه أنه سيغلب عليه سلوكه الخيِّر في يوم من الأيام، فهو لا يفتأ يفعل هذا الخير، وهو في الوقت نفسه مستعد للاعتذار عنه، إذا لم يتأت تقبله منه، أو قابله إنكاره في وجهه، أو وقع تأويله على أنه مدخول أو أريد به غير قصده. كان له على الدوام معجبون ومناصرون، ولكنه لا يهتم بهم بقدر ما كان يهتم بالجاحدين والحاسدين والمناوئين. كان يعسوب معاكسته هو منافسه في صدارة الترتيب في الفصل، عبد الله ن بوطرخا. وفي بعض الأحيان كان الولد يفرض نفسه على هذا المعاكس بأنواع من الإقناع حتى يميل وتستحكم بينهم لفترة ما محبة تتمثل في وشائج تكون أم الغريم الآخر هي الدافعة إليها، لكنها أواصر لا تلبث أن ترتخي فيعود ذلك الولد الآخر إلى فرض انقباضه تحت ضيم اليتم الذي هو ضحيته، وكأن صاحبه هذا، الولد المسالم، هو الذي قتل له أباه.

ظل هذا الجو من المد والجزر في علاقاته مع الأولاد هو همه الشاغل لوجدانه، لأنه كان يحرص على إرضائهم واعترافهم له بمؤهلاته، وقبول عذره من مستحقاته، فكأنه لا يكره أن يكون غير ولد رجل هو أكثر الوالدين في القرية حظوة بتقدير الناس لحكمته

وإسعافه، أو يكون مدقعا في أسمال، وبليدا في آخر ترتيب الصف، وخاليا من كل ملاحة وطراوة، حتى يستريح مما يجره عليه وجوده وكيانه من العداء. إنه يبدو كمن ولد وهو مدين بدين ثقيل عليه أن يؤديه للحياة، ولعله كان يبحث في كل وقت عن مبرر يجعله يرجئ تمرده أو انتفاضه، مع اقتناعه بجدوى الانتفاض وتجريبه لنجاعته.

يخرج الأولاد من القرية صباحا في اتجاه المدرسة جماعة أو وحدانا حسب التواعد أو المصادفة، يقطعون المسافة في معظمها هرولة أو جريا، وقلما يصلون في الوقت أيام الشتاء، وفي بعض الأحيان تكون أيديهم شبه متجمدة بالبرد، ولكن المعلم الجديد لا يعذرهم إذا تأخروا، بل يأمرهم بمد أصابعهم مجتمعة، فيوجعهم على رؤوسها بمسطرته الحديد.

لم يعد إلى المدرسة كل التلاميذ الذين تسجلوا في العام الأول، لاسيما من القريتين البعيدتين، قرية الولد وقرية تاسا ويركَان. كان أكثر التلاميذ جرأة أهل القرية التي توجد بها المدرسة، وذلك لاستئناسهم بالأجانب، ولأن كلمات فرنسية طرقت سمعهم منذ صغرهم، ولأن بعضهم يشتغل أهله في تلك المقاهي المملوكة للنصارى، ولكن التفوق ظل لتلاميذ إِمَرِغْنْ، يتبعهم بعض أبناء أسرة شيوخ من قرية تكَاديرت ن لبور وإميضل، وتلميذان من درب ويركَان سبقت لهما إقامة بخريبكة لاشتغال والدهما في مناجم الفوسفاط. وكان من التلاميذ بعض من ظلوا شبه مطموسين لا يحصلون شيئا مما يقال لهم، وكان منهم واحد له جواب واحد عن كل أسئلة المعلم مهما كان موضوعها، ويتلخَّص ذلك الجواب في كلمة واحدة هي كلمة «تافرانسيست» ومعناها «الفرنسية»، وذلك أن أهله في اليوم الأول قالوا له إنك ستدخل المدرسة لتتعلم «تافرانسيست»، فحسب

أنها تجمع العلم كله، ومن ثمة لقبه أشرار التلاميذ باسم «تافرانسيست». وظلت التسمية لصيقة به حتى مات رحمه الله.

إذا اشتد البرد بالتلاميذ في طريق الرجوع إلى إِمَرِغْنْ أوقدوا النار للتدفئة في خصلات نبات يعرفونه سريع الاشتعال لهنيهات يسمى أَزُّو، ثم يستمرون، وإذا وصلوا إلى قمة غابة تسمى تيرست صار لغطهم قابلا للالتقاط بالسمع من بعيد، حيث يصل إلى أذن الوالد الذي يجلس على صخرة تحت الدار ينظر إلى وجهة مقدم الأولاد.

عندما يصل الولد يجد الوالد والأم في الانتظار، فيأكل ما يستطيع تحت نظريهما، وهو الذي لم يُرضهما قط حتى في باب الأكل كما يحبان، وكثيرا ما يعلق الوالد بقوله : خرقته ضعيفة ووجهه مصفر. وكان جواب الأم هو ذات الجواب على الدوام : «لا يصلح له إلا تينيكا، أدقها له ويشربها في الحريرة»، وهذه الوصفة هي وصفة والدها لولدها، وتينيكا هي ما يجمع من بقايا تذويب الحدادين لأحجار الحديد.

أما قبل خروج الولد في الصباح فإن الشخصين اللذين يستيقظان لذلك قبل الجميع هما الوالد والوالدة، وهي تغلي له الحليب، بوضع إبريق على مجمر ينزند بإشعال النار في أغشية الذرة. لا ينسى الولد قط صوت ذلك الإبريق، وكيف كان الحليب يبدأ في الدفء ويحدث تنقيرات متوالية متسارعة، كما لا ينسى قط أنه في أيام المطر والوحل يتولى الوالد حزم جلبابه بحبل رقيق فوق سرته وهو يقول له هذه العبارة باللغة العربية الدارجة : «حزموني ورزموني ولا تعولوا علي». ثم تقول له الوالدة بلغتها الأمازيغية: «حمد إينو (أي ولدي أحمد) إذا لم تصبه عين الشر والحسد ستكون فيه فائدة».

وهذه العبارة التي يدعى بها للأولاد في ذلك الوسط : «أكّيس تيلي الفايت»، أن تكون فيه فائدة، أي أن يكون صالحا، بمعنى : مفيدا لأهله.

كان لباس الأولاد كلهم يقتصر على ثوب داخلي يسمى التشامير وجلباب، خفيف في الصيف، صوفي في الشتاء، وللشتاء جلباب واحد من خرقة تنسج محليا أو تشترى من أسواق الجبل حيث كثرة صوف الغنم. وإذا احتاج جلباب الصوف لأن يغسل مرة أو مرتين في الشتاء، فإن النساء يغسلن الثياب عند مفترق السواقي حيث الأرحاء وكثرة المياه وطاولات حجرية يفرك عليها الغسيل، وأحجار زلط يبسط عليها للتنشيف، ويستعمل لإزالة الأدران الغاسول النباتي الذي يحصد من أماكن المزابل حيث يقوم بكيفية وحشية. تسخن للغسيل جفان الماء حتى تقتل حرارته ما قد يكون في اللباس الصوفي، خاصة من قمل وغيره. أما النعال فالأولاد يمشون حفاة في معظم أيام السنة، لأن البلغة التي تشترى لهم في عيد رمضان أو في عيد الأضحى قلما تصمد على مدار العام، وإن كان الخرازون من اليهود يتجولون ويصلحون النعال، يمرون أكثر من مرة في السنة فيحمل إليهم الناس أحذيتهم ليضعوا تحتها صفائح من غير الجلد يثبتونها بمسامير لا تلبث أن تبرز إلى الداخل إذا لم ينثن بعضها بدقة على سندان مصلح النعال، وكان الولد كلما طلب فرنكا من الوالدة لإضافة صفيحة إلى بلغته كانت تتمثل له ضاحكة ببيت من شعر البربر يقول :

يَانْ إِكْمْرْنْ أَرْ تَاذكَّاتْ إِغْذْ أُورُومْزْنْ يَاتْ
إِسَاكَا تْبِّنْ تِيسْوَارْ إِيذُوكَانْ

من ذهب يصطاد إلى عشية يومه ورجع بخفي حنين

فإنما هو يبلي صفائح نعاله

ظهر للوالد في شتاء ذلك العام أن يشتري للولد حذاء عصريا صيفيا مفتوحا من أعلى (صندلة)، وإن كان غير مناسب لذلك الفصل، فلما كان يوم ثلج، والتلاميذ رجوع من المدرسة، تحلل النعل وانفصل أعلاه عن أسفله، فعاد الولد إلى حفائه وأكمل الطريق. والتندر في ذلك الوسط بالمشي حافيا للحفاظ على البلغة الجديدة منسوب إلى طلاب حفظ القرآن الذين تُذكر عنهم حكايات تصور تقشفهم. وبهذا الصدد يذكرون أن الحجر أصاب أصبع رجل أحدهم في سفره فقطعها، فحمد الله على أن المصيبة كانت في أصبع رجله ولم تكن في البلغة (الحذاء) الصفراء التي كان يتأبطها حفاظا عليها.

عند خروج الأولاد من المدرسة في آخر يوم أربعاء وجدوا أمام المقهى المجاور وهو مقهى الوعل، عددا من أهل قبيلة جبلية تسمى أزاضن، جاؤوا على بغالهم في أجمل حلة يملكونها وفوق رأس كل واحد عمامة بيضاء بحجم القفة، وجرابه أو خنجره متدل إلى مستوى ركبته على طرف مجدول يدور بالعنق، وفي ذقن كل واحد خصلة قليلة من الشعر، وكأن البرد الذي يمنع ازدهار النبات في دنياهم الكبيرة الارتفاع يمنع غزارة اللحى في وجوههم.

جاؤوا باستدعاء من الحاكم لاستجوابهم في اليوم الموالي، يوم التسوق، حول نازلة وعل تم صيده بالرصاص، وعثر على آثار مقتله حارس الغابة النصراني. وقعت الوشاية به من أحد عيونه. فالشخص الوحيد الذي يمتلك بندقية صيد مرخص بها هو شيخ تلك القبيلة، ولكن الناس فهموا أن استدعاء كل أعيان أهل القبيلة كان الغرض منه هو امتحانهم وتخويفهم في موضوع امتلاك السلاح. فالوعل قد منع صيده منذ فرض نظام حماية الغابة من الحكام

النصارى، وكان أهل القبائل يقولون إن هذا المنع يبرره أن الوعل قد قل عدده ولا بد أن يخلف، ولكن هؤلاء الأهل لم يستسيغوا حماية الهلوف وهو يتوالد بكثير، يعيش قريبا من مزارع القرية، ولا يأكل المسلمون لحمه الحرام، وهو حيوان قذر يأكل الدود ويحفر حقولهم بأنيابه ويعيث في مزارعهم الفساد.

لم تكن قضية صيد الوعل هي وحدها التي أثارت الضجة والفضول والتهامس والتغامز في ذلك اليوم، بل كانت قضية أخرى، كان فيها الشيخ وأحد أقاربه محل دعوى من رجل من أسرته. عرفت عائلة أيت واحمان عدة مؤامرات من غرمائهم من الشيوخ والقواد الذين كان يغيظهم استمرار جاه هذه الأسرة عبر القرون، واحترام إخوانهم، أي محكوميهم، لهم، واعتبارهم حماة لهؤلاء الإخوان. وقد استطاعوا في كل مرة أن يحبطوا تلك المؤامرات بفضل تحالفات وانتماءات، ولكن المستغرب هذه المرة هو أن المدعي هو شخص اسمه احماد أوبراهيم، وهو ربيب إحدى عمات الولد، وتسمى عائشة، ادعى أن إرثه ظل مغتصبا من عائلة أمه ولم تمكنه منه، وقد ثارت ثائرته عندما اعترض عليه في نفض حبات زيتون كان ضمن زيتون العائلة، وكان القائم على النفض إبراهيم، ولد بوقدير، عم الشيخ الذي هو يعسوب العائلة، بل إن إبراهيم هذا، وهو من أبناء العائلة الجريئين، قد أوقف المعترض وأشبعه ضربا أمام العمال من الرجال والنساء. فأخذت الحَميَّة هذا المضروب ولم يرض بالإهانة، وهكذا خرق التضامن العائلي ولم يلتزم بما يحمي نخوة اسم أيت واحمان، فما كان منه إلى أن ذهب إلى غريمهم في ذلك الوقت وهو شخص في محل قائد القبيلة، ووجدها هذا الأخير فرصة سانحة ليحاول مرة أخرى إلحاق الضرر بهؤلاء المتنطعين، وأمله أن يسمع

عنهم أن شوكة عصبيتهم قد كسرت، وأنهم وقفوا أمام محكمة بسبب الغصب والاعتداء.

ولعل الحاكم النصراني قد كان على علم بكل الملابسات، وأنه أحس من الذي في محل القائد إرادة المكر، فحسم بأن قال : «لا يجوز أن يسمع عن شيخ مثل هذا أنه قد حمى ظالما، والمهم هو الحكم عليه لا على العائلة كلها بإنصاف هذا الداعي وتمكينه من إرثه». وبعد تعهد الشيخ عمر بالتنفيذ أبطلت الدعوى، وكان الشيخ قد قال أمام الحاكم إنه المسؤول عما اقترفه إبراهيم، ابن عمه بوقدير.

في ذلك العام أحدثت الحكومة إطعاما بالمدرسة يتناول فيه التلاميذ وجبة غذاء، جالسين على حصير في الساحة، ويتولى طبخ الأكل وتقديمه متعهد وزوجته من القرية، والوجبة يتناوب فيها تقديم العدس أوالحمص أوالفاصوليا، ومع كل وجبة كسرة خبز. كان ما يقدم من القطاني يطبخ في الماء ويضاف إليه أمام التلاميذ غراف زيت يخلط فيه الفلفل الأحمر المسحوق. وكسرات الخبز من النوع الذي يطبخ على فرن مخروطي مفروش بحجارة صغيرة، تقع تحميته بنار حطب، وإذا أخرج منه الخبز كان في كل كسرة أثر الحجارة التي يوضع عليه العجين الدائري الشكل.

جاء المعلم مرة من داره بمراكش، وكان يذهب إليها مرتين في الشهر على الأقل، جاء بآلة تصوير مثل التي اعتاد الأطفال أن يروها عند النصارى، فأخذ صورا للتلاميذ وهم في جلسة الأكل، جالسون على الحصير. أخذ كل واحد منهم بزلافة من الخرصين تحتوي على مغرفتين من المأكول. وفي الأسبوع الموالي جاء المعلم بالصور وباعها للتلاميذ الذين يستطيع أهلهم دفع عشرة ريالات، وقد اقتنى الولد صورة يظهر فيها بين التلاميذ ورؤوسهم حليقة.

كان هذا المعلم يتردد على مقصف «الهلوف المدخن»، وكان الناس في القرى المجاورة ينظرون إلى هذا المقهى وما يشابهه على أنها محلات يغشاها النصارى الذين يشربون ويدخنون، أما المسلمون، حتى من عمال تلك المقاهي، فهم لا يقربون تلك المحرمات، وأكثر الناس سلامة في هذا المضمار أهل قرية إِمَرِغْنْ، وهم بين قريتين سبقت إليهما الانحرافات، قرية أسني من جهة، وقرية ويركَان من جهة أخرى، حيث يعايش المسلمون في القريتين المذكورتين النصارى من خلال المقاهي أو المزارع العصرية. وفي منتصف يوم شتاء مطير بارد رجع المعلم من المقهى، وأدخل الأولاد إلى الفصل في حصة بعد الظهر وبدأ يعلمهم الخط، فكان عليه أن يعلم حركة الرفع المتكونة من حركتين، وهي حركة au، فجاء عليها بكلمة تتضمنها وهي كلمة شوفو chevaux، أي الأفراس ، فبدأ من يسار السبورة واستمر يكتب دون انقطاع : شوفوفوفوفو..... chevauvauvauvau، إلى أن خرج من السبورة على الجدار، ثم ظهر له أن الكتابة بالطباشير لا تظهر في الجدار الأبيض فانزعج وتفوه بكلمة فاحشة بالفرنسية، لأن الكلمة التي يكتبها في نظره استعصت على الانتهاء.

نظر التلاميذ بعضهم إلى بعض، وكان من بينهم تلميذ أكبر سنا، هو ابن رجل يساعد حارس الغابة في قرية تساويركَان، كان وحده هو الذي عرف ما وقع، فقال يخاطب المعلم بالفرنسية : مسيو! مسيو! السيد المقدم يدق الباب!وبهذه المخاطبة انتبه المعلم وفتح الباب، فتعرض للبرد وخرج وتغيب هنيهة في غرفته، وكان الولد المذكور قد مسح ذلك المسلسل الخطي من السبورة.

في ليلة من ذلك الفصل البارد عاد الولد من المدرسة، ولما

وصل كان المؤذن ابن الطالب يرفع عقيرته بإعلان دخول وقت صلاة العشاء. وكان الوالد ينتظر كعادته تحت جدار الدار في الجهة الموالية للمقبرة ومنها طريق القادمين من ويركَان، وكان بسمعه الحاد يتتبع كل ضجيج الأولاد، وعرف بالضبط في أي آونة انفصل ولده عن الكوكبة المتجهة إلى القرية العليا.

ولما وصل الولد ظهر له شبح الوالد في الظلام، وانحنى عليه للتسليم كالعادة، فدخلا وجلس الوالد وهو ينظر إلى الولد يتناول الطعام الذي قُدم له، وغالبا ما يكون الطعام سورا من أحسن ما طبخ في النهار، أو يكون شيئا تم تحضيره له خصيصا إذا كان العشاء عصيدة أو ما يشابهها من الطعام الذي هو للأعوان قبل غيرهم.

بعد أن فرغ الولد من الأكل في ضوء نور شمعة تتمايل شعلة فتيلها مثبتة في المشكاة الداخلية للشرجب، أخرج الوالد قلما وأذينة من الكاغد الأبيض الذي يغلف به قالب السكر، وكتب عليها وهي على طرف المائدة عبارة وقدمها لولده الذي صار الآن يقرأ ويكتب، فإذا فيها : «البُرْدة تحت يدي».

«البردة» هي القصيدة المشهورة التي مدح بها الشيخ البوصيري الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي من أولى محفوظات طلبة القرآن الكريم في المساجد، والمغاربة، ولاسيما في الجهات الجنوبية، يكثرون قراءتها جماعيا في المناسبات الدينية والعائلية، وتكون تلك القراءة بنغمتها الشلحية[1] شديدة التأثير على نفوس قوم الولد، وطالما سمعها ورغب في حفظها لأن تلك هي أمنية الوالد، ولكن حفظها داخل المسجد إنما يتأتى للأولاد الذين ختموا حفظ القرآن،

---

(1) الشلوح هم بربر الجنوب المغربي.

وهم في طور تكرار الحفظ في السلكة الثانية أو الثالثة، ويكونون قد حفظوا البردة بالسماع أو تكرسوا لحفظها مع متون أخرى على هامش حفظهم للوح القرآن.

كان الوالد قد وعد ولده بكتاب مطبوع فيه نص البردة، وهاهو يخرجه ويسلمه إياه، وهو عبارة عن ورقات صفراء فيها النص كما لو طُبع بالحجر، والكتيب مغلف بالورق الأزرق الذي ينزع عن قوالب السكر، فبينما يستخدم هذا الورق الأبيض الذي هو الغلاف الداخلي للقالب في الكتابة، فإن الأزرق في هذه البيئة نفيس أيضا، لأن الناس يعزون له عدة مزايا، ومنها أنهم يستنشقون دخانه إذا أحرق، ويرون أنه يشفي من صداع الرأس النصفي (الشقيقة).

أثار الكتاب الذي جاء به الوالد خيال الولد وإحساسه لأنه أول كتاب بالعربية يقع بين يديه، وهو مطالب بحفظ ما بداخله، وقبل ذلك لم ير من الكتب بداره سوى كتب الشيخ التجاني وكتب مقدَّمه الشيخ النظيفي، ولا سيما الكتاب المعروف بجواهر المعاني، ووقع أمام بصر الولد أيضا قبل دخول المدرسة كتاب فيه كلمات فرنسية ومقابلها بالعربية، جاء به الوالد من لقاء للإدارة بالفلاحين في مدرسة السويهلة للتكوين الفلاحي قرب مراكش.

جاءت الوالدة بغطاء (حايك)، وبشمعة ثانية، لأن الولد قد يطيل النظر ليلا في الكتاب. وعندما انتهى الولد من الأكل، شرع في قراءة لم تكن بالصعبة، ولكن بدون فهم للمضمون في أول القصيدة :

أَمِنْ تَذكُّرِ جِيرانٍ بِذي سَلَمِ مزَجْتَ دمعًا جرى من مُقلَةٍ بدَمِ

تعود البربر من تجربتهم مع القرآن الكريم على سماع الكلام العربي وحفظه دون فهم المعنى، والبردة تحيط بها هالة من التعظيم،

وهي لذلك، من حيث هي، تتضمن في اعتقادهم أسرارا يُتعبد أو يتبرك بها. والولد قد تكوَّنت عادته منذئذ بأن يقرأ شيئا في أول الكتاب ثم يقفز إلى الأخير، فإذا هو يتهجى ويفهم ما يفيد من كلام في ذيل القصيدة: أن من قرأها أربعين مرة ونام فإنه يرى في المنام الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام. كانت قراءة هذه الكلمات أول زلزال روحي أصاب مشاعر الطفل في حياته، وأول استنهاض لهمته لكي يطمح إلى لقاء نوراني بالغيب، في نهاية مجهود موصوف.

الغريب أن زلزالا آخر قد هز عواطفه في نفس العام واستمر يعصف بها فوق إرادته، وذلك بسبب ميل لا يستطيع أن يصفه ولا أن يشخص مبعثه ومآله، هو من قبيل الميل إلى أمه طلبا للحنان، ولكن الأمر في هذه الحالة لم يكن يتعلق بأمه، بل بفتاة من قرية المدرسة تكبره بعدة أعوام، كان كل شيء فيها قد طاب، وهي جريئة بنبل عائلتها، على قدر التفاوت في ذلك الوسط البسيط. كانت تعرف الولد عند مضيفيه في العام الأول، لقرابة لها معهم، وكانت إذا لقيته في طريق المدرسة، وهي ذاهبة إلى حقول أو مطحنة ماء في ملكهم، تحب أن تعاكسه وتشاكسه كما تحب أن تفعل الشمطاء المسماة بيجا في قريته، ولكن هذه الفتاة لم تكن تخجله بكلامها الملغز، وإنما كانت تحرجه بمجرد وجودها، لسبب خفيّ.

وقد حدث أن تلك الفتاة تقدم لطلبها أناس في تلك الأيام للزواج من شاب في قرية الولد، والمرشح لزواجها هو ابن عائلة كانت تربطها بعائلة الولد علاقة مزارعة، فهم أصحاب عدة بشرية وحيوانية للحرث، وهم أناس طيبون، والولد الأكبر الذي خُطبت له البنت، ابن أسرته في كل شيء، بعيد عن كل نباهة أبناء المتملكين.

العادة أن الخطبة للزواج لا تُرد في تلك البيئة، كأن الشبان

متساوون في مزاياهم الرجولية، إذ لا يمكن اتهام أحد منهم بأنه من البطّالين، والبنات لا يمكن الضن بهن إذا تقدم من يريدون ضمهن تحت حمايتهم. ومنذ أن سمع الولد بهذه الخطبة، وهو يشعر وكأن حجرا غير مصقول، قد نبت في صدره، وجعله أضيق مما كان عليه دون أن يستوضح السبب.

وبالرغم من أن قياس البنت المذكورة إلى خطيبها في المظاهر يكاد يكون مثل قياس الحسناء إلى ذي الرجولة الخشن، فإن الخطبة قد زادت من نشاط البنت، وظهر ذلك في مزيد اهتمامها بالولد الذي من قرية الخطيب، وهو كاره لذلك.

في بداية الصيف أقيم العرس، وفي غد ليلة رواح العروس، كانت للولد عند العصر جلسة مع العريس في البستان الذي تحت الدار، لأن عائلته هي التي حرثته على سبيل الشركة. وكان العريس في غاية السعادة، وكل كلامه يدل على التباهي بالفوز بتلك المخلوقة التي وجدها كما وُصفت له، وكان شكل لبس نعاله بإطلاع مؤخرتها على الكعب علامة على الاعتراف للعروس ولأهلها برعاية قواعد الشرف. فلا بد أن يعلم بذلك الجميع، وأم العروس أحرص على هذا البيان إذا كانت تلك هي النتيجة، وكأنها المسألة الأهم في كل هذا الرباط الزوجي، وذاك هو الخبر الذي يهم الآخرين في هذه الضجة، ولعل قولا مَا فيه شيء من الفضول دون أن يكون مقصودا صدر من الطفل جعل العريس يرد عليه: «ستعرف ذلك عندما تكبر ويأتي دورك كعريس».

استأنف العريس الجديد أشغاله في الحقول بعد سبعة أيام، ولكن أهله حجبوا العروس على غير العادة المألوفة عند أمثالهم الذين يأتون عادة بزوجة للابن لكي تكون عونا على متطلبات الشغل

الذي تخرج إليه سافرة بشكل طبيعي مع بقية النساء. ولعلهم حجبوها لشرط أهلها. فالمتحجبات هن نساء العائلات الكبرى ذوات الأعوان أو المتعددة الذكران، فقد غدا الحجاب علامة على الرفعة التي تصدرت فيها عائلة أيت واحمان ومن في حكمهم، ثم حاول الآخرون التشبه بهم، وهو أمر نادر في نساء القرى المحيطة، ولاسيما الجبلية منها.

انتهى العام الدراسي واختُتم بحفل مشابه لحفل العام الماضي، وكان الولد الأول في صفه، وحاز جوائز عديدة هي عبارة عن كتب مصوَّرَة تتضمن قصصا باللغة الفرنسية.

لما حلت عطلة الصيف كان على الولد أن يرجع إلى الكتّاب لمواصلة حفظ القرآن. وفي طريقه إلى الكتّاب كان يمر تحت دار الشركاء الذين حجبوا العروس، وكان يجدها في كل مرة تستروح في النافذة المطلة على الطريق، نافذة لم يكن لها باب ولا شباك، والإطلالة لم تكن إلا بقدر الإشعار بأن تلك المخلوقة حاضرة هناك. والولد على ما نشأ عليه كان يحرص على غض البصر، حتى إنه كان يُعيَّر بنوع من تقوس الظهر عند المشي حرصا منه على أن يعترف له الناس بتلك المزية، مزية غض البصر.

كانت النافذة تظهر للسائر فجأة بعد تجاوز منعرج والالتفاف على دار في وسط القرية السفلى، فيبدو له ما يُشعره بوجود ذلك الظل أو ذلك الخيال، لكن الولد لا يجوز له بعد ذلك أن يرفع الرأس ليرى شيئا بأم عينيه، فيمشي يخالجه شعور كالخوف مصحوب بالارتعاش. وقد خيل إليه غير ما مرة أنه عندما يكون تحت النافذة بالذات يتلقى كلمات من قبيل ما كان يسمعه من تحايا عندما كانت الفتاة قبل الخطبة تعاكسه، ولكنه لم يتبين من تلك الكلمات شيئا قط.

وبعد أيام وضع شخص من الدار في النافذة إناء به حبق، وكانت اليد في كل يوم تتعهده بالسقي في ذات الوقت، وقت مرور الولد ذهابا إلى الكتاب في حصة الظهر، وعند عودته بعد العصر.

ظل سر تلك المصادفة في الموعد خافيا عن فهم الطفل، ولكن محنته به ظلت تصاحبها رغبة جامحة في المرور تحت تلك الكوة دون انتظار شيء معين ودون تطلع إلى شيء يذكر. فما كان يدري هل كانت تريد تلك المخلوقة إمتاعه أو إشقاءه أو مجرد اللعب به إرضاء لشيء ما في نفسها، دون إدراك كامل لحاله، أو هل كان لديها نوع من الدافع الخاص لتلك الإطلالات.

نشأ الولد في داره وهي تعج بالنساء والبنات، من القريبات والخادمات والمعاونات والزائرات، وقد تعود على سعيهن كلهن إلى خدمته وإغداق حنانهن عليه تقربا إلى أمه وأبيه أو استملاحا لشخصه أو تعبيرا عن مشاعر تخص كل واحدة منهن من قبيل الرغبة في أن يكون لها أخ أو ولد مثله. ومن ذكرياته الأولى أنه ظل طيعا في أيديهن في تسخيرات يفهمها أو لا يفهمها، ولكنه ظل مهابا يستطيع أن يُنزل بهن ما يشاء من الغضب والعقاب، لأنه لا يتوقع منهن شيئا يمتلكنه أويحتاج هو إليه. أما الذي نزل به مع هذه العروس فيختلف كلية عما سبق، لسبب واحد هو أنه منجرف، ولا يعرف اسما محددا مؤكدا لما دهاه.

والقيظ مستعر في ذلك الصيف جاءت رسالة من خليفة القائد إلى الشيخ تستنفر كل من يملك فرسا من قبيلته ليبادر بتصبين (تنظيف) جلبابه وسلهامه وليرمم سرج حصانه، ويستعد للذهاب إلى مراكش. لم يتبين القصد من هذا الاستنفار أول الأمر، ثم ربط الناس ذلك بالشائعات التي توالت تخرج من الأسواق حيث يلتقي أهل الجبال

بأهل السهول والمدن وحيث كان الناس يتكلمون همسا وخفية عما يدبره النصارى من خلع السلطان محمد بن يوسف، بعد أن طالب هذا السلطان بخروج النصارى من البلد، وذكر الناس أن النصارى راودوه بالذهب والفضة ليقبل ما يريدون، وذكر إمام المسجد للوالد أن السلطان قال كما قال جده النبي : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته». هكذا وصلت الإشاعة إلى الناس ورددوها.

سمع الناس أن السلطان قد أخرجه النصارى من قصره وذهبوا به وبأولاده إلى بلدهم. وسمع الولد الإمام الذي بمسجد القرية، مفترق السواقي (أكَرسورا) يقول : لو كان سيدنا علي (ابن أبي طالب) على قيد الحياة لما وقع هذا الذي وقع، فهو الذي قطع رأس الغول، وأشار بيده إلى رسم في الجدار يمثل هذه المبارزة، ورأس زعيم النصارى الملقب بالغول في الرسم المعلق قد هوى من فوق الفرس وسيف سيدنا علي يقطر دما. علق الطالب هذا الرسم في حانوته التي يبيع بها السكر والشاي وحاجات أخرى، يستعين بتلك التجارة على معيشته، لأن أهل هذا الجزء الأسفل من القرية جلهم من الخادمين في الحرث وغيره لأهل القرية العليا، وليس في ما يعطونه للإمام كل عام على سبيل الأجرة غناء. كان متجره جزءا من بناية المسجد، بين الحضار، أي قاعة تحفيظ القرآن، وبين قاعة الصلاة. ذهب الولد ليشتري منه حاجة مستعجلة، فوجد الإمام يذكر الشائعة حول السلطان مع جليس له، فقال ما قال.

بينما كان الطالب التاجر يزن الفلفل المسحوق المسمى بالتحميرة للولد، إذ دخلت عليه جارته ممَّاس، وهي امرأة في متوسط العمر، كفيفة البصر، تسكن في حجرة لصيقة بالمسجد، ليس لها ولد

ولا أقارب، تعيش على الصدقات، مكفولة من جيرانها بشكل طبيعي. دخلت وسلمت وطلبت شيئا تشتريه، فقال لها الطالب: «إني لا آخذ بيض دجاجتك في هذه الحرارة، فهل عندك نقود تؤدين بها الثمن؟» فقالت: «لا عليك!» وأخرجت ورقة وهي تقول: «خذ وردَّ علي الصرف». فما أن رأى الطالب التاجر الورقة حتى أخذ يلعن المرأة ويشتمها ويقول: «شمتوك أيتها القذرة! هذه ورقة جورنان (الجريدة) وليست نقودا!»، فخرجت المرأة منكسفة والطالب وجليسه يضحكان.

لم يفهم الولد في ذلك الحين شيئا مما حدث، وإنما تعجب لقساوة الطالب على امرأة ينظر إليها الجميع على أنها من الصالحات. وبعد ذلك ذاع الخبر وعلق عليه المراهقون الأشقياء.

اكفهر الجو بما ذاع من كون دركيي النصارى قد ضيقوا على الناس في الأسواق، وتأكد خبر تنحية السلطان سيدي محمد وتعيين سلطان آخر مكانه، وتجدد استنفار فرسان القبائل، وطلب منهم القائمون على السلطة أن يحضروا إلى مراكش بمناسبة دخول السلطان الجديد، وقال الناس إن متولي كل هذه التغييرات هو باشا مراكش، والنصارى يتبعونه، ومعه بعض قواد الحوز، وصار الناس يتكلمون على من هو من بين القواد مع هذه الحركة ومن هو ضدها. وتذكر أهل الولد أنهم جزء من قبائل اختفى آخر قوادها الوارثين منذ أعوام، دخل داره وأطلق شعره كالمريض أو المعتوه، فانتصب نائبا عنه شيخ من شيوخ الجبال كانت له مصاهرة مع عائلة هذا القائد. فمن قائل إن القائد المنقطع في داره وقع تحت تأثير السحر أو التسميم (التوكال) وأن التسميم وُضع له في المحاجم، ومن قائل إنه تنبأ بما ستصير إليه الأمور السياسية من مثل هذا الإحراج في خلع بيعة سلطان واعتناق

بيعة سلطان آخر، ففضل الاعتذار بتلك الطريقة، ودخل في خلوته، فخلا الجو للشيخ المذكور كليا، ولكنه ظل في مقام خليفة القائد.

ذهب الفرسان إلى مراكش ودخلها السلطان المنصَّب، وكان الحال متوترا بالمدينة لكثرة الجنود ورجال القبائل الحاملين للعصي، وهم من بني جلدة باشا المدينة. ولما ذهب السلطان المنصَّب للصلاة بجامع بريما، بقرب القصر، انفجرت تحت فراشه بالمسجد قنبلة، ورجع الناس الذين حضروا الاستقبال بمراكش وهم لا يميزون بين الإشاعات والوقائع، ولكنهم تحدثوا عن «الوطن» كمناوئ للنصارى. لم يفهم أحد في القرية هل الوطن شخص أو أشخاص، أو غير ذلك.

تذكر المسنون في القرية كيف عاشوا دخول النصارى قبل أربعين عاما، وكيف أن مدافعهم التي لم يسبق للناس عهد بمثل قوتها، قد أجبرت المجاهدين عند مشارف مراكش، على التراجع. كان الحال حال محنة وامتحان، لأن قلة قليلة من الناس كانوا يتصورون أن يكون للمسلمين قوة يواجهون بها عساكر فرنسا.

كان من أشدهم محنة الأئمة الخطباء الذين أُمروا بأن يدعوا للسلطان المنصَّب بدل السلطان المنفي. وكان إمام إِمَرِغْنْ هو الشيخ عابد الحاحي، الشهير بالقراءات، وكان يقول في خطبته: «اللهم انصر السلطان أيا من عرفه!»، فيظن من لا يتفطن أنه يذكر السلطان الجديد المسمى «ابن عرفه».

وجد الفاهمون تحايل هذا الإمام من اللباقة بمكان. وبالرغم من الإنذار الذي ورد من الحاكم بواسطة الخليفة في موضوع الحرص على إقامة احتفالات الأعياد، فإن همم الناس قد أصابها كثير من الفتور.

استأنف الولد الذهاب إلى المدرسة في الخريف، وتناقص

عدد التلاميذ من الدواوير البعيدة هذا العام أيضا، وعوضهم تلاميذ جدد من قرية ويركَان. رجع نفس المعلم وتوطدت الصلات بينه وبين معلم اللغة العربية أكثر من ذي قبل، وكان معلم العربية هذا ممن يكتبون الرسائل لخليفة القائد وممن يخبرونه إذا مر بسيارته من ويركَان بكل ما بلغه مما زاد ونقص من الأخبار. وكان السي محمد التلحيق هذا ممن يترددون على دار الشيخ عمر أيضا، وممن يجلسون إلى مائدته، وحدث في تلك الأيام أن هذا المعلم اجتمع حول هذه المائدة مع صديقين للشيخ هما السيد عابد السوسي وقريبه السيد علي السوسي، ومعهم جار للشيخ اسمه ابن الشاوي، يقرأ الفرنسية. فالسوسيان تاجران في مراكش، يبيعان كل سلع التغذية وحاجيات الدار بالجملة، ويقصدهما تجار التوزيع من مختلف جهات سوس والصحراء والأطلس.

قرر التاجران عام واحد وخمسين أن يستثمرا في الفلاحة جزءا من أرباحهما في التجارة، فجاءا إلى قرية إِمَرِغْنْ واتصلا بالشيخ عمر، وبدآ في شراء الأراضي واستصلاحها وغرسها بأشجار الزيتون، وشراء أنصبة في مياه الساقية الآتية من تاساويركَان لري هذه الأغراس. ولمتابعة الأشغال صارا يترددان على ضيعتهما مرة واحدة على الأقل في الأسبوع، ولكل منهما سيارته الخاصة، وفي كل زيارة يتناولان الغذاء على مائدة الشيخ.

في تلك الجلسة تكلم السوسيان بما يعلمان من الأخبار الجارية في السياسة، وأظهرا ميلا إلى «الوطن»، وذكرا كيف أن الأخبار الآتية من طنجة الخاضعة للإدارة الدولية، وكانت لهما بها تجارة، أو الأخبار المنشورة ببعض الجرائد تشيد بموقف السلطان المنفي، وكيف تحرك المغاربة في الخارج لإطلاع الدول على ما

جرى، وكيف تضامن المسلمون مع المطالبة بالاستقلال، وأخرج ابن الشاوي الساكن قرب دار الشيخ، وله أبناء درسوا في المدارس العصرية، أخرج جريدة فيها شيء من هذه الأخبار والتعاليق، وفيها عنوان كبير بالفرنسية : جاء فيه : Adieu Ben Arafa!، ومعناه : انتهى أمر السلطان ابن عرفة. كان ذلك تعليقا على حادث القنبلة التي انفجرت في مسجد في مراكش. ولعلها أول جريدة قرئت في تلك القرية.

حضر الشخص الذي يعلِّم العربية ذلك الإجتماع، فما كان منه إلا أن حمل كل ما قيل في المجلس وبلَّغه إلى خليفة القائد، فاستشاط هذا الأخير غضبا واعتبر أن «الوطن» قد دخل إلى منطقة نفوذه من حيث لا ينبغي، من دار شيخ عريق في خدمة المخزن.

عمل هذا الخليفة على تضخيم القضية والإيقاع بعائلة أيت واحمان واتهمها بمعاداة سياسة الإدارة الفرنسية، وأراد الوقيعة بها عسى أن يتحقق ما سعت إليه أطراف متعددة منذ أجيال متوالية، وهو إخراج هذه العائلة من المشيخة. قام الخليفة بإعلام الحاكم بما وصله عن تلك الجلسة، وتوقف هو بسيارته، وهو في الطريق إلى مراكش، بباب دار الشيخ وأغلظ له في القول وكشر له عن أنيابه وتوعده بالشر الذي يمكن أن يأتي من جهة الفرنسيس، وترك متزلفين وقحين من حاشيته، كانوا معه في السيارة، يظهرون للشيخ ما ينم عن الإهانة، ثم انصرف وتابع طريقه.

كان الشيخ عمر أقل شيوخ أيت واحمان شجاعة ورباطة جأش، ولا سيما إذا تعلق الأمر بتوقع شر من جهة المخزن. فهو وريث ذكريات مريرة عن الوقائع التي حلت بالأسرة عبر الأجيال، ولكنه لم يكن في جرأة أي أحد من أسلافه الذين تحدوا الدسائس

أيام زنازن القواد الماكرين الذين كانوا ينكبون غرماءهم إذا سنحت فيهم الفرصة، فيمتصون دماءهم، ويمتشون عظامهم، ويورونهم الدهاليز والمطامير أو يبنون على الواحد منهم البناء المسمى بالجدع(أكَجا)، وهو قبر عمودي يوضع فيه الشخص المراد تعذيبه حيا، فلا يستطيع حراكا ولا جلوسا حتى لقضاء الحاجة.

أرسل الشيخ إلى الوالد لكي يلتحق به ويواسيه ويفكر معه في العواقب، عواقب وشاية المعلم المسمى التلحيق، ولم يفت الوالد أن يتنبأ بغاية الخليفة من تضخيم هذا الحدث، انتزاع مداراة (رشوة) مناسبة من التاجرين السوسيين وإرغام الشيخ عمر على تسليم نيابته بكيفية دائمة لابن عمه بوقدير، ويسمى إبراهيم، وهو ذو استعدادات لمجاراة الخليفة في اندفاعه الجديد.

صدَّقت الوقائع تخمينات الوالد، فهو يعرف بخبرته أن ذلك الصنف من المتحكمين يشتغل على تنافسات القبائل، وعلى تنافسات الأفخاذ داخل القبائل، وعلى التنافس بين القرى، وعلى تناقضات العائلات، ولو من جذم واحد داخل القرية، ثم على تنافسات الإخوة أو أبناء الأعمام، داخل العائلة الكبرى الواحدة، وقلما صمد حتى الإخوة الأشقاء لجميع الإغراءات.

نزا إبراهيم على سلطة عمه الشيخ (وهو في الحقيقة ابن عمه) فصار يحضر الأحكام باسمه ويأمر وينهى، وصارت تأتيه باسمه المراسلات. وسرعان ما ظهر ميله إلى التحكم والشدة.

أما الشيخ عمر فقد كلف الوالد بأن يذهب إلى مراكش لكي يخبر التاجرين السوسيين بما وقع، ويحذرهما من المجيء قبل تسوية الأمر مع الخليفة، حفاظا على مصالحهما في القرية. ولعل إرادة التستر على هذا السفر إلى مراكش هي التي جعلت الوالد يصطحب

ولده، ويصطحب معه أيضا ولد الشيخ عمر الذي هو زميل الولد في المدرسة.

كانت وسائل النقل نادرة في ذلك الزمان، وقد ركب الثلاثة الدواب سبعة أميال حتى وصلوا إلى قرية أسني، وفيها سيارة نقل يركبها في آخر النهار زوار ضريح المولى إبراهيم، أكثر من غيرهم. سيارة نقل عمومية كبيرة. جلس الثلاثة في الأمام، وكان على مقعدي الجانب الآخر نصرانيان، رجل وامرأة، جلسا جنبا إلى جنب، والنصارى لم يكن الناس يرونهم إلا في سياراتهم الخاصة. كان الراكبان في بريق وجهيهما وأناقة ملابسهما في عين الولد شبيهين بالصور التي تباع في الجورنان الملون (المجلات) الذي تُعلب فيه البضائع، كانا يواجهان الركاب الجالسين من المسلمين، وهم قلة، بابتسامة عريضة، كانت المرأة شديدة بياض الوجه وعلى شفتيها صباغة حمراء قوية، وكان الرجل ينظر إلى المرأة والمرأة تنظر إلى الرجل، وكأنما أحدهما يكتشف الآخر من جديد. وبعد انطلاق سيارة النقل العمومية أخذ كل منهما يجذب الآخر إلى جهته كأنه ولده، ثم أخذ كل منهما يضع فمه على فم الآخر، ثم يلتفتان إلى الناس بنفس الابتسامة المتجددة. لم ير الولد مثل ذلك المنظر الغريب من قبل لأنه لم ير أحدا من الرجال يضع فمه على فم امرأة، وربما سمع أن الرجل يقبل زوجته، ولكنه في تلك البيئة، حسب علمه، لا يقبلها إلا في خدها. كان الوالد يشهد ما يقع وهو يرى أن ذلك يكسر الحياء الذي بينه وبين ولده، وكان لحرجه يطلق همهمات متوالية.

وصلوا إلى مراكش وأبلغ الوالد الخبر والوقائع إلى التاجرين، وبقي في مراكش عدة أيام تعدت عطلة المدرسة، وكان الوالد وزميله يترددان على أحد متاجر السوسيين بحي باب فتوح لا يبيع إلا أنواع

الحلوى والفانيد. وقد بالغا في أكل أنواع مختلطة أضرت على الخصوص بصحة الولد.

ذهب الوالد بالولد إلى الساحة التي توجد أمام بناية مكتب البريد بساحة جامع الفناء، وطلب من صاحب آلة التصوير أن يلتقط صورة لثلاثتهم وتوقفوا أمام الآلة، وأدخل المصور رأسه تحت ثوب في الجهة الأخرى من الآلة وهي صندوق على ثلاثة أرجل له عين يصور بها، ثم أخرج من الصندوق لوحة صغيرة فنزع منها ورقة ووضعها في صهريج ماء فأخذت الصورة تتشكل، ولما كملت ويبست أدى الوالد ثمنها وأخذها.

وبعد متعة التقاط الصورة ذهب الوالد إلى تاجر بسوق القصابين اعتاد أن يشتري منه القدميات، وهي أطراف جلد توضع في مؤخرة قدم من يلبس البلغة المفتوحة من الخلف لتقيه فعل البرد على أسفل القدمين ومؤخرتهما. فكثيراً ما رأى الولد والده يتألم من تلك التشققات في مؤخرة قدميه المتجسئتين بسبب البرد حتى إنه في بعض الأحيان كان يستحلي أن يملأها بقطرات من الشمع المحترق، ولكنه كان يجلس في بعض الأيام برواق من أروقة رياضه تحت شمس الشتاء المحتشمة ويأخذ خيطاً يسلكه في إبرة غليظة ويشرع في خياطة تلك الشقوق.

عزم التاجران على التوجه إلى الخليفة لمهاداته واستعطافه لحماية الشيخ عمر على الخصوص. ركبا سيارتهما الحمراء من نوع ضوضج، وتجنب الوالد السفر معهما إلى البلد، بينما التمس منهما إركاب الولدين من مراكش حتى يلتحقا بالمدرسة. وهكذا رأى الولد أن من جملة الهدايا التي حملاها صندوقين كبيرين من الشاي.

نزل الولد وصاحبه، ابن عمه احماد، من سيارة التاجرين أمام

المدرسة، وكان قد مضى على بداية حصة الصباح أزيد من ساعة، فإذا المعلم يكشر في وجههما ويهوي بقوته بمسطرة الحديد على رؤوس أصابع كل واحد منهما بخمس ضربات على كل يد، وتبع ذلك إهمال وجفاء متعمد. ولما حضر معلم العربية في آخر النهار أنزل بهما نفس العقاب، وخص احماد ابن الشيخ عمر بشتائم، ولم يعد يخاطبه منذئذ إلا بلقب «عيون البقرة».

قرر الوالد أن يكفي ولده مشقة الطريق إلى المدرسة يوميا فأقامه من جديد عند أسرة قرب المدرسة، هي أسرة صاحبه التاجر الخياط، واسمه السي امبارك. كان له حانوت في مركز ويركَان، له ولد وبنت في سن الطفولة، وزوجته سيدة فاضلة من أسرة شرفاء زاوية مولاي إبراهيم، وكان لها عناية بالولد من حيث الغذاء الأنيق، دون إسراف. وكان الزوج في غاية الاقتصاد في الكلام، فكانت الزوجة تجد في الولد متنفسا لتحكي كل ما يهمها، فهم معناه أو لم يفهم، بل كانت تبكي أمامه في بعض الأحيان لأسباب لا يفهمها هو. وهي من قلائل المقصورات في دورهن، محجبات في تلك القرية، حتى إذا دخل الرجل ساد الصمت المطبق من جديد.

كان الوالد يتحف أهل هذه الدار كما كان يتحف المضيفين السابقين لولده بأنواع من الميرة، تحملها بغلته إليهم كل شهرين أو ثلاثة أشهر.

ثم إن الولد ألح على والده في أن يشتري له دراجة، بحيث يقطع بها المسافة صباحا ومساء ولا يتردد على دار السي مبارك إلا في وقت الغذاء.

دخل عام أربعة وخمسين، وفي شتائه أقامت عائلة أيت واحمان الكبرى عرسا كبيرا قام فيه الشيخ عمر بتزويج ولده الأكبر

محمد برقية بنت أخيه الشيخ الحسين المتوفى. ورقية هي التي كبرت في دار أبيها تاوريرت مع أختها فاضمة، الزوجة الثانية للوالد. فهي مثال الجمال والنخوة والمهارة، تشفق على الناس بعينيها وهي تمشي فتغضهما، وكأن أشفارها تنوء بوزنها، ففي حضنها كبر الولد، كانت محايدة في وقائع غيرة أختها مع أمه، وهو بالنسبة إليها الرجل الصغير الذي ترعرع بين يديها وظهرت عليه في كل أحواله. فهو أيضا محل أسرارها في سنوات خطبتها، وفي حربها في جبهة الانتظار، مع كل ما كانت تعانيه من التهم والافتراءات التي تنقلها النمامات إلى دار الخطيب.

فالولد بالنسبة لرقية (رقُّوش) رجل تصونها طفولته من أي شكل من الأذى، وهي تغدق عليه من حنانها، وتعامله بجاذبية كبرى، وكأنها كانت تنتشي بعطر رائحته الصبية، فهو محط رعايتها، وهو ملجأ أسرارها التي لا تصدع بها في غير التنهد والصُّعَداء المكبوت، وهي تتلذذ بغيرته البريئة إذا طاف بها أو اقترب منها طائف من الخدم أو الأقارب ممن كانوا يصعقون من عنف تبرمها، ويخسأون من شظايا قهقهاتها المستهزئة. فهي التي ربت خيال الولد في حلاق الحكايات التي كانت تقصها بين المغرب والعشاء، وهي التي أقنعته بالقصص أن الأميرات لا يهمهن البذخ البائس بقدر ما يهمهن العشق والحرية، فكم حدثته عن الفرسان الولهين الأوفياء، وأدعياء الحقوق على النساء من الأغبياء. ومنها سمع أخبار الصحاري القفراء، والقلاع الحصينة، وعن عالم العفاريت والأغوال والثعابين التي تنبت رؤوسها من جديد إذا لم يعفُ قاطعها عن الرأس السابع، وعن الأرق واختلاس الوقت وصرم اللذات وجائرة الضيم وحرقة الموت الزؤام.

كان بينهما تواطؤ كأنه الوصاية، وقد كان لها دور في حمايته والذود عنه أمام كل النساء في الدار، لأنها تكره مبالغتهن في إظهار العناية به، كأنما هي لا تقر لهن ببراءة، ثم إنها كانت تحرص على أن تدّخر له طيبات من الأكل غير ما توثره به أمه. وبعد أن صار يتردد على المدرسة بدأت تخاطبه بالسي أحمد، بعد أن كانت تخاطبه أخي (اكما)، وظل هو يخاطبها للارقوش (أختي الكبرى رقوش).

ومن جملة ما تعلم منها أسرار الأعراس، فكلما أقيم عرس عند عائلة من العائلات الكبرى في القرية العليا، دُعي إليه بالليل كل أهل الدار، وتبقى هي والولد تحرسه ويحرسها، وبعد العشاء تتسمر قرب إحدى النوافذ ذات الشباك في الظلام إن لم يبدده ضوء القمر، وهو بجانبها، فتتابع بسماعها عن بعد ما يجري من الوقائع بمتابعة أهازيج الطقوس، وتأخذ في شرح ما يجري هنالك على بعد ميلين أو أكثر، وصمت الليل يصفي تلك الأهازيج، فيعيشان الحدث كأنهما يحضرانه : أهازيج النساء وهن يضعن الحناء في رجلي العروس وفي يديها، تسايرها من خلال ما تسمع مقطعا مقطعا إلى آخرها، ثم أهازيج مشط شعر رأس العروس، ثم أهازيج إلباسها حلة الخروج إلى دار زوجها، يختلط فيها صراخ شماتة أهل العريس وبكاء أمها وصاحبات دارها، ثم لغط الركب المصاحب للعروس وهي فوق بغلة، مصحوبة بأهلها وبمن جاءوا للإتيان بها من أهل العريس، ثم أهازيج استقبال ركب العروس والضجة المصاحبة لدخولها إلى دار زوجها.

فإذا وقع أن الولد تحمل الأرق تحت وقع إثارة تلك المتابعة، من وقت العشاء إلى ما قبيل الفجر، فإنه يعيش مع رقية قمة التوتر بالنسبة إليها، وهي لحظة الصمت التي تتبع دخول العريس، لأنها

تمثل اللحظة التي تشد إليها اهتمام الجميع، والكل ينتظر أن تليها بأسرع ما يمكن زغاريد معلنات سعادة العريس بعروسه، وهو ما تتوقعه أمها على الخصوص، ويتجدد فيها لكل النساء تحقق معناهن في الانتقال من العذرية إلى قابلية العطاء في الأمومة، سواء منهن من بعدت عنها الذكرى أو من هي في سن الترقب.

لم يكن الولد مستوعبا لمركزية عذرية العروس وخطورته كما كانت توحي به إليه إشارات هذه الفتاة الروعاء، ولم يكن يتصور في سنه تلك كل المخاطر التي تتعرض لها كل بنت قبل أن تتمكن في تلك الليلة المشهودة من أن ترضي أهلها وتسكت أفواه التربص ولتجعل من ذلك الاعتماد أول حجة لإفحام الذين ستدخل عروسا إلى بيتهم، وكأنهم في صف العداء مع ما هم مضطرون إليه من تزويج ولدهم وإدخال بنت غريبة إلى دارهم، وإن كانوا هم الذين سعوا بالقطع إلى تزويجه واختاروا له عروسه. كانت رقوش تتكلم إلى الولد وكأنها تريد أن يرى فيها حاملة لواء هذا الدفاع عن المعنى المطلوب، وهي قادرة على التبريز في معتركها القادم، فكأن كل السابقات إلى التزوج من جيلها لا يجوز لهن إحداث خرق في الطريق الذي يتمهد لها، وهي بنت شيخ مجيد ستزف إلى ولد ورث هذا المجد كما ورث أحقيته في أن يكون صاحب بُضعتها.

كانت تردد بيتا من الشعر هو أعنف ما قيل للتعريض بالفاشلات في هذا الامتحان، وبضددها تتميز الأشياء، فعلى لسان ناظم ماكر من أهل البلد، قد يكون تسرب إلى علمه حال عروس أضاعت العنوان وهي رائحة في ليلتها، جاء بلغة المحل :

تاكَانت إكَّاتِ أوزلف إكَّات أوشاقور

إِسي إخلا وانَّاكَيسن إِران أساتور

إنها غابة مر منها الحطاب بشاقوره، والتهمها الحريق بلهيبه،
فما أعظم حمق من يطلب فيها الأخشاب المستقيمة المتينة لحمل سقفه.

هاهو موعد زفاف رقية قد حل، لتعيش بالتحقيق ليلة كالليالي التي كانت تعايشها بالسمع والخيال. فهي طيلة سنوات الخطبة، وكلما حل عيد، إلا وجاءتها هدية «التذكرة» من دار العريس، وكانت عندما تراها تذرف دموعا، لأنها تتوقع يوما تغادر فيه الدار التي نشأت فيها، ذلك هو الشعور المعبر عن حياء المخطوبة التي تطالبها العوائد بأن تغلب إحساس كراهة الغربة عن الأهل على شعور الفرحة بلقاء حياتها الجديدة.

يبلغ التعبير عن هذا الشعور بذَرْف الدمع الحار المصحوب بالنحيب والعويل المسموع، يبلغ أوجه عندما تتولى النساء العروس بالإعداد في الأيام الثلاثة السابقة للزفاف، ولاسيما في الليلة الأخيرة. فكل تقصير في إظهار الحزن من جانب العروس ينقص من الاعتبار المستحق لها، ومهما تكن درجة التنكر الذي تفرضه الطقوس في ذلك الموقف، فإن شيئا من الصدق والحقيقة في تلك الدموع قد عبر عن ألم مفارقة رقية للولد، فقد أحس بذلك وتأثر له في لحظة طلبت فيها أن يدخل عليها وتراه بين طقس وآخر.

تمنت رقية أن يكون الرجل الذي ستركب خلفه على بغلة الزفاف هو الولد نفسه، لكنه كان أصغر في السن من الرشد المطلوب، فلمثلها يختار أحسن الأكفاء لتلك المهمة، من عزاب أقاربها، ممن يستطيع التحكم في اللجام، وممن لا تحرن تحته الدواب، ممن يحسن الأخذ بالزمام وسط هرج كبير من الرجال والنساء المصاحبين للعروس من دارها في اتجاه دار العريس،

والمسافة بين الدارين فيها هبوط وصعود، وفيها مجاري مياه وشعاب يستوقف فيها أهل العريس الركب، على ما تقرر في العوائد، للمطالبة بحق المرور المسمى «بحق الماء»، فالعروس كالبضاعة النفيسة لا يجوز تمريرها بالمجان، وكل مجرى من مجاري المياه، أو حتى شعب من الشعاب اليابسة، يعد من خطوط الماء التي تعبر كما تعبر الحدود، ثم إن عليه أن يحرص على عدم انفلات البغلة التي قد يضايقها الخفر الشديد للنساء الملتصقات بها من أهل دار العروس، ومعظمهن من جريئات الإماء والخادمات، وذلك مخافة أن يقترب شخص مناوئ من مركبة العروس، فيمس البغلة من الخلف بشكل يؤثر تأثيرا سحريا على شرف العروس التي تمتطيها. لكن مهارة هذا الربان هي أشد ما تظهر أمام دار العريس، فبعد أن يتوقف الركب على خطوات منها في انتظار أن يُخرج أهل العريس عجلة من البقر تهدى للعروس وتوضع عليها علامة ملكيتها لها بقطع طرف صغير من أذنها، كأول رأسمال للعروس في دارها الجديدة، وبعد استجابة العريس لمطالبة الموكب الذي رافق العروس من دارها، وهم يصرخون ويطالبون بالمعهود من الفاكهة، التمر والجوز، التي يتوجب على العريس المطل من السطح فوق باب داره أن يقوم بنثره من أعلى، بعد هذا كله فإن على من ركبت العروس وراءه أن يحرص أشد الحرص على إنزالها غير بعيد عن باب الدار حيث تحملها نساء مقتدرات بأقصى ما يمكن من السرعة، لأن العريس أثناء دخولها محمولة من طرف النساء يحاول أن يهوي عليها من أعلى السطح بقصبة ليضربها، وبهذه الضربة إن تمكن منها، يعتقد أن علاقة القوى بين الطرفين تكون محسومة بالنسبة للمستقبل. ثم إنه لا يجوز دون شماتة بأهلها أن يسمع قومها أن ضربة واحدة منها قد وقعت على

العروس، وأحسن الأحوال أن يستطيع بعض حذاق الشبان من حزبها صرف القصبة عنها أو نزعها بقوة من يد العريس، فيجرده بذلك من سلاحه.

دخلت رقية إلى خدرها عند العريس فكانت بها سعادة الأهل والأحباب. استسلم الولد للنوم في وقت من الليل لشدة التعب، وفي الصباح رأى البشائر على كل الوجوه، وسمع من بعض الخادمات أنصاف كلمات مدغمة متبادلة بينهن، مصحوبة بالضحك والغمز تحكي وقائع ما قبيل فجر ذلك الصباح، ولما تم إعداد أواني الفطور الذي سيحمل من دار العروس لينقل إلى بيت رواحها، اقترحت أختها على الولد أن يصحب حاملات الفطور، ولكنه استحيى ولم يجرؤ، أو تجنب موقفا توجس أن يكون شديدا عليه.

سمع الولد أن العريس بعد أن طلع الفجر شتم خادمة نمامة في داره، شتمها علنا أمام النساء اللائي دخلن للعناية بالعروس فقال : قلن لها تأت بالقماط للولد الذي كانت تتوقعه!

جرى في الدار في تلك الليلة أكثر من زفاف، لكن زفاف رقية إلى محمد قد كسف غيره. وانطلقت الأفراح لمدة ثلاثة أيام بدل السبعة المعهودة، نظرا للوقائع الجارية في البلاد. أمر الشيخ عمر بذلك الاختزال ولم يبال بتأويل الخليفة وأضرابه. كانت أياما حضرها أعيان القبائل وتحركت فيها للمبارزة أسراب الخيول، وتنافس الفرسان في إطلاق البارود.

وبعد مرور سبعة أيام خرجت العروس من لباس الزفاف وفتلت بيديها (حضرت على شكل حبيبات) طعام الكسكس المعهود لتعطي الدليل على كفاءتها في إرضاء زوجها وأهلها بما تتقنه من الطيبات. انتقل الشيخ عمر ومعه زوجته المحظية ومعهما العروس إلى الدار

التي انتقل إليها منذ مدة تحت تأثير الزوجة الجديدة، وهي قرب الطريق المعبد، ويتذكر الولد أنه مشى وراء بغالهم.

رجع الولد ومعه احماد، ولد الشيخ عمر، إلى المدرسة بعد غياب أيام العرس. وكان المعلمان قد غضبا لأنهما لم يكونا من المدعوين بعد قضية الوشاية السياسية التي قام بها معلم العربية. وقد عوَّلا على الانتقام مرة أخرى من التلميذين بالضرب أشد انتقام، وكانت تلك محنة ثانية اشتد فيها الضيم على أحمد، ولكنه تجنب إخبار والده لكي لا يتعقد الموقف.

جاء الخبر بأن النصارى قرروا ترقية خليفة القائد في القبيلة إلى مرتبة قائد في محل القائد المختفي. وكان المرشح يستعد لذلك منذ عام، فبنى دارا جديدة، وأعلموا التلاميذ بالمجيء في حلة لائقة، ذات صباح، وكان المعلم اتفق مع سائق سيارة النقل العمومية التي تأتي يوميا من مراكش في اتجاه سوس لحجز مقاعد بعدد التلاميذ، فوصلوا بعد ثلاثين كلمترا من الطريق الجبلية، ووقفوا في الصف لتحية الحكام الذين سيأتون للحفل من مراكش، ولم يفهموا شيئا من تلك المراسم، وعادوا قبل غروب الشمس.

عاد الولد من هذا الحفل بذكرى صبيانية واحدة، هي صورة الطفل، ابن القائد الجديد، وهو يلعب فوق دراجة ذات ثلاث عجلات لم يسبق لغيره أن عرفها في ذلك البلد.

أما مشيخة أيت واحمان فقد دخلت مرحلة انكماش، لأن الشيخ عمر لزم داره بعد حادثة الوشاية وبعد أن اختار القائد نائبا عن الشيخ هو ابن عمه، إبراهيم الجريء، للتعامل معه، كما لو أن وقت الحكمة قد نسخته الجرأة. وسرعان ما أحس الناس أن وجه الزمان بدأ يكشر لهم ويكشف عن أنيابه، فقد كان أهل القبيلة، على ما

ألفوه، يسميهم الناس «إخوان» الشيخ، لا محكوميه، لأنه كان ينوب عنهم ويعتذر ويجبر ويؤدي ويتحمل، فتخوفوا في ظل ذلك الناموس الجديد أن يرفع عنهم الغطاء.

صار الناس يعيشون على الأخبار الواصلة من الأسواق، وكلها تتحدث عن تعزيز شرطة مراكش بمزيد من رجال قبيلة باشا المدينة، جاؤوا بعصيهم يعلون بها أكتاف أهل المدينة إذا تأنفوا أوتمردوا، وأخبار أخرى تتحدث عن قتلى من النصارى وقنابل في الأسواق، وضرب باعة السجائر، ومقاطعة الخميرة الرومية (المصنعة) باعتبار أنها تصنع بالكحول، وتمرد جنود، واستنطاقات في دهاليز مراكز الشرطة، ومنع التجول في الليل، ومداهمة المنازل، وتهديد متعاونين متهمين بالخيانة...

وفي يوم من ذلك الصيف وقع شيء من هذا القبيل، غير بعيد عن القرية، فقد قطعت أسلاك التلفون على جانب الطريق المعبد، ووقع الهلع في الأجانب المستوطنين في قريتي أسني وويركَان. وجاس الدركيون في تلك الوديان، ثم سمع الناس أنهم تعرفوا على مرتكب ذلك التدمير، فهو من خارج القبيلة.

قبيل انتهاء موسم الدراسة جاء تاجر إلى سوق خميس ويركَان «بالماكينات»، أي آلات الفونوغراف، وبالراديوهات (المذياع). أراد الوالد أن يشتري الراديو(المذياع)، الصندوق الذي منه تخرج الأخبار، ولكنه تخوف من أن تُنسب إليه الإشاعات، مع ما في ذلك من فتح باب للمضايقات، فعدل عن هذا الأمر، ولكنه اشترى ماكينا (فونوغراف)، واشترى معها عددا من الأوراق (الأسطوانات). وكان ذلك هو الحدث العجب الذي انشغل به كل من في القرية. فلكل شخص الحق في أن يأتي ليرى ويسمع، والعيون ملء سعتها على

أطراف زرابي السي محمد أوبورحيم، قبل كل غذاء وبعده، وحتى قبل كل عشاء وبعده في بعض الأحيان. صندوق أحمر له مقبض مطلي بالنحاس يُحمَل منه، يزال عنه الغطاء فتظهر رحاه التي تدور، يُركَّب في زاوية منه بوق عليه صورة كلب. يوضع في ثقب بجانب الصندوق مفتاح يدار «لتعمير» الماكينا كما يقال، ثم يوضع فوق الرحى ورقة (أسطوانة)، ثم يوضع فوقها رأس ذراع في آخره شوكة تتبع سواقي دقيقة محفورة في الورقة، فيحدث الغناء.

أمر الماكينة عجيب لا تفسير له، لولا أن أهل القرية يتذكرون عرسا من أعراس عائلة أيت واحمان جرى قبل سنوات، جاء فيه أصحاب الراديو (الإذاعة) في سيارة كبيرة، ووقفوا قريبا من جوقة الغناء المحلي المسمى بأحواش، وقيل إنهم ينقلون ذلك الصوت على ماكينة، فلما انتهى الغناء أسمعوا الحاضرين كل ما جرى من الطرب من قبل، فتعجب الناس.

أما ورقات (توريقين = أسطوانات) ماكينة السي محمد ففيها غناء أحواش، وهو النموذج الذي يضرب به المثل في كل جبال الأطلس، منه أحواش تلوات الذي يشارك فيه عشرات الرجال، وفي مقابلهم عشرات النساء، ويستخدم فيه الطبل إلى جانب الدف والقراقش. وفي أسطوانات الماكينة مطربون (الروايس) كالحاج بلعيد والرايس رزوق، وكذلك المغنيات (الرايسات) مثل الرايسة مباركة وجوقتها التي نشأت في دور الأكابر. يعجز من يسمعها من صغار الفلاحين والخماسين عن أن يتخيل جو قصور الباشوات وكبار قواد القبائل التي تطرب فيها هذه الرايسات، فيأخذ بهم الدهش والدوار.

دخلت ماكينا السي محمد في برامج الاحتفالات، يستعيرها أصحاب الأعراس من الذين يجرؤون على أن يطلبوا حضور هذا

الرجل ومعه ماكينته. وقد تكونت حولها غيرة كل من يمت إلى هذا الرجل بصلة، فيخافون أن تبتذل، وفي نفس الوقت أثارت حفيظة المغنين الطبيعيين الذين سرقت منهم بعض ما يتمتعون به من الخصوصية والالتفات. ومع الزمن أخذ العطب يطرأ على الماكينة، وتعلم السي محمد أن يدير لواليب أركانها الأربعة ليزيل سقفها، ويطل على مصارينها، ولا سيما كبدها المتمثل في «فرفارة» نحاسية، ثم السمطة (الشريط النحاسي) التي تعمر(تعبأ) الماكينة بليها حتى تدير رحى توضع فوقها الورقة التي سجل فيها الغناء. صار السي محمد خبيرا في علاج هذين العطبين باستعمال مفك البراغي ومقص، يقطع الشريط النحاسي لترقيعه.

قرَّبت ماكينة السي محمد إلى الناس في القرية أهم ما في فرجة جامع الفناء بمدينة مراكش، حسبما يحكى لهؤلاء القرويين الذين لم يتأتَّ لمعظمهم زيارة المدينة. فكثيرا ما سمع هؤلاء بفرجة الروايس، أي مطربي بربر الأطلس الكبير الذين يطرزون في أغانيهم، في آن واحد، الشوق والحنين والورع في الدين وحكمة الحياة، فهم معلمون ومجددون لرونق الدنيا، ومترجمون لأحاسيس الجمال في أشعارهم التي يرفع بها العقيرة شبان القرية من الأولاد والبنات، وهم منكبون على الاشتغال في الحقول، بعداء بعضهم عن بعض، تتجاوب أصواتهم لكن دون لقاء ضروري بين الأشخاص.

وبعد بضعة شهور دخلت ماكينة ثانية إلى القرية، جاء بها شخص من الذين يؤجر لهم الناس خدمة معدن الملح المملوك لكبار العائلات، فقد وفر هذا المقتني الجديد من المال ما مكنه من شراء الآلة العجيبة. عرف الجميع أنه تطاول على منافسة مثيرة غير مسبوقة، ولكن يشفع له أنه كان شخصا من أسرة كبيرة كثيرة الأولاد، وإن

كانت قليلة الأراضي، ذهبت أملاكها إلى عائلات أخرى في فترات سابقة وبسبب تزويج البنات إلى خارج العائلة، وبقيت عندها نخوة المجد القديم حتى رشحتها للمصاهرة ببنت لتكون الزوجة الثانية للشيخ عمر.

كان صاحب الماكينة الجديدة يصعد بها صيفا إلى سطح داره، حيث يفترشون الحصير ويستضيئون بالشمع في فنار، ومعه أبناؤه وبعض إخوانه وأهله، فهو يعلن من فوق السطح عن تميزه، وفي نفس الآن فهو يشرك في متعتها كل الآخرين الذين يصعدون فوق سطوح ديارهم بسبب القيظ أو طلبا لفرصة الاستماع للغناء.

كان السي محمد أول من أطلعه هذا المتملك الجديد على الماكينة بمجرد اقتنائها، وهو أول من شغَّلها وأعطى النصائح الضرورية للمالك الجديد، لا سيما بخصوص مسح الورقات (الأسطوانات) من الغبار الرقيق الذي يعلق بها، وعدم الإسراف في إدارة مفتاح التشحين، وهو متيقن أنه سيلجأ إليه بمجرد وقوع أول عطب فيها، وسيظل السي محمد مالكا لأكبر عدد من الأسطوانات، لأنه يعرف في المدينة شخصا يزوده بكل جديد في هذه البضاعة.

لم يخفف من انشغال الناس بماكينات الغناء إلا فتنة وقعت في القرية من نوع آخر، فتنة سببها فتاة قاربت سن الزواج العادي، يتمت من أبيها وهي طفلة صغيرة، وربتها أمها وأخا لها يشتغل معاونا لبعض العائلات. شاع بين الناس أن مخلوقا من الجان يمس هذه الفتاة فيُغشى عليها، ويتكلم منها ذلك الجني الساكن فيها بما يفيد أنه مطلع على أسرار جميع من في القرية، من الرجال والنساء.

أُغشي عليها في المرة الأولى، وبدأت تضطرب، وخرجت من فمها رغوة كالتي تخرج من البقر إذا تحشرج قبل الموت، فخافت

أمها واستغاثت بالجيران، ولما استكانت لم تفق من غيبوبتها، وإنما بدأت تتكلم وكأنها في وعي كامل، لكنها تقول أمورا تهم الحاضرات، فتخوفن منها وهربن. وفضح بعضهن ما قالته عن الأخريات، ووقعت الفتنة. وقال الناصحون إن على أمها أن تذهب بها بأسرع ما يكون لزيارة مغارة ملك الجن في الجبل القريب، وهو سيدي شمهروش. لكن أناسا آخرين نصحوا الأم ألا تفعل، لأن هذا الذي يتكلم منها فقيه يقرأ القرآن، ولا شك، على هذا الأساس، في أنه كائن لا يحب الفساد، ولو خرج منها لسكن مكانه شيطان سينطق بالكذب، وقد يكون ممن لا حكم للسلطان شمهروش عليهم ، وهدد آخرون برفع دعوى ضد الأم، وذلك لما شاع من أقوال صدرت عن البنت في حالتها تلك، وتسببت لهم في خصام مع أهلهم.

وقع نقاش حاد بين رؤوس الجماعة عند الخروج من صلاة جمعة بمسجد القرية العليا حول الموضوع، وكاد الاختلاف في تقدير الموقف يؤدي إلى الشجار، وقال المدافعون : دعونا نجربها، فقد قالت إن غلة الزيت ستأتي وافرة في العام المقبل، ولكن على أمها أن تغلق دارها عن النساء الفضوليات، ولا تقبل التجمع للاستماع إلى أقوال البنت في حالة الغيبوبة.

كانت غيبوبتها تقع مرة أو مرتين في الشهر، ولكنها في الأيام الأخرى كانت تعيش عادية، تلقى الناس من الرجال والنساء في القرية وفي الحفلات وفي الحقول، ولكن الجميع لاحظ أن عينيها غارتا قليلا وأن نظرتها قد تغيرت، فقد صارت ترمق الذين تلقاهم وكأنها تخترق ضمائرهم وتقرأ صحائف أسرارهم، تلقي عليها الضوء بسفودين منبعثين من عينيها ، فهي تلقي نظرة شزرة على بعضهم وكأنها تلعنه، وبعد ذلك تصرف النظر وتضحك، فيشعر من يكون أمامها

وكأنها اطلعت على دواخله، فلم يعد أحد يطيق لقاءها، إذ صاروا جميعا يخافون منها.

ظلت البنت تتردد على دار الولد وتدخلها كعادتها مع أمها قبل أن يصيبها ما أصابها، واستمرت تراعي نفس قواعد الحرمة مع الجميع، بل إنها صارت تظهر مزيدا من الحياء وتتهرب من مفاتحتها من قبل نساء الدار في موضوع ما طرأ عليها. كان بعض النساء في القرية ممن ليس لهن شيء يخفن ضياعه منهن، يعملن كل ما في وسعهن لدخول دار أم البنت لعلهن يصادفن وقت نطق الساكن في البنت، أما الأخريات، وهن الأكثر، فكانت كل واحدة تتمنى أن تسمع منها على حدة أخبارا تهمها، ولكنها تتخوف أن تواجهها بشيء تكرهه أمام الأخريات.

حل عيد الأضحى ورجع أخو البنت «المسكونة» من بين الشباب الذين ذهب بهم مقاول يصنع الفحم ليقطعوا له أشجار غابة جهة دمنات، رجعوا بحلل قشيبة ودراجات ومال قلما يقع قدره حتى بين أيدي كبار الفلاحين هنا. كان العائدون محل اهتمام وترحيب، ولكن معظمهم ظل يحفظ الأدب مع ذوي الشرف من رؤساء العائلات لأنهم من أسيادهم المخدومين من قبل. كانت لأخي البنت هذا صداقة مع رجل أسمر منهم خاصة، فكان هذا الأخير يتردد على بيتهم. وما لبث هذا الصديق أن تقدم لخطبة البنت، وفي العودة الموالية للعمال المغربين من القرية، بعد شهور، أقيم العرس ودخل بها. وكان في ذلك امتحان عاطفي آخر للولد، لأنه ألف أن تقضي البنت وقتا في دارهم مع أخواته وإن كانت تكبرهن قليلا وتكبره. ولكن العريس لم يكن راضيا عن عروسه، وتأسف الناس لتلك المنافرة لأنهم قدروا أن هذا الذي يتكلم منها قد تزوجها قبل هذا العريس الآخر، فهي مظلومة لا تؤاخذ بذنب.

عندما هم عمال الفحم الخشبي بالرجوع إلى عملهم البعيد من جديد، اشترى الوالد لولده دراجة من أحدهم. فرح الولد بدراجته تلك لولا أنه كان يخجل مرة أخرى من أن يكون له وسيلة يتميز بها عن الأولاد الآخرين، تمكنه من الوصول في وقت أسرع وبتعب أقل إلى المدرسة، فاتخذ كعادته أسلوب ترضية زملائه بإرداف كل واحد منهم مرة، وفي بعض الأحيان كان يمشي معهم وهو يدفع الدراجة، والطريق إلى المدرسة بعضه غير معبد، لذلك كانت تحدث في عجلتي دراجته ثقوب فيتسرب ريحها مرة أو مرتين في الأسبوع، وثقب العجلة يحدث إما بالشوك أو بأحجار حادة. أما النصف الثاني من الطريق فمعبد، نصفه صعود، تتعب فيه ركبتا الولد حتى تصبب العرق وحدوث الإجهاد، والنصف الآخر هبوط تلفح فيه الريح وجه الراكب ويتيبس بسرعة عرق وجهه.

عادت البنت «المسكونة» مطلقة إلى دار أمها، لكنها لم تعد تجرؤ على طرق دار الولد بالتلقائية الأولى، والطلاق في تلك الأيام واقعة مشينة نادرة. قال بعضهم إن السبب هو اتهام أهل الزوج لها ليلة العرس، وقال آخرون إن الزوج كان يرى كوابيس مفزعة في الليل، وقال آخرون إنها فلتة لسان صدرت منها بأمور تهم نساء أخريات في دار زوجها، وقال آخرون إن زوجها كان يظهر له وجهها في بعض الأحيان في صفة منفرة أو مخيفة تخالف ما هي عليه.

صارت البنت، وهي حرة من عقدة العذرية ومن قيد الزواج في آن واحد، تشارك في جوقات الغناء المزدوجة بين الرجال والنساء، ومن العادة في هذه الجوقات تبادل حوارات شعرية مغناة في آخرها بين صف الرجال وصف النساء، وكان من الحضور في حفلة زواج في القرية ضيوف من قبيلة جبلية بعيدة، كان من بينهم رجل معروف

بارتجاله للشعر الحامل للمعاني وبمهارته في ضبط الإيقاع بالدف، يفحم أنداده. فلما اشتد الحوار بين صف الرجال وصف الناس، رمق الرايس الماهر تلك المرأة وهي تملي أشعارا بالسر في أذن جارتها، وكان من تلك الأشعار ما أعجز الرجل الناظم المعتد بنفسه في هذا الفن، بل إن ما سمعه من المرأة المملى لها قد أضحك عليه الناس لأول مرة في حياته، فرددت السفوح أصداء تلك الواقعة.

وبعد أسبوع، عاد الرجل الغريب الناظم وطلب للزواج يد المرأة صاحبة الإملاء، فذهب بها. وقال الناس إن الذي كان يتكلم منها قبل زواجها الأول قد تحول إلى شاعر شيطاني يملي عليها علم الكرش (العلم الباطني، المقصود به هنا الشعر لا غير). وأن الرايس (المطرب الناظم) المغلوب لها أراد من الزواج بها توسيع علمه في هذا الفن والزيادة في شهرته.

يتذكر الولد أنه في غد خروج هذه المرأة من القرية بالذات حدث زلزال حقيقي في الأرض، كان ذلك في الضحى والتلاميذ داخل الفصل المدرسي منهمكون مع المعلم في درس المحادثة، فتمايلت غرفة الدرس بمن فيها، فإذا المعلم يصرخ في وجه التلاميذ، اخرجوا!اخرجوا ! قالها بالفرنسية (صورتي، صورتي!)، ففتح الباب وخرج منه البعض وقفز آخرون من النوافذ. وتوقف الجميع في الفضاء وسط ساحة المدرسة. نظروا إلى الجبل الكبير الذي تحته النهر المسمى نفيس، فإذا أحجار ضخمة تهبط من أعلاه متدحرجة على السفح إلى الوادي، وجاء سكان الدور المجاورة وتحلقوا في ساحة المدرسة، وأخذ المعلم يشرح لهم معنى الزلزال.

لم يندهش معظم التلاميذ لأنهم لم يشاهدوا الزلزال ولا عرفوا ما وقع عندما تمايلت الأرض، مع أن السقف كاد أن يتهدم على رؤوسهم في لمح البرق.

ذهب المعلم إلى المقهى المجاور واستعمل التليفون واتصل بمكتب الحاكم لكي يخبره بما وقع، وسأل عماذا كان عليه أن يفعل، وقضى التلاميذ النهار خارج الفصل.

لم يهتم الاطفال كثيرا بالحادث لأنهم انغمسوا في لعبة جديدة وصلت إليهم تلك السنة، وهي اللعب بحبات زجاجية داخلها ألوان زاهية تسمى «البي»، لعبة تدور على المهارة في تسديد حبة واحدة بالخنصر والبنصر لضرب حبة أخرى على بعد معيَّن.

ولما عاد الطفل إلى القرية، قبل الغروب، وجد الوالد قد وصله الخبر عن سلامة الأولاد في المدرسة، بينما أحدث الزلزال شقا في جدار برج ركني من دار العائلة، في تاوريرت. فزع الناس في المساء إلى إمام المسجد فحدثهم عن سبب الزلزال، وأنه الثور الذي يحمل الأرض، يعيى بحملها على قرن ثم يريد نقلها إلى القرن الآخر، وعند النقل يقع الزلزال.

لم يفت بعض المشفقين على المرأة التي غادرت قبل يوم أن يقولوا إن اتهام النساء البريئات مما تتزلزل له الأرض، وكان في صف من قال بهذا التفسير إمام مسجد القرية السفلى، وهو مجاور لدار المرأة، وهو لا يقوم بالوعظ عادة، ولكنه قال إن هذا المعنى موجود في القرآن.

في حفل آخر العام الدراسي صنع المعلم لعبة للتلاميذ، إذ وضع ابتداء من ساحة المدرسة علامات على طرق متفرقة تدل عليها إشارات بالطباشير والصباغة مرسومة على أحجار وأشجار، تتوزع في كل اتجاه في المسارب المحاذية للطريق، ثم تتفرع في المسارب المخترقة للحقول، وكلها تنتهي في الأخير إلى علامة طريق مسدود، إلا واحدة هي التي في آخرها رسالة مخبأة يفوز من وجدها بجائزة الحظ والفطنة، يعطيها له المعلم.

وزع المعلم الأطفال إلى مجموعات ستسلك كل واحدة مسلكا معينا، وإذا انتهت إلى طريق مسدود فعليها أن تعود أدراجها ثم تختار طريقا آخر انطلاقا من مفترق الطرق، على أن الفرقة التي سلكت تلك الطريق بتوجيه المعلم لا بد أن تختار سبيلا من السبل المتفرعة عنها بكل من فيها.

لم يفت الولد أن ينتبه إلى أن المعلم قد وضعه في مجموعة غير التي وضع فيها غريمه التلميذ الذي يتناوب معه على صدارة الفصل من حيث نتائج الاجتهاد. ووقع أن فرقة ذلك الغريم هي التي اهتدت إلى الرسالة ونالت جائزة الحظ والفطنة، والرسالة كانت مخبأة في جدار من جدران ساحة المدرسة، أي قريبا من منطلق الطرق، بينما نهايات المسالك المسدودة بعيدة في الحقول وجنبات الوادي.

بعد نهاية اللعبة ذهب الأطفال، ومعهم المعلم، إلى جانب النهر وجلسوا، وأخرج كل واحد الميرة التي جاء بها من داره، من خبز وفاكهة ولحم وبيض، وتغذوا، وأتى إليهم المعلم من الكانتينا (المقهى العصرية) بعلب فيها مشروبات، ومعظمهم يشربها لأول مرة، وأخذ منهم مقابلها من المال ومقابل الصور التي التقطها لهم، على أن يخرجها بعد التحميض في المدينة.

وفي الغد كان الاختتام الرسمي للمدرسة على الطريقة المعهودة، ووزعت فيه كتب على المتفوقين، وأُعطي لكل واحد من بقية التلاميذ كتاب فيه قصة قصيرة. حضر الحاكم وأعوانه والقائد الجديد وأعوانه، وحضر نائب الشيخ، وهو ابن عمه الذي وقع الاختيار عليه بعد وشاية معلم العربية.

تهامس بعض الأولاد من قرية المدرسة تعليقا على لعبة الأمس

وقالوا إن بعض الناس من أهلهم رأوا المعلم، وهو يصنع إشارات مسالك اللعبة، وقالوا إنه استعان بالتلميذ الذي فاز فيها. فهم الولد أن قصد المعلم من ذلك التصرف النكاية فيه بتحريض معلم العربية، لأن المعلمَين معا لم يتلقيا الدعوة إلى العرس الذي أقامته العائلة. تجدد بذلك شعور الولد بالظلم وتعمق إحساسه بالضيم، لكن وقائع الصيف أنست الولد ما تعرض له في المدرسة من تلك المضايقات.

عاد الولد بإلحاح والده إلى الكتَّاب لحفظ القرآن، وتجددت مواعيده مع المرأة التي كانت تطل من الكوة في وقت مروره في ذهابه ووقت رجوعه، كان الوقع عليه أشد وهو لا يدري ماذا يمكن أن يفعل، لن يفعل شيئا ولن يقول شيئا، لا في نفسه ولا لغيره، ولا ينتظر شيئا سوى أن يمر غاض البصر، مطأطِئ الرأس، وأن ينتابه ذات الإحساس، وهو يظن مجددا أنها تقول كلمات كأنها تتحدث إلى نفسها دون أن يسمع منها شيئا واضحا.

رجع الولد ذات عشية من الكتَّاب ووجد عند والده ضيفا هو في الحقيقة من أسرته، إنه الطالب علي، ابن العم بوقدير، أخو المتولي أمور المشيخة بترشيح من القائد الجديد. فالسي علي هذا هو الشخص الوحيد المدرك في كل عائلة أيت واحمان لمرتبة الطالب، أي الحافظ للقرآن الكريم، فهو من أقران الوالد، ولكنه من بين عدد من إخوته قد خصصه والده للمسجد ورعاه الأعمام، لأنهم أرادوا أن يكون في العائلة الكبرى حافظ للقرآن. فقد كان في مرحلة من مراحل حفظه مغرَّبا خارج القبيلة عند بعض القواد، يقرأ على أستاذ ماهر، هو وأولاد القائد، وكان ذلك القائد من الذين يضعون الأكبال في أرجل أولادهم حتى لا يتركوا الكتَّاب القرآني. وحكوا عنه أنه كان يقول للأستاذ العبارة المتداولة : «اقتل وأنا أدفن»، وبالغ الأستاذ في

تنفيذ هذا التحريض حيث كان يأخذ أحد أولاد القائد من حنجرته فيشدد القبض على جلدته بأصبعه وبطرف قلم القصب الذي يكتب به، مما أدى إلى إحداث ثقب في مقدمة حنجرة ولد القائد، قيل إنهم سدوه بالقطن وصفار البيض.

كان السي علي غائبا عن القرية لعدة شهور في أول تجربة له في المشارطة عند أهل قرية تسمى نزالت العظم، في قبيلة الرحامنة، قرب قرية ابن جرير. والعلاقة بين عائلة أيت واحمان وأهل الرحامنة ترجع إلى الطريقة التجانية، وما سبقت إليه الإشارة من كون صديقهم الشيخ النظيفي إنما انتقل بسعي بعض الرحمانيين من أكَركَور، في قبيلة سكتانة الحوز، إلى مدينة مراكش. كان انتماء السي علي لأيت واحمان حريا بأن يغنيه عن طلب أجر الإمامة في مسجد صغير وتعليم القرآن عند أهل تلك القرية المتواضعة، ولكن القيام بالإمامة على التعاقد هو المآل المشرِّف لكل من تكرس لحفظ القرآن وادعى أنه أتقنه، فلا يُعترَف للحافظ إلا إذا صار «طالبا»، أي إماما في مسجد.

حضر الولد مجلس الوالد وهو يحتفي في عطلة عيد بقرينه العائد من مغامرته النبيلة، وكان جل حديث العائد عن نصارى يسمون «الماركان»، وهم غير النصارى الذين منهم الحاكم، وقد صارت لهم نزلة عسكرية فيها عسكرهم بجانب القرية التي هو مشارط فيها. كان يحكي أمورا عجيبة ينقلها شهود عيان من العمال الرحمانيين المشتغلين في محل العسكر، أو عن شهود من أهل القرى المجاورة، ومن جملتها أن هؤلاء الماركان كانوا يفجرون مرة في الأسبوع «مينات» في قاع بئر عميقة، وأن انفجار هذه المينات يشبه هدَّة بارود عظيمة تهتز لها الأرض حتى إن كؤوس الشاي في الصينية داخل المنازل يمكن أن تسقط بالارتجاج عند أهل قرية بعيدة.

كان السي علي من جملة المتحفظين على التعامل اللين للوالد مع ولده، ولاسيما بعد أن سحبه من كتَّاب حفظ القرآن وأدخله إلى مدرسة الفرنسية، ولكن ابن العم هذا كان غير خشن في نقده، وإنما كان يلومه لوما رقيقا، وكلما ذكر الوالد للوالدة كلامه في الموضوع قالت : لو كان له ولد لأدخله المدرسة، دعوناهم لله، فالولد رهيف الخرقة (هش الصحة) بسبب عيونهم التي تتعقبه.

في العام الدراسي الموالي، جاء إلى المدرسة معلم جديد اسمه الحبيب. كان شخصا مخالفا للمعلمين السابقين، إذ كان يظهر أنه مشغول بأمور أهم من تدريس أولاد هذه القرى. وقد التقط التلاميذ أخبارا تفيد أنه من جهة واد زم وأنه متورط مع الوطن، وربما كان إرساله إلى الجبل، بعيدا عن الدار البيضاء التي كان بها، من باب عقابه أو تجنيبه السجن.

كان له بالولد عناية خالية من كل تحيز، وإنما ذلك من جهة تقدير اجتهاده. وهو أول من ذكر للوالد أن عليه أن يفكر في نقل ولده إلى مدرسة في المدينة ، وشجعه على أن يصمد في وجه منتقدي عنايته الزائدة بالولد، قياسا بقساوة الآباء على الأولاد في ذلك المحيط.

كانت حافلة الركاب التي تمر كل صباح قادمة من مراكش متجهة إلى تارودانت تأتي لهذا المعلم بالجورنان (الجريدة المكتوبة بالفرنسية)، مرة بالجريدة التي تسمى لوبوتي ماروكان Le Petit Marocain، وتارة بتلك التي تسمى ماروك صوار .Maroc Soir كان المعلم يكرس لقراءة الجريدة وقتا بينما يكون التلاميذ عاكفين على حل تمرين محادثة أو تمرين حساب. لم ير الأولاد قبل ذلك جريدة تقرأ، وإنما كانوا يعرفون الجورنان الذي يلف فيه صاحب متجر المواد الغذائية البضاعة التي يبيعها للناس.

في ذلك العام عفا الولد عن شعر رأسه من الحلق، وتركه يطول على غير ما هو معتاد في بيئته، ولم يكن ذلك الخروج عن المعتاد مما يمكن الإقدام عليه بدون مؤاخذة، فهو أمر مستغرب حقا في وسط يقوم فيه الجميع بحلق الرأس حتى يصير كالبصلة التي أزيل عنها قشرها، فمن منتقد بسبب التشبه بالنصارى، ومن قائل إن هذا الشعر سيكون غابة تسكنها أسراب من القمل، وتحت هذا الضغط من الصغار والكبار اضطر الولد بعد بضعة أشهر إلى حلق شعره ليعود بصلعته كما كان. ولكن هذا التراجع أغضب شخصا بالذات هو المعلم الجديد، غير أنه سلك سبيل الرفق في النقد بحيث قال للولد ما يفيد أنه بإطالة الشعر يكون الولد قد سبق إلى شيء مطلوب ومستحسن، وسيتبعه بقية الأولاد ليكون مثالا رائدا في هذا الجبل. وفي يوم من الأيام أرسل المعلم تلميذه الولد لحمل رسالة إلى صاحبة ضيعة الورود المقابلة للمدرسة في الجهة الأخرى للطريق المعبدة، واسمها مادام باياك، وهي مغربية مليحة سمراء، زوجها أوربي يشتغل مصففا للحروف في جريدة فرنسية بالدار البيضاء. ولما سلم إليها الرسالة أخذت تظهر له عطفا كبيرا وكأنها تعرف من المعلم كل أخباره، ومن ذلك أنها ترجته في أن يعود إلى إطالة شعره، لكي يرضي المعلم الذي حزن لحلقه. فقالت له كلاما عن «الماروك» و«الماروكان» سمعه لأول مرة، ولم يفهم كثيرا منه ولا علق بذاكرته منه شيء واضح.

كان المعلم مسيو الحبيب هادئا متأملا، وكان لا يذهب إلى المدينة، لأنه ليس له أحد من أهله في مراكش، وقيل إن الحاكم كان يفاجئه في بعض أيام عطلة الأسبوع لكي يراقب إقامته ويشهد على عدم غيابه، وكأنه وصي عليه. وقد تميز هذا المعلم أيضا بكثرة

الكتب الضخمة التي جاء بها إلى الجبل، وبعضها يتضمن كل كلمات اللغة الفرنسية مرتبة على حروف الأبجدية.

دخل عام خمسة وخمسين وكان شتاؤه قارس البرد. وفي الشهر الثاني منه مات الشيخ عمر، عم الوالد. كان موته فاجعة أصابت عائلة أيت واحمان، إذ برحيله صعد الوالد أكثر من ذي قبل إلى الواجهة، لأن عمه بوقدير كان متقدما في السن، غير مقصود للتعامل، لا مع المخزن ولا مع الناس في القبائل. بكت القرية فقيدها وبكته القبيلة وقام بغسل جثمانه مؤذنه ابن الطالب، واستمر توافد المعزين فيه أكثر من عام. وقد سار وراء نعشه مآت من المشيعين، ساروا به من الدار التي بجانب الطريق إلى المقبرة الكبرى في القرية. كان الولد في موكب الجنازة قبل الظهر في يوم بارد من أيام فبراير لم تستطع حرارة الشمس فيه تذويب الجليد الذي تكون على أثر حوافر البهائم في الطين الأحمر. واختير لقبره مكان قرب مدافن إخوته، تحت الخروبة الكبرى التي عمرت قرونا وتشهد بعروقها المشتبكة باللحود على أجيال من الذين ورروا هذا التراب.

خلف الشيخ عمر مشيخة نزا عليها أحد أقاربه، وكان الناس بموته يتحدثون عن المكب (الغطاء) الذي رفع من فوق رؤوسهم، فقدر الرئيس عند هؤلاء في أن يعذرهم وأن يعتذر عنهم لمن فوقه من الحكام، أما المتولي الشاب فنزَّاع إلى الغضب والانتقام، وقد سمعه الولد يوما يسب شخصا في القرية تلكأ في حمل رسالة بالليل إلى شيخ آخر في الجبل. واستغرب الناس كيف يمكن أن يصدر الشتم ممن هو في مثابة أخيهم الأكبر.

كان الشيخ عمر آدم البشرة مائلا إلى السمنة في غير ترهل، قليل الكلام، وارثا للهيبة التي عاش عليها إخوانه، ومن قبل أعمامه

الشيوخ، قليل الإلمام بالقراءة والكتابة، وكان على عادة سابقيه من الشيوخ يخرج في الصباح إلى الدكة التي أمام باب داره، ويجلس قريبا منه بجانبه بعض جلسائه ومعاونيه أو أقاربه، فيأتي أصحاب الدعاوى والشكاوى يعرضون نوازلهم إلى وقت فطور الصباح، فيدخل إلى غرفة خارج الدار بابها كباب الدار تحت سقيفة واحدة، وتسمى الدراز (الطراز)، وهنالك يتناول طعام الفطور ومعه من الناس من حضر. ثم يدخل إلى برج الدار، وهو قاعة سداسية الشكل سقفها مغطى بالجبس، وعلى السقف أشكال تزويق بالصباغة الحمراء والزرقاء والصفراء تتفرد بها عن كل غرف القرية، وهنالك يكون معه، لطعام الغذاء الذي في وقت الضحى، الأقارب والجلساء والضيوف. وغذاؤه يبدأ بصنع الشاي أمامه ثم يليه تقديم خوان معتبر، يليه كأس شاي في الأخير. وقبل الأكل وبعده يتقدم مسخر بالطست ليغسل الجلساء، بدءا بالشيخ، أيديهم ويمسحوها بفوطة واحدة، واحدا بعد الآخر. والذي يصنع الشاي لا يفتأ يطرد الذباب عن صينيته بفوطة أو ببعض أوراق الجوز في وقتها.

ينصرف من في المجلس ويقوم الشيخ ليستريح في قيلولته في القبة المجاورة. وفي الأيام التي يتذكر الولد وقائعها كانت الطارئة الأخيرة من زوجات الشيخ الثلاث هي القيمة على زوجتيه القديمتين. كانت مبتدعة في أمور كثيرة من قبل، في أمور على ما ذكر، بينما تكرست الزوجة الأولى، وهي بنت عمه الشيخ بورحيم، أي أنها أخت الوالد لأبيه، تكرست لأورادها التجانية، لا يهمها إلا شرف الشيخ دون احتساب حقوقها. أما الزوجة الثانية من عائلة كثيرة الأولاد في القرية فكانت صاحبة الطبخ اليومي، وهي معتزة بأولادها الذكور الأربعة من الشيخ، ولد اثنان قبل مجيء الزوجة الثالثة، وولد له الاثنان الآخران بعد مجيئها.

وكان من عناية الزوجة الطارئة بمولود ضرتها، وهو الرابع، وعمره ستة أشهر، أنها أرادت مداواة عينيه المريضتين في الصيف باستعمال ما يسمى بالحديدة الزرقاء تحت عصابة من الثوب، فلما رفعت العصابة بعد أيام عن العينين كانتا قد احترقتا، وعاش الولد مكفوفا طيلة حياته.

يتذكر الولد كيف أن أم المكفوف ذات مرة غضبت واستغاثت بإخوتها، والمرجح أن الشيخ لم يكن مقتنعا بأن الذي حدث للصبي كان مؤامرة، ولذلك قابل احتجاج الأم بشيء من العنف، سيما وأنها كانت دائمة الاحتجاج على هضم بعض حقوقها. كان هذا الشيخ مغلوبا للوافدة الجديدة، فما كان له سوى مداراتها، وهذا قدر كل هؤلاء الوحمانيين، كانوا لغلبة الحياء عليهم، يميلون إلى مجاملة من له جرأة عليهم.

من هؤلاء المتجرئين شخص موثق شرعي (عدل)، يتحرك بين دار الشيخ ودار القائد، ويتدلل عليهما معا ببضاعته من المعارف في أمور توثيق الأملاك وذلاقة لسانه وبراعته في السخرية الجارحة، وهو محتكر لكل توثيقات هذين الرئيسين، الشيخ والقائد، بالإضافة إلى نقل الأخبار من هذا المجلس إلى ذلك، وتظاهره للشيخ على الخصوص بالدفاع عنه في مداولاته بشأن بعض المواقف التي يتوهم أنه كان سيتقرر فيها بدار القائد مصيره.

كانت هذه الزوجة الثالثة هي وحدها التي كانت تستطيع أن تهاجم الرجل «العدل» من وراء حجاب، ولم تكن تسميه إلا باسم «الأعمى»، نظرا لضيق في عينيه وعمش مورروث من مرض قديم، ولكنها في بعض الأحيان كانت تتحالف معه ضد الشيخ إذا لم يرض هذا لأخير بعض نزواتها، وفي كلتا الحالتين كان الشيخ في حرج من أمره.

وبعد موت الشيخ ورثه في الدار وفي الوصاية على الأولاد الأصغر ولده الأكبر محمد، وهنا وجد «العدل» مرتعا خصبا للاستمرار في حلب الضرع الذي تألف عليه، لأن مسألة كتابة الاستمرار في التملك، وتحقيق القسمة بين الورثة، وإثبات الوصايا على المحاجر، وصيانة الحقوق أمام الطامعين الذين ينبعثون بعد جفاف دموع التعزية، كل هذه الأمور تحتاج إلى وقاحة كاتب العدل الذي يتكلم بالمصطلح الفصيح، ويبيع مرافعته للموكل، ويذهب ويجيء بينه وبين القضاة.

وفي هذا الموقف الجديد استمرت المرأة الجريئة في دورها المزدوج، دور التهديد بالخروج من السرب، وذلك يخدم «العدل» الذي يقترح وساطته للتهدئة والتسكين، ودور مهاجمة «العدل» إذا أظهر أنه يتحيز للوصي على حساب ولدها الأصغر والبطن الذي حملته في مرض الشيخ في انتظار أن يولد.

كان الولد كلما مر بدار الشيخ، وكان «العدل» هناك، يجالسه، وهو الذي يستنكف ويتبرم من الجميع. ومصلحة «العدل» في هذا الاستجلاب ظاهرة، إذ كان يريد أن يتخذ الولد مطية لوالده، وكان يعرف أن الوالد ينصح الوصي بالتمرد، وهكذا كان العدل الشرس يظهر لولد صغير احتراما لأنه يجادله في أمور من العلم مع صغر سنه، لأن كل غطرسته بالقليل من العلم الذي يملكه، ولا سيما في أمور المواريث والتركات، فقد ناقشه أمام الناس مرة في قدر عدد المليون، فقال «العدل» : هو مائتا ألف، وقال الولد: المليون عشرة مائة ألف، وإنما كانت مائتا ألف ريال تساوي مليون فرنك لأن في الريال خمسة فرنكات. ولما أفحم الولد «العدل» اضطر هذا الأخير إلى تغيير موضوع الحديث، ولكنه ظل منذ ذلك اليوم يحسب للولد

حسابه، بل كان يسر له أسرارا أكثرها نقد لاذع وشتيمة في أهله، ومنها أنه قال له إن أرملة الشيخ الجريئة كانت تفرض على الشيخ أمورا معينة.

وضعت هذه المرأة حملها بعد وفاة الشيخ بشهور، فصار لها ولدان، محمد، وهذا الذي ولد يتيما، وسمي عمر، باسم والده الذي لم يدركه. وكان للمرأة عالمها في غرفتها الخاصة، وكل الحاجات النفيسة في الدار هي التي تستأثر بها، وكانت تظهر للولد عناية واهتماما، فهو الوحيد الذي يدخل إلى عالمها عند العودة من المدرسة وتشركه مع وليديها في أكلهما المتميز قبل الغروب، حنطة قمح مدقوقة مشوية (أركوكو) تمزج بالسمن ويصب عليها شاي بالسكر. كان لها هي أيضا، ولا سيما بعد ترملها، طموحها إلى أن تتقرب عن طريق الولد من الوالد، وبالتحقيق لم يكن متفطنا لخلفية هذا النزوع، وقد تحقق لها بالفعل أن تتزوج به بعد ست سنوات، أي بعد وفاة زوجتي الوالد، وهما عبوش أم الولد، وبنت عمه فاضمة بنت الشيخ الحسين، وذلك في تاريخ لاحق تجاوز حدود زمن هذه الذكريات.

بعد شهرين من وفاة الشيخ عمر وقع حادث استأثر باهتمام أهل القرية، ذلك هو قيام السي إبراهيم أو بوقدير، المتولي الفعلي للمشيخة، بشراء أول مذياع (راديو) يدخل القرية. وضعه في غرفة الجلوس المشتركة، خارج الدار الكبرى، المسماة بالدراز(الطراز)، كان الولد من بين السابقين الذين شاهدوا هذا الصندوق العجيب، صندوق من الخشب اللماع، له واجهة من خيوط بيضاء مذهبة، يختلف عن الماكينا بكونه لا يشتغل بالورقات (الأسطوانات)، وبأنه إلى جانب الطرب يأتي بالأخبار التي تقع بعيدا عن القرية، ولكنه يتكلم بألسن لا يفهم منها الناس إلا اللسان الأمازيغي المحلي.

عندما بلغ الوالد خبر اقتناء الراديو من لَدُن القريب المذكور، أرسل إليه يطلبه، فجاء إليه بداره في تاوريرت، فاختلى به وحذره مما يمكن أن ينتج عن استعمال جهاز الأخبار الذي أتى به، سيما وأنه اليوم هو ممثل السلطة في القبيلة، وذلك أن المروجين للأخبار التي تتعقبها السلطة يمكن لكل واحد منهم أن ينسب ما يريد لراديو السي إبراهيم.

كان من عادة الوالد أن يذهب في كل عشية إلى دار العائلة الكبرى للقاء أقرانه من أبناء الأعمام وللجلوس معهم وتناول القهوة والحريرة ثم العشاء في وقته. ومعظم الوقت يقضونه في لعب الورق الذي وقعت به البلية منذ دخل على يد اليهودي المذكور، وجل لعبهم اللعبة المسماة «التريس» أو المعروفة ب«مشكانبا». يصاحب اللعب لغط وغمز ولمز وتنافر يتلوه اتهام بالغش أو تنافر بسبب عدم تحمل الهزيمة. كان الولد يحضر الجلسات، إذا كان اليوم الموالي عطلة، وكان يعكر عليه متعتها التي هي قبل كل شيء، متعة القرب من الوالد، يعكرها بعض هؤلاء الأقارب الذين يهتكون الحشمة بألفاظ طائشة، فتحمر وجنتا الولد ويخبئ رأسه بين ركبتيه، ويتبع ذلك استنكار الوالد على المتلفظ بما لا يجوز. وكان الذي يصدر منه مثل هذا التجريح في غالب الأحيان هو محمد، كبير ولد الشيخ عمر، وهو أصغر هؤلاء الأقارب الأنداد، ولكنه ذكي ومرح، لا يشق له غبار، لأنه خالط تجارا ومغامرين منذ صغره.

منذ أن تجرأ الشيخ إبراهيم على شراء آلة الراديو صار التجمع للاستماع إليه هو الاهتمام الأول، وبذلك تقلص الوقت المكرس للعب الورق. لم يكن يفتحه ويغلقه ويبحث فيه عن الأصوات إلا مالكه ثم أخوه الطالب علي، ثم الوالد. وكان يسمح للولد بالتقرب

منه ليقرأ اللوحة التي فيها أسماء البلدان بالحروف الأجنبية، فهناك الرباط وباريس والقاهرة ولندن وبلدان أخرى لا يعرفها. وبين الصوت والصوت يسمع صفير كصفير الريح، أو خشخشة كصوت من يأكل الحمص بأضراس قوية، ثم أصوات بلغات غير مفهومة. وكان الوالد هو الأمهر في التقاط أصوات المتكلمين بالعربية، لكن المطلوب أولا هو الاستماع إلى متكلم بلغة البربر، يقول مقدمها الفصيح إنه يتكلم من بلد اسمه درسة تطوان. ودهشة الحاضرين هي في سماع الأغاني التي هي أغاني بلدهم، أغاني الروايس التي تخدم في الماكينا، ثم سماع حكايات وحكايات، وكأن أصحابها جالسون معهم، يعرفون جوهم وتفاصيل حياتهم. ثم يأتي وقت الأخبار، فتشرئب الأعناق وتتسع الآذان، فإذا الذي ينطق من الراديو يذكر الوقائع التي من ضمنها ما يقوم به الذين يسمون بـ«الوطن»، كإشعال الحرائق وقطع أسلاك الكهرباء، ثم ما يفعله الحكام كمنع التجول في الليل بالمدن والاعتقالات والتصريحات. يتحدث المتكلم في الراديو بكل ذلك وكأنه لا يخاف من النصارى، وكأنه ليس تحت سلطتهم، فيستغرب الناس الجالسون أمام الراديو ويتساءلون أين يوجد البلد الذي لا يخاف فيه المتكلم من النصارى. لم يكن من الجالسين ولا من كل أهل القرية من يعرف أين توجد مدينة يسميها المتكلم من الراديو «تيطاوين»، ولا أحد يعرف هذه الجماعة التي تتكلم بلغة تلك الجبال.

ومع مرور الأيام تعود صاحب الراديو وأخوه الأكبر، إذا حضر، والوالد الذي لا مناص من إشراكه، تعودوا على استخدام هذا الجهاز وإدارة بَكَراته الملساء برفق حتى يشتغل حسب المطلوب، ويزاد في صوته وينقص. وتعودوا على ترصد أوقات

الطرب، وتعرفوا على أصوات بعينها وأسماء أصحابها وما ينتظر منهم من المتعة أو الفائدة في كل يوم وحين، كما تعودوا على التمييز بين أخبار راديو الرباط الذي يتحدث كما لو أن شيئا لم يكن، وجل أخباره عن استقبالات المسيو فلان للمسيو فلان، وبين هذا المتكلم من تطوان بلسان الشلوح ليخبر قومه بعيوب النصارى وبالفتنة القائمة ضدهم في الدار البيضاء ومراكش وغيرها من المدن، وليقول أمورا كثيرة لو قال منها أحد شيئا قليلا في القبيلة لناله سخط القائد ولعنة الحاكم وتعذيب الجندرمية، ولأدخل سجن بولمهارز بمراكش، بعد قلع أظافره وإحراق عينيه بالضوء. هكذا كانت توصف معاملة الحكام للمتجاسرين عليهم.

كان جو المجلس عند سماع أغاني الروايس جو حبور مشحون بالانبهار والمفاجأة والتتبع والتعليق الماكر والانخراط، كأن معاني الجالسين وحكمتهم وورنقهم العاطفي الذي اعتادوا أن يعيشوه بأشخاصهم وذويهم في حلبات جوقات القرى في أيام من العام معدودة قد صار ينبع لهم كل ليل من هذا البوق المخبأ بخيوط تشبه خيوط الحرير، من بطن هذا الصندوق الذي لم يطلع أحد على سره، وإنما هو صندوق بجانبه صندوق أصغر منه هو المسمى بالحجرة (البطارية)، يقال إن الراديو يأكل منه ويشرب، وينبغي تجديده له كما يجدد العلف للبهائم. وقد علق عليها إمام المسجد يوما فقال: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الماء».

بعد وقت سماع الطرب يأتي وقت سماع الأخبار، فيلف الجمع صمت ويهيمن عليه خوف وترقب، الخوف من الاتهام بالمشاركة في ما لا يجوز من هذه الأمور التي لا يريدها القائد والحاكم. عندما ينتهي غناء المطرب ليبدأ صوت المخبر الجسور،

تسبقه رنات الموسيقى كأنها تعلن الحرب، تثير في الجلد قشعريرة وتسبب انتصاب شعر الرأس، وتتوالى الأخبار تلو الأخبار، وبمجرد انتهائها يتفرق الجمع وكأنهم ندموا على ما فعلوا، بلا ترديد ولا تعليق.

يقع في بعض الأحيان أن يكون الولد قد استسلم للنوم قبل وقت الأخبار في العاشرة ليلا، فيتنحى به الوالد جانبا إلى أن يوقظه بصعوبة للانصراف، ويقع في أحيان أخرى أن يلحظ الوالد على ولده تباشير النوم فيطلب من أحد الأقارب من الشبان أن يرافقه حتى يصل إلى الدار. وحدث ذات ليلة أن هذا المرافق، وهو أخ أصغر لصاحب الراديو، قد مر بالولد، في الطريق، على معصرة الزيت ليكلم شخصا هناك، والزيت يعصر في موسمه، فإذا الولد، وهو بين اليقظة والنوم، يسقط في مطمورة تقع فوهتها بعد عتبة الباب، وسلم الله في ذلك السقوط لأن المطمورة كانت شبه مليئة بحبوب الزيتون، وبادروا في سرعة البرق إلى انتشاله قبل أن يغيس، وصار هم الجميع ألا يصل خبر ما وقع إلى الوالد وأن تتستَّر الوالدة على الملابس التي تلوثت بأثر ثمرة الزيتون.

مرت أسابيع على وصول الراديو إلى القرية ولم يخرج خبره إلى ما وراء حدودها، وحدث في يوم أحد أن انتشل الوالد ولده من باب الكتّاب وقت الضحى وذهب به إلى دار صاحب أحد المتاجر الثلاثة في القرية، واسمه السي الحسن أو عبد الله، من أسرة أيت أوكَادير. كانت بينه وبين الوالد صداقة حميمية، إذ هو من أقرانه، ولعل الوالد كان يغذي بتلك المخالطة حنينه إلى شبابه، حيث كان الأسبق والأنجح في التجارة، يقرض الناس ويشتري لهم المواشي للتربية، ويسالم في المحاصيل والثمرات، ويتخذ له حانوتا لمواد

الغذاء وغيرها. ولعل انقطاعه عن التجارة واقتصاره على الزراعة كان بعد تحمل مسؤولية دار الشيخ الحسين وإرثه، أي بعد تزوج الوالدة ووفاة الشيخ المذكور.

كان متجر السي الحسن عند باب المسجد الأكبر الذي به الكتَّاب، يجلس عنده الوالد وهو ينتظر خروج ولده في كثير من الأيام، وربما وجد الولد المنصرف والده وقد اشترى له من هذا المتجر حلوى أو لعبة، ولا سيما في مناسبة كعاشوراء، فصاحب هذا الحانوت هو أول من أتى للأطفال بلعب على شكل سيارات ملونة جميلة، وأول من حمل إليهم المسدسات التي تفجر الكبريت المسمى بالفرشي، لأن حبة البارود التي تنفجر تكون وسط قطعة من الفلين. وكان الوالد نهى التاجر عن ترويج هذه اللعبة لأنه اشتراها للولد فوقع له مرة أن ضغط على باب الدار بآلة التفجير لتدخل الفرشية في الفوهة وهي عند أذنه، ولم يتفطن إلى أنه كان في نفس الوقت يضغط على الزناد، فوقع الانفجار على أذنه وسبب له في تعطل سمعه من تلك الأذن عدة أسابيع.

وإذا لم يشتر الوالد للولد شيئا من ذلك فأقل ما يفعله أن يطلب من صاحب الحانوت ورقة تاريخ ذلك النهار، يسلخها من اليومية ليقرأ فيها على ولده الحكمة التي في خلف الورقة، وكان الولد كثير الولع بتلك المفاجأة، فالعبارات الحكمية المكتوبة على ظهر ورقات اليومية هي جزء من ثقافته البسيطة الأولى، ومن جملة تلك الأقوال التي ظل يذكرها: «من نقل إليك نقل عنك».

كان للوالد عند صاحب الحانوت سجل حساب شهري يجمع فيه مقدار مشترياته، ومعظمها يتعلق بمواد غذاء وحاجات منزلية كالسكر والشاي والقهوة وحجر الكاربون المستضاء به والشمع

والشعرية والأرز والصابون، فمثل هذه الحاجيات يرسل إليها يوميا، وقل أن يكون في الدار منها مخزون لعدة أيام. فإذا أراد صاحب الحانوت الذهاب للتبضع بالجملة من المدينة جمع حساب الدين الذي له على الوالد وطالبه بأدائه.

من عادة صاحب هذا الحانوت أن يدعو إمام المسجد ليأكل عنده عشوية بعد العصر، ولاسيما في أيام مشارطة الطالب السي عابد الحاحي. وطعام هذه العشوية عبارة عن شعرية أو أرز أو رغائف بالسمن، ومع كل منها شاي بالنعناع. فحانوت هذا التاجر أقرب بناء إلى المسجد من جهة القرية، وداره أقرب الدور إلى المسجد، أضيف بناؤها إلى الحصن التاريخي الذي في الطرف الأعلى للقرية، وهو لذلك لم يتأخر يوما عن صلاة جماعة وراء الإمام، ما لم يكن مسافرا.

في تلك المرة التي اصطحب فيها الوالد ولده إلى دار التاجر المذكور وجدا عنده مفاجأتين، أولاهما أن الرجل التاجر قد اقتنى هو أيضا آلة الراديوا سرا، ودون أن يعلم بذلك أحد، وضع لها السلك الهوائي الذي يجلب الصوت فوق سطح داخلي لا يُرى من الخارج، وقد وجد الوالد أن صاحبه التاجر يعرف كيف يلتقط الأخبار من أصوات أخرى مثل «صوت العرب». ولكنه توسل إليه ألا يذكر لأحد شيئا من ذلك، فقال له الوالد: «وهل نحن أطفال؟»، فقال التاجر: «وهذا الرجل الصغير! (يقصد الولد) ألن يقول شيئا!؟».

أما المفاجأة الثانية فهي وجود رجل كان جالسا في غرفة أخرى هي التي وضعت فيها مائدة الأكل، وليست تلك التي فيها الراديو. كان هذا الرجل طالبا ذا منظر مهيب بلحية بيضاء طويلة، جاء من قرية تسمى أكَني، جاء إلى التاجر وطلب منه أن يرتب له لقاء مع

الوالد، والغرض منه إقناع الوالد بدفع التهمة المروجة ضد هذا الرجل الذي أشاعوا عنه أنه كان يعمل ما يسمى بالتجليب، قالوا إنه يقوم بتلاوة تعزيمات من أسماء جن أو رواحين أو غير ذلك، تمكنه من جلب أموال كل من يتعامل معهم في الأسواق، فيترتب عنها أن أولئك المتعاملين يفتقدون أموالا من جيوبهم أو من صررهم، أي أنها تكون قد ذهبت إلى جيب صاحب الخلقطيرة. شاع ذلك عنه وصار الناس يشيرون إليه بتلك التهمة ويتجنبون لقاءه، حتى اضطر إلى مقاطعة الأسواق. وكان من جملة قرائن هذا الاتهام كون الطالب ملازما لشخص هو أبرز من في قريته، يركب بغلة فارهة، ويسلك سلوك النِّدية للشيخ، فيقال إن الطالب «يخدم له»، وهو السبب في يسره، بينما يقول آخرون إن يسر الرجل يرجع إلى أنه كان من المكلفين بتوزيع البضائع المحصصة أثناء الحرب العالمية وبعدها.

أخذ الرجل يحلف أمام الوالد بالأيمان المغلظة أنه غير متلبس بشيء مما ينسب إليه، ويقول للوالد: «كل ما يهمنا هو ألا يكون في قلبك أنت شيء من هذا، والآخرون أدعوهم إلى عدل الله ليحاسبهم، وأنت لا أستطيع أن أدخلك في زمرتهم بما أكنُّ لك من الأخوة والمحبة، وإذا سمعك الناس تقول عني الخير فسيقتنعون ويصرفون عني أراجيفهم». كان يكرر ذلك حتى أجهش بالبكاء.

فالسيد الحسن أو عبلاً الذي استضاف الوالد والولد في داره، هو كما سبق من عائلة أيت أُوكادير، وأكادير هو القلعة التاريخية التي منها خرجت أنساب عدد من العائلات الكبرى في القرية. وكانت تسكن القلعة في ذلك الوقت عائلة كبرى من ثلاثة إخوة وأولادهم وأسر أولادهم، وكذا أولاد المتوفين من إخوة أصحاب الثلاثة المذكورين. ومما يذكر الولد بعظم حجم هذه العائلة عدد المواليد

الذين يزدادون عندهم كل عام، ولذلك فإن نساء دار الولد يحملن هدايا مرة واحدة كل عام لهؤلاء المواليد من الصبيان الذكور والإناث، يشتري الوالد تلك الهدايا من سوق القبيلة أو من المدينة، وهي عبارة عن ألبسة للصبيان، فتخرج نساء دار الولد من أقصى القرية في غربها إلى القلعة في أقصى شمالها، والركب فيه الأمهات ومعهن الخادمات ، والهدية لكل مولود جديد تسمى في اللغة المحلية «أفشّاد»، ولا تحمل إلا ليلا. تكون الضيافة بتقديم طعام العشاء، ويمر اللقاء بين ربات خدر محتجبات من أسرتين كبيرتين في جو من المرحمة، يعرف بعضهن البعض، ولا يلتقين إلا في مثل هذه المناسبات. وخروج المحتجبات في ذلك العهد، يكون بارتداء الحائك، وهو الثوب المحربل السميك، وقت البرد، أو المنسوج على سدى خفيف، وقت الحر، يغطي سائر الجسم ويؤخذ بشوكتين جميلتين من الفضة من الصنف المسمى «تيزرزا»، على جهتي أعلى الصدر، وتأخذ المرأة بيدها طرفه في الجهة التي تغطي الوجه لتكوين فتحة تمكنها من الرؤية.

بعد تمام عشاء الضيافة، وهو عشاء جماعي، تلتقي فيه كل نساء أكَادير، وإن استقلت كوانينهن، تودع المضيفات النساء المهنآت ويرجع هؤلاء محملات بأواني فيها مثل الأكل الذي قُدم لهن، وتحمل الخادمات الأواني على رؤوسهن، وهذا الطعام المحمول خاص بمن بقي في الدار من الصغار والكبار، ويسمى هذا الطعام الذي يُرجع به «تارزيفت نوفشاد».

في منتصف العام الدراسي جاء معلم جديد اسمه بويغنجاون، ولعله منسوب إلى جد كان يصنع المغارف من خشب. وهو من الذين تخرجوا من مدرسة أمزميز، كانت له دراجة نارية ضخمة يسافر بها

إلى بلده الذي لا يبعد عن المدرسة إلا بأربعين كلمترا، وقد كان ماهرا غير عصبي، وإن كان أهل البلد يعيبون عليه أنه يشرب الدخان.

كان عليه أن يدرس في غرفة فصل واحدة ثلاثة مستويات هي أقصى مستوى بلغ إليه التلاميذ بعد أربع سنوات من عمر المدرسة، لا لبلادة الأولاد، ولكن لإرادة الحاكمين، ولعدم توفر المكان. فعدد التلاميذ الآن أقل من عددهم يوم انطلاق المدرسة في حماس، ينسحب عدد منهم كل عام بسبب المشقة في قطع المسافة البعيدة، ويحل محل بعضهم أبناء القرية التي فيها المدرسة لقربهم. وكان الناس لا يرون فائدة لهذا التعليم، بل يرون أن المدرسة تفوت على الأولاد تعلم رعي الغنم والبقر وتعلم الأخذ بمقبض المحراث.

في مدة إقامة هذا المعلم، تسارعت الأحداث واقترب موعد رجوع السلطان، وحصول المغرب على الاستقلال. ففي يوم من أيام عيد الأضحى، كان الاحتفال حول جوقة الطرب على العادة، تجمع فيه الرجال والنساء، والناس يستمتعون بها في ليلة تمام البدر، وكل أهل القرية حضور حول مكان دراس الحبوب (أنرار)، تحت دار الوالد، فإذا شخص من الجمع ينبري ويوجه ذراعه ليلفت نظر الحاضرين إلى القمر ويقول: «انظروا إلى القمر، انظروا إلى الفارس الذي يتوسطه! هذا وذاك، إنه هو! انظروا إلى رأس الفرس! والفارس في جلباب أبيض بقلنسوة، انظروا إلى اللجام!» قال بعضهم: «إنه يجري، إنه السلطان، سمعنا ذلك في السوق وتشككنا فيه، إنه صحيح قول من قال : السلطان المنفي يطل علينا من القمر، سيعود! سيعود فجأة!» ساد صمت، ثم انفضوا وكأنما استيقظوا من حلم عجيب، وتوزعتهم الشعاب، ودخل كل إلى داره وأغلق الباب دونه.

زال الدهش شيئا فشيئا وتكاثرت الإشاعات والأخبار، وصعب على الحكام متابعة كثرة الأخبار التي كانت تصل إليهم من قبيل : إن فلانا قال شيئا لا يجوز أن يقال. ولكن الحكام في هذه الجهة، وكأنهم أرادوا إشعار الناس بأنهم ما يزالون يُحكمون قبضتهم على الأمور، ألقوا القبض على رجل مجهول الهوية، وجدوه مارا في دوار من القبيلة في يوم سابع العيد، وذهبوا به إلى مكتب الحاكم، وقيل إنهم عذبوه حتى مات.

وفي يوم مطير من أيام فبراير من عام خمسو وخمسين، كان الثلج يسقط وقت خروج التلاميذ من المدرسة، وفي الدرجات التي ينزل منها التلاميذ من ساحة المدرسة إلى الطريق المعبد، سقط الولد إلى الأرض ولم تعد ركبتاه تطاوعانه، وتجمع حوله الأولاد، وتصدى معلم العربية لحمله إلى داره، وكلف الأولاد من قريته بإخبار والده. كانت مبادرة قدم من خلالها المعلم بعض اعتذاره عن الأذى الذي تسببت فيه وشايته للشيخ عمر وكافة عائلة أيت واحمان. اعتنى بالولد ووفر له التدفئة، وحضَّرت له زوجته الطيبة حريرة ببعض الأعشاب المروحة على التنفس، وحملوه على شم الثوم وأكل بيضة نصف مطبوخة، بل عمد المعلم إلى قراءة بعض الأدعية والآيات القرآنية وهو واضع يده على رأس الولد قبل النوم.

وفي الغد جاء معاون الوالد على البغلة وعاد بالولد إلى الدار والثلج ما زال يتساقط.

علم كل من في الدار بما وقع للولد إلا والدته، فقد قيل لها عن غيابه عذر آخر. ولما استقبل الوالد ولده بتلهف، والتف حوله كل من في الدار يضمون ويقبلون، نظرت إليهم الوالدة بشزر وأجهشت بالبكاء ووصفتهم بالغدر والمؤامرة، أخذت الولد من يده منتزعة إياه من جنب الوالد ودخلت به إلى غرفتها الخاصة وأغلقت دونهم الباب

وبدأت تضمه إليها وتسأله : «ماذا وقع لك؟ احك لي بالتفصيل! هل أكلت شيئا من عند أحد؟ هل تقيأت؟». وكانت تقول : «أنا لا أصدق أن ركبتيك قد فشلتا بسبب البرد والمشي في الثلج، أنا أعرف ما دهاكَ ! لقد أعطوك شيئا خبيثا لتأكله، دعوتهم إلى الله. هذه المرة ستفعل ما آمرك به، لقد خسَّرك (أفسدك) والدك وأنا أتعذب نتيجة سيرته، وهو لا يستطيع أن يحميك من الشر». كانت تقول ذلك وهي تبكي، والولد مشدوه، لأنه قلما رآها في مثل تلك الحالة من الفورة والتأثر. خرجت وسدت الباب على الولد، وبعض من في الدار من النساء يصبرنها ويحاولن التهوين عليها وهي لا تعيرهن اهتماما.

أرسلت الوالدة إلى صاحبة لها تسمى جامُّو نومادِيد، وهي المرأة التي تشاركها بعض أسرارها، وهي المختصة بها التي تعينها بالخصوص على غسل شعرها الطويل الكثيف، فطلبت منها أن تحضر لها الحليب والعشبة المسماة بالشيبة، حتى ترغم الولد على تناول محلولها لكي يتقيأ ويفرغ بطنه وأمعاءه، فقد تخيلت أن الأكل الذي أعدته له كالعادة ليتناوله غذاء في المدرسة، قد امتدت إليه يد شريرة وغيَّرته، بل إنها تجزم بأن ما دس فيه هو مسحوق بعر الفأر، وأن هذا المسحوق مدمر لدم الجسم والعقل.

ولما تذكرت أنها في اليوم السابق غضبت على الولد لأنه شاكس إحدى العجائز من ضيفات ضرتها، وأنها في ثورة غضبها كانت تدعو على الولد بما يكره، ندمت وأجهشت بالبكاء من جديد. كان الولد يكره هؤلاء العجائز المتملقات اللائي لا تعجبه صفرة وجوههن ولا ترهل صدورهن، فيأتي أمامهن ويعوج وجهه لتقبيحهن.

وصلت صاحبة الأم وهيأت المحلول وتوسلت للوالدة أن تتجنب في المستقبل الدعوة في الغضب بالشر على الولد، لأن

غضبها ربما كان أشد نفاذاً في الإضرار به من حسد كل الحاسدات. لكن الولد رفض تناول المحلول، وصادف أن دخل الوالد في تلك اللحظة حاملا تميمة صنعها إمام المسجد، يتعين على الولد شرب ماء تتحلل فيه تلك التميمة، وهي في نظره أنفع وسيلة لتنظيف الجسم من جميع السموم.

أذعنت الأم وقبلت أن يبيت الولد مع والده تحت خيدوسه (سلهامه الصوفي) على العادة في وقت البرد، لعله يتولى إقناعه بشرب ما ينظف أحشاءه من طعام مدمر مدسوس، حسب تصور الوالدة على ما تعتقده ولا تشك فيه.

كانت تلك حيلة الوالد لكي يهدئ من روع الوالدة وينقذ الولد من براثن حرصها البليغ، لأنه في الحقيقة لم يأت بتميمة، إذ هو قليل التصديق بتلك الأعمال التي تغلب عليها الشعوذة والتدجيل.

لكن الوالدة أصرت على أن ترى القيء، لأن لون القيءالأزرق أو الأسود سيصدقها في ما ذهبت إليه من كون الولد قد تعرض للتسميم، وأنه قد تخلص مما دخل إلى بطنه، غير أن الوالد لم يقبل منها سوى إحراق بعض البخور.

وفي الغد ظهر على الوالدة حال من قضى الليل في البكاء ولم يغمض جفنا للنوم، لكن سرها أن ترى الولد وهو ما يزال يغط في النوم وقد علت الشمس أفق شروقها بما يزيد على قامتين، ولكنها أحست بتوتر الجو من جراء ما راج وصدر منها مغلوبة من اتهامها الغير في الدار بتسميم الولد. ولكي تتجنب انفجارا في علاقتها مع ضرتها التي قد تحس وكأنها المتهمة تحت تأثير مبالغة هذه المرأة في العناية بولدها دون سائر الناس، فقد توسلت للوالد أن يرسل الولد لعدة أيام إلى أخواله، أي إلى دار والديها في قبيلة كيك، لأن جده

من أمه يجمع بين العلم بالرقى الناجعة وبين معرفة وصفات طبية كالتي يحرص على أن يزود بها الأم لكي تعالج بها صفرة بشرة الولد.

تردد الوالد في قبول طلبها لأن ذلك سيترتب عنه غياب الولد عن المدرسة، لكنه وقد رأى مدى هيجان روحها على إثر هذه الواقعة، ولكي يصرفها عن وهمها بوجود من سمم الولد في الدار، تنازل وقبل التماسها وعجّل بإرسال الولد، وهو يعلم أنه لن يتعثر في الدراسة بسبب غيابه.

وجد الولد عند أخواله جوا مخالفا لما تركه في قريته، فالناس هناك يعدون الأيام الباقية للنصارى في هذا البلد، وهم يعيشون على أخبار تصلهم من أهلهم المهاجرين إلى مختلف المدن، ولا سيما الدار البيضاء، أخبار حول العمليات المدبرة ضد النصارى، وحول بطولة الوطنيين وصمود المسجونين، وغير ذلك.

وبعد شهر رجع الولد من عند جده لأمه في حال أحسن، والتحق من جديد بالمدرسة. وبعد أسابيع أتى تجار ويركَان، أصحاب الدكاكين، بصور السلطان محمد بن يوسف يبيعونها، وبرايات المغرب على الورق. وتراخى الجو في المدرسة وكأنها جزء من نظام يشرف على نهايته. كانت صور السلطان المعروضة للبيع نصفية، يظهر فيها صدر السلطان ووجهه محاطا بقلنسوة الجلباب الأبيض، ووسطه وجه وضاء بعينين ثاقبتين وبعض شعيرات لحية سوداء على الذقن.

استولى على الناس جو من الحماس الممزوج بالإثارة والتشكك، ما بين الإقدام على الانتفاض وتحدي كل شيء، وبين الخوف من انقلاب الأمور وتعرض المتجرئين للانتقام. لم يعد القائد والحاكم يقيمان جلسة الأحكام يوم السوق بما كان عليه الحال من

الانتظام، ولم تعد سيارتهما تتوقف للسؤال عن الأحوال وإعطاء الأوامر والتعليمات، بل حدث أن ابن عم الوالد، وهو المتولي للمشيخة بالنيابة، قد خاطب رجلا من القرية بغلظة، فرد عليه المخاطَب بغلظة أقل منها، ولكنها غير معهودة. فقد كان مثل هذا الشخص إذا أحس بضيم أو إهانة لا يزيد على أن يقول ما يفيد تسليم الأمر لله، وأن يقول العبرة المألوفة «نحن بالله وبالشرع»، تعبيرا عن أنه تعرض للظلم.

في منتصف نهار من بداية الصيف رأى الناس طوابير من سيارات العسكر من النصارى تصل إلى القرية قادمة من مراكش وتنتشر في سفحي الجبل، وفيها سيارات تشبه سيارات الجندرمية تخرج منها أسلاك عالية مقوسة، قيل إنها تستعمل للكلام في التلفون بدون أخشاب، وسيارات كبيرة تحمل الجنود، وكل منها تجر صندوقا يخرج منه البخار، وقال الناس إنها طناجير يطبخ فيها الطعام. وبعد الاستقرار بين الأشجار، خرج الجنود صفوفا وتوجهوا إلى عيون المياه التي فوق القرية ليملأوا قربا من المعدن، تعلقوها كما يتعلق أهل القرية جراباتهم بالمجاديل، وتعجب الناس لأن أولئك الجنود ذهبوا قاصدين إلى عيون الماء التي في أعلى القرية كأنهم عرفوا مواقعها وألفوا الاستقاء منها، وكان الأطفال مشدوهين أمام منظر أولئك الجنود الذين يبتسمون لهم. وفي الليل بدأ أولئك العساكر يطلقون الرصاص والمدافع تسبقها شهب تضيء الغابة وتظهر تحتها عربات الجنود وأسرابهم، وقد جاء إلى دار الوالد شخص من القرية كان شارك في الحرب ببلاد النصارى وصار يشرح بكثير من الحماس ما يقع، ويقول إنها عمارات خاوية (ذخيرة وهمية)، ولكنهم يجربون بإطلاقها كيف يكون القتال الحقيقي مع العدو. وفي الصباح

كان أولئك العساكر قد انسحبوا وخلفوا من ورائهم آثار مأكولاتهم، وبعضها علب وملفوفات لم تفتح، لكن الأولاد تخوفوا منها وتركوها.

أقام الفقراء التجانيون اجتماعهم السنوي المعروف بالمولودية، وطلبوا من الوالد أن يبيع لهم ثورا بنصف ثمنه، فذبحوه وعكفوا ثلاثة أيام على أذكار الوظيفة، والتزرد، وكان الطالب إمام المسجد وهو منهم، يعظهم بفوائد من الدين، وقد ذكر الوالد أن أحدهم سأل الطالب عما يجري في المدن وتصل أخباره إلى الجبل، وهل يوجد ذكره في القرآن فقال الطالب نعم : «إذا جاء نصر الله والفتح ....» فقال الرجل : «وما معنى أفواجا». فسكت ...ولكنه قال: «نحن ما أضر خاطرنا إلا الذين لم يسمعوا لنا عندما نصحناهم وضيعوا أولادهم في مدرسة النصارى، لأن نصر الله إنما هو نصر المسجد على هذه الشكويله».

حكى الوالد لأهل داره ما تعمده الإمام من الغمز، وقال : «سأحول أحمد إلى مدرسة في مراكش». كان ذلك التعليق منه إصرارا على استنكار غمز إمام المسجد.

شاع عند الناس أن «الوطن» انتصروا وأن السلطان سيعود وأن النصارى (إرموين) سيخرجون من البلد. وكم سمع الولد شيوخا في قريته في تلك المدة بالذات يتخوفون مما عاشوا فيه قبل خمسين عاما، أي قبل مجيء النصارى، يقصدون عدوان الإخوان في القبائل من أهل البلد على إخوانهم، ولكن عددا منهم، هم أصغر سنا، كانوا يقولون إن عهد القبائل يأكل بعضها بعضا لن يعود، وسمع الولد أحد المتجرئين واسمه حسُّو يقول : «تلك الفتنة بين القبائل إنما كان يذكيها القواد والشيوخ بسبب أطماعهم، أما الآن فإن الوطن

سيضعون كل القواد الظَّلَمة في خناشي القِنَّب ويرمون بهم من فوق الشواهق حتى تندثر سلالتهم الممقوتة».

تزايد عدد الذين نصبوا فوق سطوح منازلهم ذلك السلك الذي تدخل منه الأخبار إلى الراديوهات، وصاروا يقتنونها دون استخفاء أو تهيب، وقد رهنوا في شرائها غلة عام أو عامين من نتاج الملح أو الزيتون. وغطت الحكايات المنقولة عنها كل الحكايات، وفي بعض الأحيان يضيع لأحد أصحاب الراديوهات مكان التقاط أصوات اللغة التي يعرفها فيتيه في دوامة الألسن والصفارات والخرخشات فتذهب منه متعة ليلة أو ليال. ونسجت النكت حول استعمال الراديو حتى قيل إن بعضهم سمعوا في الراديو أغنية تقول : «أمان، أمان!» فصبوا عليه الماء وأفسدوه. لأن «أمان» بلغتهم هي الماء. ظنوه يستغيث من العطش، ومن عادتهم إغاثة الملهوف. ثم إن مشكلة كل من اشترى الراديو صارت هي تجمع الجيران وما يقتضيه ذلك من حسن الضيافة دون تأفف أو تضايق.

وبعد مرور الصيف لم يعد كثير من التلاميذ إلى المدرسة، لأن أحدا لم يعد يعرف موقعها من الإعراب. وجاء اليوم المنتظر، يوم رجوع السلطان من المنفى (16 نونبر 1955). احتفل أهل القرية وتجمع كبارهم وصغارهم من الرجال في مكان له مغزى، ذهبوا إليه تلقائيا، إنه باب دار الشيخ الذي وقع السطو على مشيخته قبل وفاته، وهي تقع على جانب الطريق المعبَّد الذاهب إلى المدينة. ولم يسبق لهم أن احتفلوا في مثل هذا الموضع، نقلوا الحفل من مكانه المعتاد في وسط القرية (أسايس) إلى جانب الطريق، فكأنهم بشعورهم انتقلوا من عهد الباجية إلى عهد المدينة. فمن هذه الطريق كانت تأتيهم كل أنواع الغطرسات التي تصرفت عليهم، فكأنهم يريدون

اليوم أن يراهم، وهم يحتفلون جهارا، من كانوا يتخوفون منهم بالأمس، أن يروهم جالسين على حصائر وزرابي، وأمامهم صواني الشاي، وقد أتى كل من يملك مذياعا بمذياعه، ونصب فوقه سلكا مأخوذا بعودين أو قصبتين، واجتمع عليه هو ومن يواليه من قرابته وجيرانه، ومن كل تلك المذياعات يتكلم شخص واحد من الرباط، يصف تلك الطائرة التي أقلت السلطان عند رجوعه من المنفى حتى حطت على المطار، وتعجب من فهم شيئا مما يقوله المتكلم وهو يصف نزول السلطان، يصف جلبابه، وطربوشه الذي يسمى بطربوش الوطن. ثم سمعوا السلطان يخطب ويقول كلمات لم يسبق لأحد أن سمعها في هذا الجبل، حتى قال : «شعبي الوفي! لقد جاء عهد الاستقلال».

لم يكونوا يفهمون إلا قليلا من الكلمات التي استمعوا إليها، ولكنهم في حماسهم المألوف يلغطون بطريقتهم المعهودة في التجمعات، كل واحد يقول شيئا وهو يعلق بصوت عال ولا يهمه أن يسمعه الآخر. لم تمر في ذلك اليوم سيارة في أي اتجاه إلا سيارة شخص من أصل إيطالي كان له معمل لصنع الجبس في القرية، كان قد جاء قبل أعوام ودق باب الشيخ عمر وطلب منه أرضا يبني فيها معمله لصنع الجبس الذي يمكن اقتلاع حجره من الجبل المجاور، فأعطاه الشيخ أرضا قرب داره، وأنشأ المعمل، وصار يبيع الجبس بمراكش. ومن مخالطته مع الناس صارت له جرأة على دخول دار الشيخ وأكل طعامه هو وأولاده، من الكبار والصغار. ولعله تعمد في ذلك اليوم أن يجيء ويهنيء الناس في القرية أثناء ذلك الاحتفال وبينهم عماله، وكانوا يعانقونه لأنه لا يمثل الحاكم ولا الجندرمي ولا حارس الغابة.

توالت الحفلات في القرية العليا، في كل ليلة غناء وطرب وجرأة غير معهودة، كانت تصدر ممن يُعتبرون من الأصاغر على من كانوا يعتبرون من الأكابر، فقد فهم الناس تلقائيا أن الاستقلال يتيح فرصة هذه الجرأة. وقد قام محمد، الولد الوصي على إخوته من أولاد الفقيد الشيخ عمر، بصنع تمثيليات تذكر فشل الحكام وحلفاءهم من الخونة، وفيها شيء من التشفي، وأشرك الولد، ابن خاله، في تشخيص ذلك التمثيل. وقال الممثلون كلاما في الحكام المحليين أيضا. سمعت بذلك إحدى عمات الولد، وكانت ممن يذكر انقلابات الأيام الخالية، فأرسلت إلى أخيها، الوالد، تنصحه بأن ينهر ولده عن مثل تلك الجرأة، لأن الدهر قُلَّب.

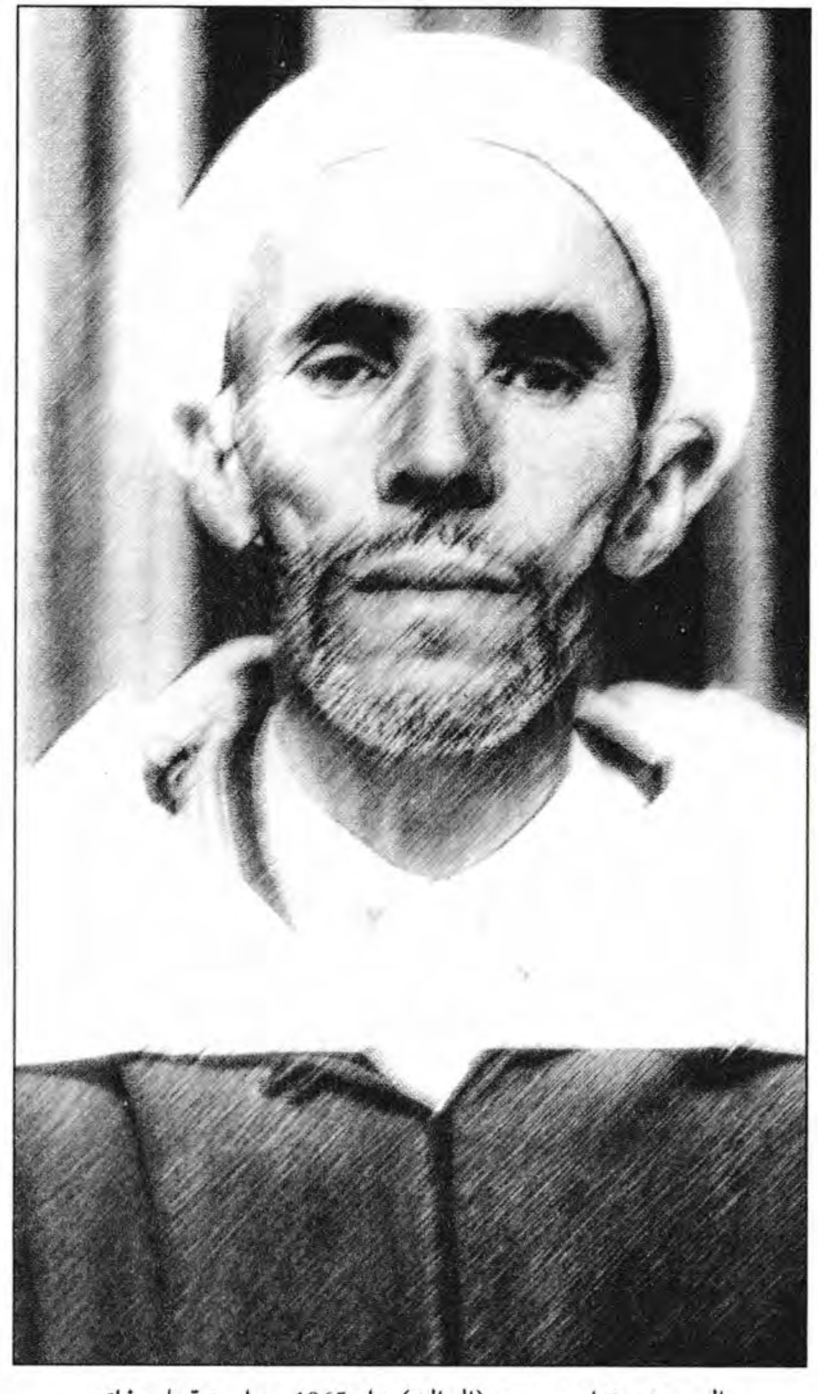
كان من نتيجة شراء الراديوهات أن تعرف الشيخ المنتصب على صاحب متجر في مراكش، يتجر في هذه البضاعة، وقد صار هذا التاجر العروبي (ساكن المدينة الذي لا يعرف لغة البربر، وكانوا يسمونه بالفعل: أعْراب) يتردد على هؤلاء الزبناء في قريتهم، فما لبث أن خطب للزواج بنت السي علي، الرجل الحافظ للقرآن في عائلة أيت واحمان.

أقيم العرس بعد أسبوعين من رجوع السلطان، وحُملت العروس في سيارة إلى مراكش. كانت أول عروس من القرية لا تحمل على بغلة، بل حُملت على السيارة، بلا بهجة ولا رونق، وكأنها سُرقت من قومها الذين حرموا من مرافقتها على ما تقتضيه العوائد. وذهب معها أقارب يعدون على رؤوس الأصابع، لأن أهل العريس اشترطوا ذلك، وكانت تلك فضيحة في أعين الناس. وكان من المرافقين الوالد بحكم القرابة. كان ذلك السفر هو الفرصة التي اغتنمها لكي ينقل الولد من مدرسة ويركَان إلى مدرسة في مراكش.

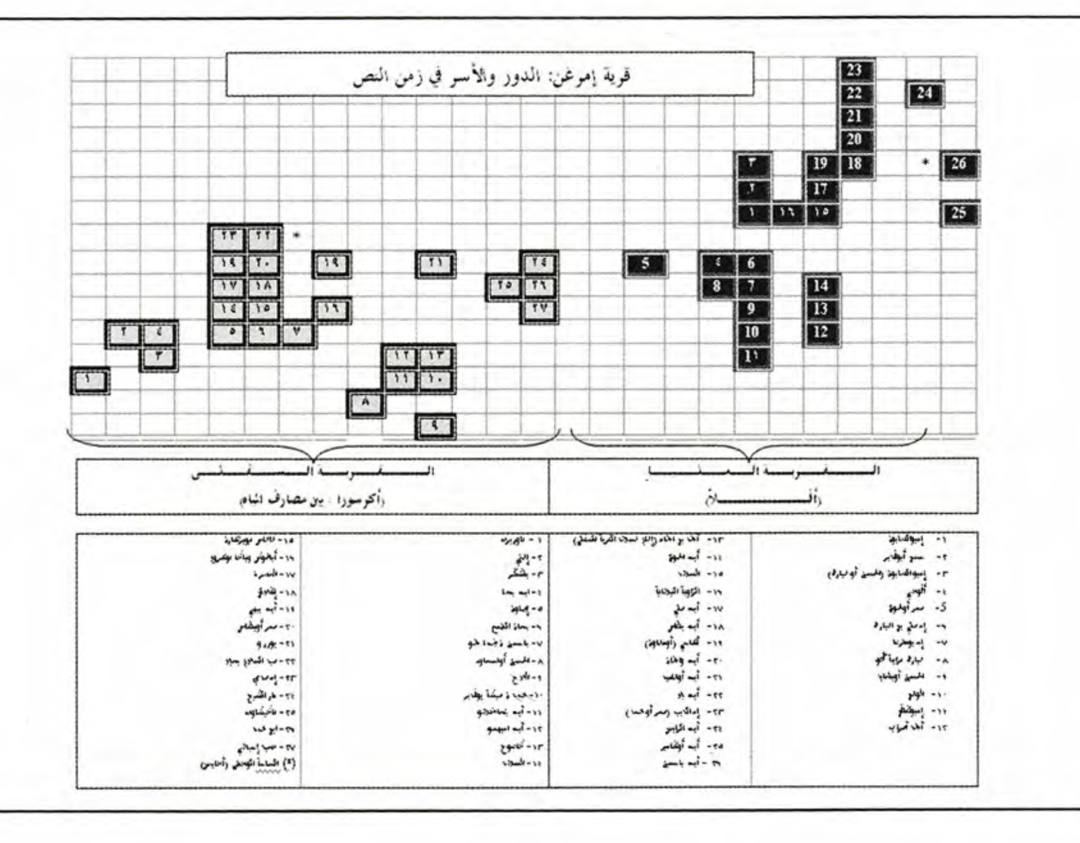
أوصى الوالد بأن يأتي اثنان من معاونيه بولده للحاق به في المدينة ، وقد نفذا ما أمرهما به من تهييء ثلاثة أكياس كبرى من الذرة لكي تباع في رحبة زرع مراكش، ويتحصل منها ما يعين على نفقة ذلك السفر. هيأ المعاونان الذرة وأرادا السفر إلى مراكش ومعهما الولد، وقضوا ثلاثة أيام بجانب طريق السيارات قبل أن تتوقف شاحنة من ذوات الحامل الحديدي المتحرك (benne)، فحملا عليها أكياس الذرة، وركبا، وركب معهما الولد في الفضاء الأعلى العاري المخصص لشحن البضائع، وانطلقت السيارة في اتجاه مدينة مراكش. وكان رشيش مطر خفيف يتساقط عليهم، ولم ينقص التبلل بالمطر وملافحة الريح والبرد من فرحتهم بذلك السفر شيئا. وبوصول الولد إلى المدينة انتهت الحلقة الأولى من ذكريات صباه الأول، لتبدأ حلقة جديدة، في بيئة جديدة.

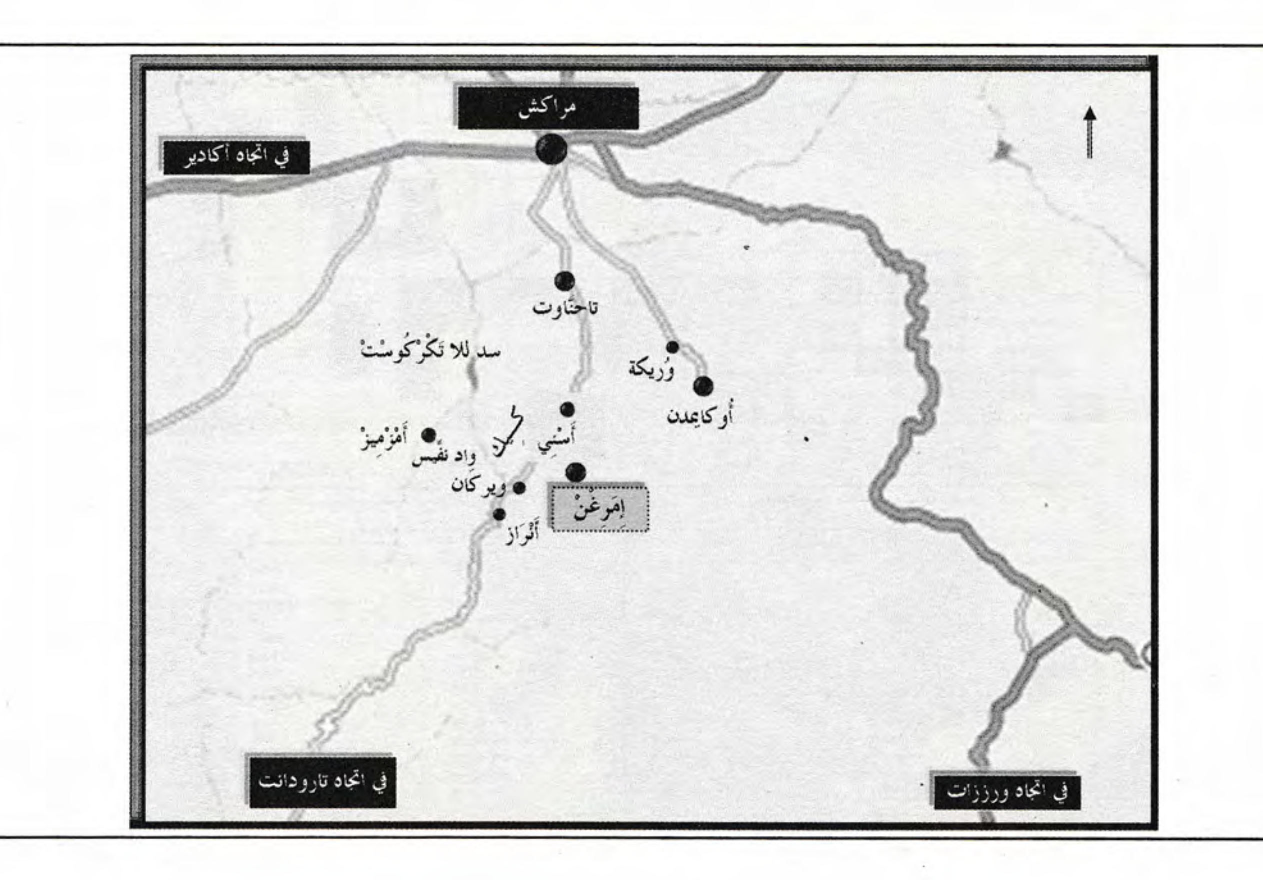
مآل فضاء الذكريات

قليل من سكان إِمَرِغْنْ يتذكرون بشكل منسجم، حين نشر هذه الذكريات، شيئا من وقائع تلك الأيام، إلا ما كان من بعض الأحداث المعزولة. أما القرية فقد تبدل فيها الكثير، فالدار التي ولد فيها الولد وسكنها (تاوريرت) قد خرب معظمها وتم هجرها، ودار أيت واحمان الكبرى قد تهدمت، ومعالم القرية قد تشوهت بما أُقحم في كل ركن منها من بناء دور مهاجرين إليها من الجبل، والساحتان الأساسيتان حيث كانت تدور حفلات الأعياد قد انطمستا. والمسجد العتيق قد تم تعويضه بمسجد جديد، خوف أن يتهدم القديم على المصلين، وقد خبت جذوة الحماس الذي كان في هذا المسجد، إذ لم يبق فيه سوى قلة قليلة من متعلمي القرآن. وقد صارت في القرية مدرستان عصريتان، وتعدد فيها أشخاص ملكوا السيارات والدراجات النارية وأجهزة التلفاز الملتقطة للبرامج الفضائية. وسكن عدد من المالكين وسط مزارعهم، فتشتَّتت وحدة القرية، ودخلت غراسة الأشجار المثمرة الجديدة، وتراجعت زراعة الحبوب كثيرا، لأنها لا تتحمل التنافس مع الأجور التي يتلقاها العاملون في خدمات كالسياحة وغيرها. ومعظم الشباب صاروا ممن أطالوا شعور رؤوسهم وممن يلبسون الزي العصري، بينما كان كل من لبس مثل هذا اللباس منذ نصف قرن يشبهونه بلابس جلد المعزى ورأسها في فرجة العيد التنكرية، فالناس اليوم قد أبطلوا العجب من هذه الهيئة الجديدة ومن غيرها من كثير من السلوكات.

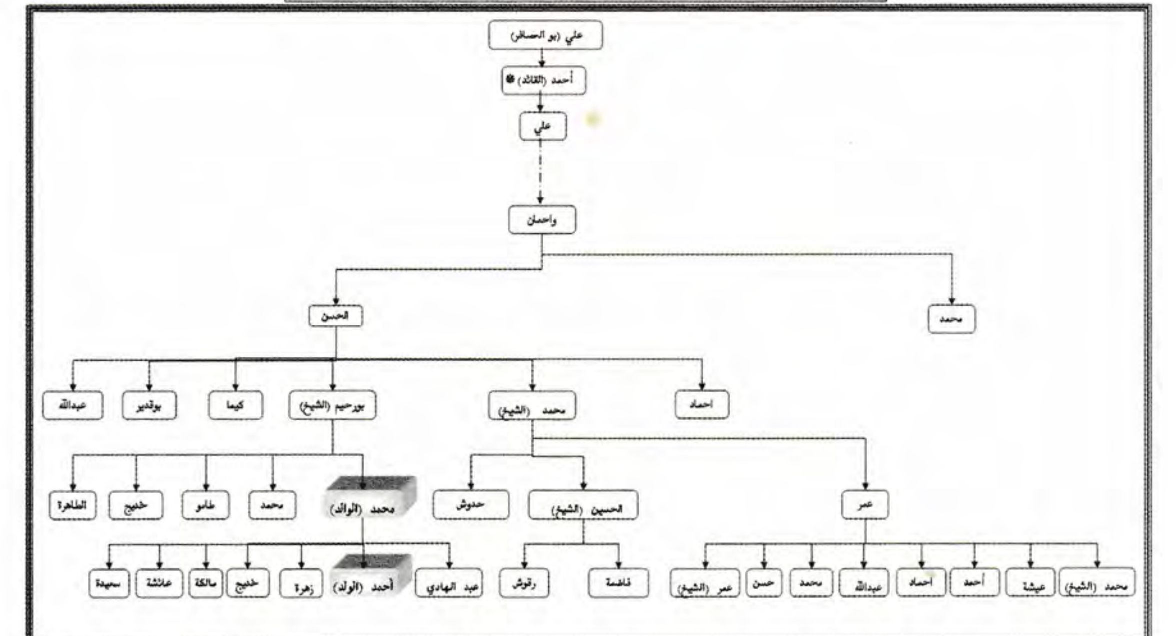


السي محمد اوبورحيم (الوالد) عام 1965 ، عامين قبل وفاته


قرية إمرغن: الدور والأسر في زمن النص
أكرسورا - بين مصارف الماء


مراكش
في اتجاه أكادير
تاحنَاوت
سد للا تَكَرْكُوسْتْ
وُريكة
أوكايمدن
أَسْنِي
أَمْزْمِيزْ
واد نفيس
وير كَان
إِمَرْغَنْ
أَنْرَازْ
في اتجاه تارودانت
في اتجاه ورززات

موقع الوالد والولد في شجرة نسب عائلة أيت واحمان



✻ ذكره التاسافتي الزرهوني في كتابه "رحلة الوافد"، تحقيق علي صدقي عازايكو، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة، ١٩٩٣، ص.٦٦، حيث ذكر أنه كان على قيد الحياة عام ١٧٠٠م. وعلى هذا الأساس فهناك نقص في هذا العمود بين واحمان وعلي.

المؤلفات

*** الدراسات:**

• المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر

*** التحقيقات:**

• التشوف، لابن الزيات (القرن الثاني عشر)

• دعامة اليقين في زعامة المتيقن، لأحمد بن أحمد العزفي

• مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال، لمحمد بن عبد الله الكيكي

*** الترجمات:**

• أفريقيا، لمارمول، 3 أجزاء

• النخبة السياسية المغربية في القرن التاسع عشر، لمصطفى الشابي

*** الروايات :**

• جارات أبي موسى

• شجيرة حناء وقمر

• السيل

• غريبة الحسين

«في هذا النص صورة للحياة في الشمال الغربي من الأطلس الكبير، حيث توجد قرية إِمَرِغْنْ، مسقط رأسي. والكلام يتناول وقائع علقت في ذهن الحاكي بسبب تتابعها في الزمن وتداعياتها، مع الحرص على سياق تلك الوقائع التي تبدأ من ذكر أصول العائلة وحياة الوالد، إلى وقت زواجه من أم الحاكي ثم ولادته ونموّه إلى عمر الخامسة. وفي هذه الفترة يكتب الحاكي مما يتذكر أنه حُكي له وليس من ذكرياته.

أما الذكريات فهي تتناول، إضافة إلى الحوادث والوقائع، وجهة نظر الحاكي، تفسيره للعلائق والخلفيات حسب ما فهمها الحاكي.»

* * *

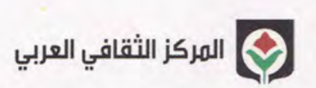
إن ثراء هذا النص ينبع من كونه يتناول مرحلة من حياة المغرب، وحياة أهل «الأطلس»، ومن جمالية السرد التي تميّز أعمال أحمد التوفيق، الذي يستخدم لغة رفيعة وعميقة محمّلة بمعانٍ تتجاوز معناها المباشر.

الناشر

صورة الغلاف: "منظر دار الوالد" (تاوريرت) في طرف إمرغن

ISBN 978-9953-68-358-1





الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com